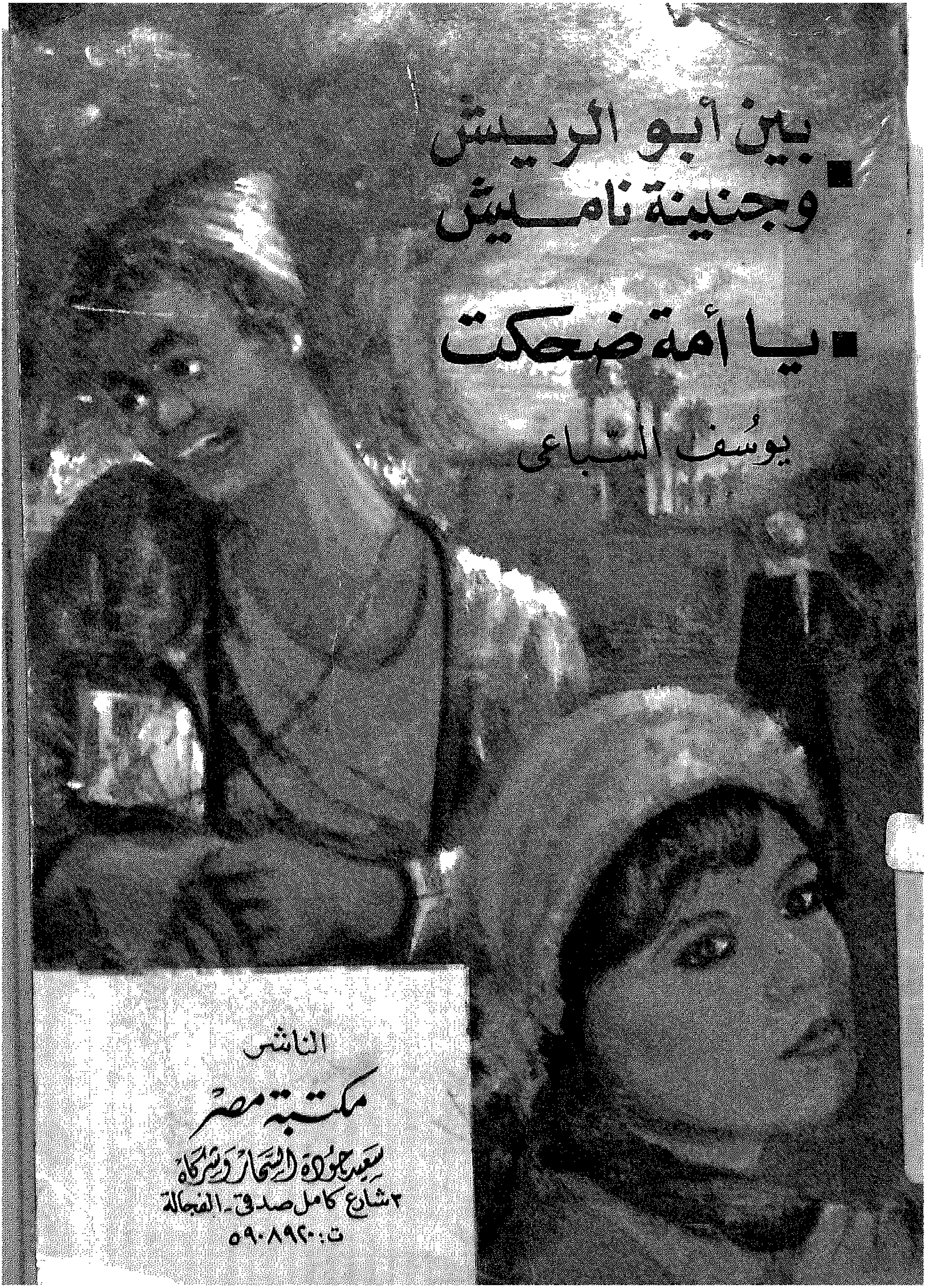


بين أبو الريش وجنينة ناميش

يا أمة ضحكت

يوسف السباعي

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٢ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

مؤلفات
يوسف السباعي

قصص
قصيرة

■ بين أبو الريش
وجنينة ناميش

■ يا أمة ضحكت

بين أبو الريش وجنينة ناميش

الإهـــداء

إلى رفيقى الصبا ...
وزميلى الطفولة ...
إلى أخوى .. (**محمود**) و (**أحمد**)
أول من جال معى :
بين أبو الريش وجنينة ناميش

« يوسف السباعى »

مقدمة

هذه جولة بين « أبو الريش وجنينة ناميش » وما حولهما ... جولة فى قصص ، فقد تبين أن القصة أضحت فرضا واجبا على .. وأن القارئ يأبى أن يقبل منى إلا قصة ... بل إنه ـــ سامحه الله ـــ مقتنع تمام الاقتناع بأنى لا أعرف غير القصة ... ولا أجيد فى غير القصة ... فقد كتبت ذات مرة مقالا نقديا فى الغناء ، فجاءنى خطاب من أحد القراء يدهش فيه كيف أكتب فى الغناء وأنا قصصى ! .

ولن يضيرنى ذلك فى الواقع ... لأنى أحب كتابة القصة ولأنى أستطيع أن أضع كل ما أود قوله من نقد وأفكار وخواطر فى أية قصة ... رغم أن القصة تحتاج إلى جهد فى حبكها أشق كثيرا من مجرد السرد العادى للخواطر .

وهكذا وجدت نفسى لا أستطيع أن أجول بالقارئ فى مرتع صباى إلا إذا أغريته بقصة ... حتى لا يمل السير معى ... وحتى تلهيه القصة إذا لم يكن من غواة التجوال بين الشوارع والأزقة .

وثمة سبب آخر يزج بـ « جنينة ناميش » فى قصصى ... وهو سبب عكسى للسبب الأول .

فبينما نجد أن التجوال فى « جنينة ناميش » هو الدافع إلى الكتابة ... وأن القصة ذاتها ليست سوى « برشامة » أضع فيها الجولة ... نجد فى أحيان أخرى أن فكرة القصة قد تكون حاضرة .. وإنى لا أكاد أجلس للكتابة لإبرازها إلى حيز الوجود باحثا لها عن مكان وزمان أجعلها فيه وأجرى حوادثها به حتى أجد ،

« جنينةناميش » قد أطلت من رأسى ... وإذا بالسبل قد ضاقت بى إلا عن السد البرانى ، والمنيرة ، والسيدة ، وزين العابدين ... وإذا بى أضع القصة برغمى فى هذه الأمكنة الرابضة من قديم العهد فى الذاكرة .

ويبدو لى أن هذه المنطقة من القاهرة ... أعنى منطقة « السيدة زينب » وما حولها من سيدى زينهم .. إلى الماوردى ، إلى الناصرية ، إلى درب الجماميز .. كانت موطنا لجميع المصريين ... فما قابلت إنسانا إلا يعرف حوض « سقى الحمير » فى ميدان المدبح ... ويذكر جيدا « الأبوة » الموصلة من حارة السيدة إلى جنينة ناميش وينبئنى أنى أذكره بأيام صباه ... أيام مدرسة محمد على ، وشارع الشيخ سلامة ، وسيدى الحبيبى ، وسيدى الطيبى .

ولقد كان أول من هلل وكبر لهذه الجولة ... الأستاذ الفنان « **الحسين فوزى** » ... فقد أصر على مصاحبتى بريشته ليسجل للتاريخ صورا مصرية أصيلة ... ويبرز لوحات من صميم الحياة المصرية ... ولم يكن ذلك عليه بالأمر العسير ... فقد وجدته أكثر منى حنينا إلى هذا الحى وأشد منى معرفة به ، وقال لى مفاخرا : إذا كنت أنت ربيب جنينة ناميش ... فأنا ربيب البغالة .

ولا أظننى قد وفيت الحى حقه بهذه الأقاصيص ... ولا استنفدت بها كل ما فى الذاكرة عنه ... ولا أظننى إلا عائدا إليه مرة أخرى .. فما زالت ذكرياته تملأ رأسى ... ولست بمستريح حتى أسكبها على الورق .

« **يوسف السباعى** »

٥ أبو الريش

كانت حياته ـــ على رغم أم سيد ـــ محتملة ، حتى كان ذات يوم ، مات الشيخ زكى وأضحى ضريح « أبـو الريش » بلا خادم ، ونقص أولياء الله الصالحون واحدا ، وبدا « لأم سيد » أن كرسى الولاية الشاغر يجب ألا يضيع من العائلة الصالحة ، وأن الشيخ « على لوز » قد سنحت له فرصة ذهبية يجب عليه انتهازها ...

تبدأ القصة فى حجرة فى الدور الأرضى بحارة الغزالات بالمدبح ، فى أحد جوانبها شباك من الحديد يطل على الشارع يبدو المارة من خلاله رائحين غادين ، وتتصاعد منه أصوات الباعة ورنين طاسات العرقسوس ، وفى الواجهة باب يؤدى إلى فناء الدار بدا منه بضعة أطفال يمرحون ويلعبون النحلة ، وفى الجانب الآخر باب يؤدى إلى المطبخ .

وعلى الجدران علقت لوحات قرآنية وحكمية ، مثل : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ و ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾ .

أما محتويات الحجرة فلا تزيد عن كنبة ذات مساند ، وبوفيه عتيق ، وماكينة خياطة صغيرة ، وثلاثة أزواج قباقيب ، و « كليم » ، وطبلية عليها ورق ملوخية ، و « أم سيد » بيدها المخرطة .

تبدو « أم سيد » وهى تخرط الملوخية وتهتز معها ذات اليمين وذات الشمال ،

فتهتز معها كتلة الشحم المكدسة على جسدها ، وتتذبذب على رأسها الأوية التى شغل بها المنديل الذى تزدان به .

يطرق النافذة طارق فتصيح « أم سيد » بصوت موسيقى ذى نبرات ممدودة كأنها تقاسيم الصبا :

ـــ مين ؟

ويجيبها صوت أجش عميق :

ـــ العيش .. عايزه كام رغيف النهارده ؟ .

ـــ عشره .. النص طرى والنص ملدن .

ويمد الرجل يده من النافذة بالعشرة أرغفة ويضعها على حافة النافذة من الداخل كعادته ، ثم يخط علامة بالطباشير على ضلفة النافذة يسجل بها الراتب اليومى وينصرف فى سكون .

وتدور « أم سيد » بنصفها الأعلى ثم تمد ذراعها فتتناول الأرغفة من حافة النافذة وتلقى عليها نظرة فاحصة ثم تضعها جانبا وتواصل عملية الخرط مترجحة الأوصال مترنحة الأعطاف .

وفجأة ينطلق من الباب ما يشبه القذيفة المتطايرة فى الجو فتصطدم بحديد النافذة وتكاد ـــ لولا ستر الله ـــ تصيب الزجاج فتحطمه . ثم تهبط مستقرة فى جوف الملوخية المخروطة .

وتنزع « أم سيد » القذيفة ، ويرتسم على وجهها خليط من الذعر والغضب بعد أن يتضح لها أن القذيفة ليست سوى « نحلة » أفلتت من أحد الصبية الذين يلعبون فى فناء الدار ، وتصيح هادرة ثائرة .

ـــ واد يا سيد .

ولا يجيبها سيد .. فقد فر مع بقية الصبية بمجرد انطلاق النحلة .

وتكرر المرأة نداءها دون جدوى ، ثم يصيبها اليأس والتبرم فتضع النحلة تحت فخذها السمين وتنفس عن كربتها ببعض الشتائم والسباب والتهديدات ، ثم

تواصل خرط الملوخية .

ولا تمضى لحظة قصيرة ، حتى تسمع وقع خطوات تقترب من البــاب متثاقلة ، وتصيح المرأة منصتة فى عجب ، ويفغر فوها عندما ترى الداخـل وتضرب صدرها بيدها صائحة :

ـــ إيه الِّى جابك بدرى كده ، كفى الله الشر .

ولا شك أن المرأة معذورة فى عجبها ، فإن الساعة ما زالت العاشرة ، وما تعود زوجها أن يحضر إلى الدار قبل صلاة الظهر ، ولا يمكن أن يعنى قدومه فى هذه الساعة إلا أمرا جللا .

ووقف « أبو سيد » أو « الشيخ على لوز » ـــ كما تعود أن ينادى فى مهنته الأخيرة ـــ أمام المرأة لينظر إليها شزرا وقد ارتسمت على وجهه علامات السخط والتبرم .

وعادوت المرأة سؤالها فى خشية وغضب :

ـــ ما لك ؟ . ياخويا انطق .

ـــ قرفت . خلاص .

أجل ، إن الشيخ على قد أعلن العصيان . وصمم على الثورة على مهنته الجديدة التى أرغم عليها إرغاما .

ما له هو ولكل هذا ، ما له هو ولهذا المظهر المحترم ، والذقن المسترسلة ، والسبحة المدلاة ، والشفة المتمتمة ؟

من كان يصدق أن المصير سينتهى به إلى هذه الحال ؟ .

من كان يصدق أنه . وهو المهرج الأكبر ، والبهلوان الأعظم ، الذى تقلب فى كل المهن والحرف ، سينتهى به الأمر إلى أن يكون شيخا مطمطما ، عابدا متبتلا ، ووليا من أولياء الله ؟

إنها لاشك مهنة مريحة مربحة ، ولكنه رغم ذلك لم يعد يطيقها ، إنه يستطيع القيام بها لأيام أو لأسابيع .. ويستطيع أن يتقنها أيما اتقان ما دام الأمر لا يتعدى

مدة محدودة ، أما أن يقوم بها إلى أخر العمر ، أو مؤبدا ، فذلك ما لم يستطع عليه صبرا .

رحم الله أيام العز ، عندما كان « الشيخ على » حرا طليقا ، تلك الأيام التى كان يعمل فيها سريحا يجوب الطرقات والأزقة .. جريا وراء الرزق ، الرزق المستعصى ، الصعب المنال .

إنه يذكر أول مهنة عمل فيها وهى صبى حاوى إذ كان يحمل جراب المعلم « سمبل » ويطوف معه الدروب والحوارى ، ويجلس لمعاونته أمام المقاهى ووسط حلقات الصبية ، فيخرج من فمه الثعابين ويدخل السيف فى بطنه ويخرجه من ظهره .

لقد علمه سمبل الشيء الكثير ، علمه كيف يخدع الناس ، ويحتال عليهم .

كان « سمبل » أستاذه الأول فى علم الحياة ، لقد أفهمه أن كل الناس حمير ، لا فرق فى ذلك بين حقير وخطير ، كلهم سواء فى المخبر وإن اختلفوا فى المظهر ، ضع الفقير مكان الثرى يصبح خطيرا ، وضع الثرى مكان الفقير تجده أشد حقارة .

لقد علمه أنه ليس فى الحياة شيء صعب ، وليس فيها أمر بعيد المنال أو مستحيل الوقوع ، وعلمه أن يعمل فى أى عمل ، وألا يظن إنه يجهل شيئا .. إن الزمن يفعل كل شيء ، فليدع كل شيء للزمن ، فهو لا بد فاعله .

إن الزمن يجعل من الحبة الجافة شجرة مورقة ناضرة ، ويجعل من النطفة إنسانا كافرا مغرورا ، ومن الكافر المغرور عظاما نخرة ، وقد يحييها بعد ذلك وهى رميم ، أفيصعب على الزمن الذى يفعل كل هذا أن يجعل منك إنسانا وأنت حمار؟!

لقد علمه « سمبل » الشيء الكثير ، علمه ألا يتعجب فى دنيا كلها عجب .. ما لك تدهش فى عالم ليس به إلا كل ما يدهش !

لا تدهش إذا ما رأيت كلبا يطل من عربة بويك تنهب الأرض نهبا .. لا تدهش إذا قالوا لك إن الكلب ذاهب إلى الطبيب لأنه تناول من

المارون جلاسيه ما أتلف معدته .. لا تدهش إذا احسست بقـرصة الجوع فاستعصت عليك شقة وطعمية ... لا تدهش إذا ما نفقت ومات الكلب ، فلم تذرف عليك دمعة ، وشبع الكلب بالعويل والبكاء .. ولكن لتدهش ما شاء لك الدهش ، إذا لم تجد الصحف مجللة بالسواد ، و لم تجد الكلب العزيز منعيا بالخط العريض .

كل هذا علمه له سمبل — طيب الله ثراه وأكرم مثواه — ولقد كان « الشيخ على » قمينا بأن يبقى مع الرجل حتى يخلفه بعد وفاته ، لو لا أن قرصة الجوع ذات يوم اشتدت عليه ، فاعتدى على الفطيرة التى كان يستعملها الرجل فى ألعابه ، والتى كان يضعها فى أسطوانة مستديرة ذات غطاءين يكشف أولهما فتبدو العلبة فارغة ، ويكشف الثانى فتبدو الفطيرة فيها .

ولكنه فى ذلك اليوم خذلته العلبة ، عندما كشف الغطاءين لأن الفطيرة كانت مستقرة فى جوف « الشيخ على » أو « الواد على » كما كان يسمى وقتئذ .

وطرده يومذاك بعد أن نتشه علقة ما زالت أثارها باقية على جسده حتى الآن .

وانطلق « الشيخ على » بعد ذلك فى الحياة ، وهو مشبع بفلسفة سمبل ، مقتنع تمام الاقتناع بأنه ليس هناك شيء مستعص ، وأنه يستطيع أن يفعل كل شيء .

واشتغل أول ما اشتغل بمسح الأحذية ، مارا على المقاهى ، ينقر الصندوق بفرشاته ، صائحا :

— تمسح يا بيه ؟ .

و لم تكن لديه فى أول الأمر أية فكرة عن مسح الأحذية ، وكان إذا ما جلس إلى الحذاء بدا له كأنه معضلة كبرى ، ولا يكاد يتم مسحه حتي يكون قد مسح معه نصف الشراب .. ومع ذلك ، فلم تكد تمضى بضعة أيام ، حتى أضحت المسألة سهلة هينة .. لا تحتاج إلا إلى وش تنفيض ووش ورنـيش ، ووش تلميع .. وأضحت قطعة القطيفة فى يده — على حد قوله — زى الحلاوة ،

وصدقت نظرية « سمبل » فى أن الزمن كفيل بكل شىء ، وأنه يعلم الإنسان ما لم يعلم .

واستيقظ ذات يوم فإذا بالصندوق قد سرق ، وهم بأن يحزن ، ولكنه تذكر أن حياته كانت يمكن أن تسرق بدل الصندوق ، فحمد الله واستبدل بحزنه ضحكة رنانة ، وسرعان ما انطلق فى الحياة مرة أخرى ، وكانت مهنته الجديدة ، هى مساعد أراجوز .

كان صاحب الأراجوز « إبراهيم بندق » قد تعارك مع مساعده ، فلم يكد يلقى صاحبنا حتى تهافت عليه ، وعرض عليه أن يعمل معه ، ولم تكن مهمة المساعد بالمهمة الشاقة ، أو العسيرة .. فما كان عليه سوى أن يمسك الطبلة وينقر عليها بضع نقرات .. ثم يجيب الأراجوز عن أسئلته من آن لآخر .

ولم يتردد الشيخ على فى قبول المنصب الجديد ، رغم أنه تردد أول الأمر ، وخشى ألا يعرف كيف يدق الطبلة ، ولكن بعد بضعة جولات كان يقوم بمهمته خير قيام .

وفى ذات يوم مرض « بندق » وأشرقت عليه الشمس وهو جثة هامدة ، وأصبح الشيخ على وارثا لمهمات الأراجوز ، وأضحى هو نفسه أراجوزا .

وتردد « الشيخ على » قبل أن يأخذ على عاتقه المنصب الجديد ، فقد كانت المسألة فى هذه المرة تحتاج إلى مهارة خاصة ، وإلى موهبة فى الصوت ، فليس صوت الأراجوز بالصوت الذى تستطيعه كل حنجرة .

وبدأ يقوم بالتجارب والتمرينات ، ومرت الساعات ، وهو لا يفعل شيئا سوى التزمير بحنجرته كأنه آلة موسيقية انهمك صاحبها فى تصليحها .

وأخيرا أنعم الله عليه ، بصوت الأراجوز ، وأحس « الشيخ على » بفرحة كبرى ، واندفع راقصا صاخبا ضاحكا ، وبدأ أولى جولاته الموفقة .

وانسجم صاحبنا فى مهنته الجديدة ، وأدخل فيها من التجديد والابتكار ما أخرجها من جمودها وركودها ، وبدأ يحفظ أحدث المنولوجات وأكثرها

ذيوعا ، لكى يلقيها بلسان الأراجوز .

وأعاد « الشيخ على » رسم العرائس ، واخترع شخصيات وأسماء جديدة غير التى اعتادها الأراجوز منذ عشرات الأعوام ، وبدأ يخلق من صندوقه عالما آخر . و لم ينس أن يخلد ذكرى أستاذه الأول فصنع إحدى الدمى وسماها « سمبل الحاوى » .

وسارت حياته منذ ذلك الحين هنيئة رغدة . وزاد رغدها عندما سنحت له الفرصة وواتاه الحظ . فاستطاع الالتحاق بعمل ليلى فى تياترو « أبو الريش » فاتسع رزقه وزادت موارده ، وأضحى أراجوز النهار وبلياتشو الليل ، لا يكاد يكف لحظة عن الضحك والتهريج .

وما من شك فى أن الرجل كان ينوى أن يقضى حياته وهو على حاله تلك من الفرفشة ، والمهيصة ، يغازل هذه ويداعب تلك ، لا هم له إلا الترويح عن نفسه حتى أصابه الله بشر ما يصيب به عباده ، وابتلاه بالكارثة الكبرى ، الزواج ، فقلبت حياته رأسا على عقب .

لقد أحب المسكين ، أحب « البت عزيزة القرد » بنت « الشيخ زكى القرد » شيخ أبى الريش وخادم ضريحه ، الرجل الطيب ذى الكرامات والبركات .

وكثيرا ما يجلس « الشيخ على » الآن ، فيتأمل « عزيزة » أو « أم سيد » ويهز رأسه متعجبا أسفا ، ويسائل نفسه كيف هيأ له الخبل أن يحبها .. وماذا أبصر فيها وقتذاك مما يعشق ويسبى ؟!

الحمار ، الأبله ، لقد نسى نصيحة أستاذه « سمبل » الذى طالما حذره من النساء ونصحه — وهو ما زال صبيا — بألا يقع فى شرك الزواج ، وأن يبعد جهده عن ذلك الطعم المسمى بالحب .

ومع ذلك ، فقد أحب ، وطب ، كأى مدب ! .

لقد أغراه الطعم بالتهامه ، وأوقعه فى شرك « عزيزة » ، ردفان ثقيلان ،

ونهدان ناضجان ، أوشكا من فرط الثقل والاستواء أن يتساقطا .

رآها ذات مرة من ثقب حاجز الأراجوز ، فأخذ بها ، وبدأ فى مغازلتها ، على لسان الأراجوز مدعيا أن الأراجوز يحب القشطة ويموت فى المهلبية . وأحست « عزيزة » أنه يوجه إليها القول ، فعلا وجهها الاحمرار ، وانصرفت مدعية الغضب .

واستبد به الحب وقتذاك فلم تمض بضعة أيام حتى ذهب إلى « الشيخ زكى القرد » يخطبها منه .

ورحب به الشيخ زكى فى مبدأ الأمر . ولكنه عندما تبين مهنته أبدى كثير اشمئزاز ، وأنبأه — بالاشتراك مع أم عزيزة — أنه لا يقبل أن يزوج ابنته أراجوزا أو بلياتشو ، وأنه إذا كان يرغب فى زواج ابنته رغبة صادقة فإن عليه أن يغير مهنته أولا .

ومرت الأيام به وهو يقارن بين عزيزة والأراجوز ، وأخيرا ، وللأسف الشديد فضل عزيزة .

وهكذا وجب عليه أن يبحث له عن مهنة جديدة ، ولم يكن ذلك عليه بالأمر العسير . فسرعان ما باع مهمات الأراجوز واستعاض عنها بعربة يبيع فيها « على لوز » ويضع عليها لوحة للتنشين وبندقية ويضع علب ملبن ، وبصوته الجهورى الرنان ينادى :

— فتح عينك تأكل ملبن .

وتزوج الشيخ على بعزيزة بعد أن وطد مركزه فى تجارته الجديدة ، ولم تكن حياته بعد ذلك بالشئ الذى لا يحتمل بل كان يتساوى فى التعاسة مع سواه من الأزواج .

أجل ، كانت حياته — على رغم أم السيد — محتملة ، حتى كان ذات يوم ، مات الشيخ زكى ، وأضحى ضريح « أبو الريش » بلا خادم ونقص أولياء الله الصالحون واحدا .

وبدا لأم سيد ولأم أم سيد (فاطمة القرد ، زوجة المرحوم الطيب الذكر) أن كرسى الولاية الشاغر يجب ألا يضيع من العائلة الصالحة وأن « الشيخ على لوز » قد سنحت له فرصة ذهبية يجب عليه انتهازها .

وذهل « الشيخ على » فى مبدأ الأمر ، فقد كان واثقا أنه آخر من يصلح لهذا الأمر ، وأن طبيعته المهرجة البهلوانية لا تتلاءم قط مع هذا المنصب الدينى الخطير . ولكنه وجد أن مفاوضة زوجته وحماته ضرب من المستحيل .

وارتبك « الشيخ على » فى بادئ الأمر ، فما كانت لديه أقل فكرة عن أبسط مبادئ الدين ، ولكنه تذكر فلسفة سمبل وأنه ما من شئ فى الحياة إلا والزمن كفيل به .

وأرسل الرجل لحيته .. واستبدل بالتهريج عبوسا .

واستمر قائما فى ولايته ومشيخته مرضيا كل من حوله مقنعا كل الناس إلا نفسه .

أجل . لقد أحس أنه لم يعد يطيق مهنته ، وأن لحيته تثقل عليه ، وأنه كان أقرب إلى الله وهو مخلص فى تهريجه منه وهو منافق فى عبادته .

لقد كان بالأراجوز يضحك الناس ، فأصبح بلحيته ومسبحته يضحك على الناس .

لا .. لا .. لقد صمم على أن يعود إلى سيرته الأولى .

وعاد فى الصباح إلى بيته يعلن الثورة على « أبو الريش » وعلى « أم السيد » .. وقف أمام « أم سيد » وقد أمسك بلحيته يهزها ويقول فى تحد :

— خلاص زهقت .. زهقت من الدقن دى .

— قصدك إيه ؟

— يعنى مش ضرورى دقن . هو لازم الواحد يربى دقنه عشان يقرب من ربنا ؟

— انت يا راجل لازم اتجننت .

وتركت أم سيد مكانها أمام الطبلية ، وأمسكت بالمخرطة ورفعتها فى يدها وأمرت « الشيخ على » أن يعود إلى الضريح بالتى هى أحسن .

وخرج « الشيخ على » مطاطئ الهامة عائدا إلى الضريح ، ولكنه مر فى طريقه بالرجل الذى ابتاع منه الأراجوز فاستعاد لنفسه بعض الدمى .

ودخل « الشيخ على » داخل الضريح فإذا به يسمع صوت نحيب قريب ، وأبصر امرأة بجوار الضريح تبكى بكاء مرا فسألها عما بها فأنبأته أن ابنها على شفا حفرة من الموت وأنها تسأل سيدى « أبو الريش » أن يأخذ بيده .

وفكر « الشيخ على » برهة فوجد أن ما تعود أن يفعله من تعاويذ وما يمنحه من بركات ليس سوى خداع فى خداع ، وأن خير ما يمنحه للمرأة مخلصا هو أن يسليها ببعض اللعب بالأراجوز .

وبدأ الرجل لعبه داخل الضريح والمرأة فى دهش شديد ، ورويدا رويدا بدأت أساريرها تنفرج حتى شاع فى وجهها السرور .

وفجأة أحست المرأة بنور يملأ الضريح ، ونفذت إلى أنفها رائحة بخور جميلة قوية ، وخيل إليها أنها تسمع صوت ابنها يصل إليها من بعيد .

وعندما عادت إلى دارها وجدت ابنها قد أبل مما به .

وشاع فى الحى خبر المرأة ، وخبر معجزة « الشيخ على لوز » والأراجوز .

ومنذ ذلك اليوم اعتقد الناس اعتقادا جازما أن « أبو الريش » يحب الأراجوز ، وأنه لا يمنح كراماته إلا بالتوسل بالأراجوز .

ولم يفكر « الشيخ على » بعد ذلك فى ترك الضريح ، فقد سره أن يعبد الله مخلصا بطريقته الخاصة ، وتركه الناس يلعب بدماه كما يشاء .

ماذا يضيرهم من ذلك ما دام يمنحهم بركاته وكراماته ؟ إن الرجل لاشك قد أصابه خبل ، ولكن أليس الخبل شرطا من شروط الولاية ؟

وماذا يضير « الشيخ على » أن يقال عنه إنه مخبول مجذوب ؟.

بقى بعد ذلك أن نسأل الله : أيهما أقرب إليه ؟! فقيه مخادع ، أم مهرج أمين ؟ .

فى جنينة ناميش

كان يعتبر نفسه فى « جنينة ناميش » شخصية عامة يشترك فى كل موكب ويساهم فى كل حفل عام ، وكان أكثر ما يطربه أن يمتطى عربة الجوافة ويقود الجمع الغفير من الصبية معاونا البائع فى صياحه : « عال يا جوافة بقرش الوقة » ، « اوزن بره ... بقرش الوقة » .

لست أدرى ماذا فعل الزمن به .. ولا على أى حال أصبح ، وإن كنت لا أشك فى أنه ـــ بحساب السنين ـــ قد أضحى رجلا عاقلا متزنا ، وأن الزمن قد رزأه بالزوجة والأولاد ، فأصبح رب عائلة وعماد أسرة ، وأثقل كاهله بمسئولية الرزق وهموم الحياة .

ومع ذلك فأنا لا أستطيع تصوره إلا بصورته القديمة التى تعودت أن أراه عليها منذ عشرين عاما .. فقد كانت تلك هى هيئته وطابعه التى يجب أن يكون عليها دائما .. والتى يستحيل عليه أن يبدو فى غيرها ، مهما مر به الزمن وعدت عليه السنون .

إن « جوده » ـــ مهما حدث للدنيا وللناس ـــ لا يمكن أن يكون غير « جوده » الذى كان يخدم فى بيتنا لبضع سنين حوالى عام ١٩٣٠ .

كنا نقطن وقتذاك فى « جنينة ناميش » قرب سيدى الأربعين فى منزل يقع على ناصيتى شارع الخليج وشارع الأربعين المواجه لكوبرى المنيرة .. وقد حدثت فى

البيت أزمة خدم عقب هروب الخادم ، وزواج الخادمة .. ومر بنا أسبوع بلا خدم ، حتى تطوعت « أم نجية » الغسالة بإحضار ابنها « جوده » للخدمة فى البيت .

وحضر « جوده » وبدأ أعماله فى الدار وخارج الدار . ولست أشك فى أنه لولا خوف والدتى من « أم نجية » لما قبلت أن تبقى عليه لحظة واحدة .. فقد كان مخلوقا متعبا كثير المشاكل ، جلابا للمتاعب والمصائب .

كان « جوده » نموذجا للتشرد ، والشقاوة ، والعفرتة ، والإجرام الصبيانى .. وإنى لأذكر صورته وقتذاك بشعره الأسود المشوش الشبيه برأس العبد ، ووجهه الأسمر المستطيل ، وأسنانه الفلجاء ، وأذنيه الكبيرتين ، وجسده النحيل الشبيه بجريد النخل ، وجلبابه الزفير المخطط ، وقد شمر ذيله الجرار ووضعه فى اللباس الدمور ، فكشف عن ركبتيه السوداوين المليئتين بالجروح والندوب .

ولقد أضحى « جوده » على مر الأيام ، المصدر الأول — بعد أبى طبعا — لمتاعب أمى .. فلقد أضاعت ثلاثة أرباع عمرها فى الشكوى من « جوده » والصراخ على « جوده » والسب والضرب فى « جوده » .

ولم يكن « جوده » يسمى قط باسمه ، بل كان يكنى — على طول الخط — بـ « اللى ينعدم » و « اللى تنقصف رقبته » و « المتنيل على عينه » و « اللى ينشلك فى قلبه » .

أما هو فكان يضحك دائما .. كان إنسانا بحبوحا .. يضرب فيضحك ، ويسب فيضحك ، ويشتكى منه فيضحك ، وما من شىء كان يستطيع أن يجعله يكف عن الترتم بأغنيته المحبوبة : « على دول ياما ياما على دول » .

ولم يكن « جوده » يعرف شيئا عن المسئولية . ولا حاول قط أن يقدر عاقبة أو يخشى نتيجة ، بل كان يفعل كل ما يحلو له وكثيرا ما خرج ليقضى حاجة من البدال فى أول الشارع فيمضى به اليوم دون أن يحضر ، حتى يطلب منا أن نرسل

فى أخذه من الإسعاف أو من قسم السيدة .

ذهب مرة ليحضر صينية بطاطس من الفرن ، ومضت ساعتان دون أن يحضر ، وجلس والدى على المائدة يحرق الأرم غيظا ، وأخذت أمى تنتقل من نافذة إلى أخرى وهى تكاد تجن ، وأخيرا ظهر « جوده » فى الشارع وقد وضع الصينية على رأسه دون أن يمسكها بيديه ، وسار مادا ذراعيه إلى جنبيه وهو يوازن نفسه كأنه بهلوان يمشى على حبل ، وصرخت فيه والدتى أن يسرع ، ولكنه لم يزد على أن رفع عقيرته بالغناء « على دول ياما ياما على دول » .

ووضعت الصينية على المائدة ، ونظرت والدتى إليها ثم صاحت فى دهش وغضب :

— إيه ده يا واد ؟ الصينية دى مش بتاعتنا !

وابتسم « جوده » ، وهز رأسه هزة خبير وقال :

— أنا عارف .

— وجبتها ليه ؟

— دى أحسن من بتاعتكم .

ثم أخذ يوضح قوله للأعين الدهشة المصوبة إليه ، فقال بابتسامة راضية :

— دى بالفراخ ، بتاعتكم كانت باللحمة ، اللحمة العجالى .

وبدأ يشرح لنا كيف حاول الفران تأخيره .. ساردا الحوار الذى جرى بينهما :

— فين الصينية ؟

— استنى شويه ، بلاش فلقة دماغ .

— يا جدع هات الصينية ، سيدى مستعجل .

— ماتخوتناش ، يلعن أبوك لأبو سيدك .

ثم ينظر بطرف عينه ليرى وقع إهانة الفران على أبى ، فلما لم يجد لها تأثيرا يذكر ، عاد إلى تكرارها مسترسلا فى رواية المعركة :

ـــ فلما قال لى يلعن أبوك لأبو سيدك ، رحت لا عن سنسفيل أجداد أبوه ، وصممت أنى أنتقم منه ، وفضلت مستنى لغاية ما ابتدى يطلع الصوانى وحطيت عينى على أجدع صينية وسهيته ورحت لاطشها .

وذهل « جوده » عندما أمرته أمى بإعادة الصينية ، وانهالت عليه بالشتائم ، ونظر إلى أبى مستنجدا ، ولكن أبى هز رأسه كأنه يقول « ما باليد حيلة » ، وخرج جوده عائدا إلى الفرن وهو يصيح : أصل مالكمش فى الطيب نصيب .

وكناوقتذاك ـــ أنا وأخى ـــ فى مدرسة محمد على الابتدائية ، وكان توصيلنا إلى المدرسة وإحضارنا منها أحد الواجبات الهامة الملقاة على عاتق « جوده » .

وكان المفروض فى « جوده » أن يأخذ باله منا ، وأن وجوده معنا مقصود منه الاطمئنان على سلامتنا ، ومنعنا من الشقاوة واللعب ، ووقايتنا من حوادث الطريق .. ولكننى أجزم بأننا لو تركنا وحدنا لكنا أكثر سلامة واطمئنانا ، ولسرنا فى الطريق أهدأ ألف مرة مما كنا نفعل . وكيف يمكن أن يجتمع الهدوء والسلامة مع « جوده » فى طريق أو فى دار ؟ وهو الذى كان فنانا فى الشقاوة .. عبقريا فى خلق الحوادث واصطياد المشاكل ؟

كنا نهبط من الدار فى السابعة صباحا وقبل أن نتجاوز الباب يخلع صاحبنا نعليه ، سواء كان شبشبا أم قبقابا .. ويخفيه وراء الباب ، فقد كان لا يحب شيئا أكثر من حرية الساقين ، وكان يدعى دائما أن النعل يعوق حركته ، وأنه ليس هناك أفضل من الحفاء ، فإذا تجاوزنا الباب وابتعدنا عن الدار ، رفع ذيل جلبابه ووضعه فى اللباس كما تعود أن يفعل ، ثم أخرج من جيبه كرة شراب ، ووضع أصبعيه فى فمه وأطلق صفارة طويلة .

وهكذا نبدأ الذهاب إلى المدرسة عدوا ، والكرة تنتقل بين أقدامنا ، عابرين سيدى الأربعين إلى درب المدبح إلى شارع السد ، هو فى منتصف الطريق قلب هجوم أو سنتر فرود كما كان يزعم ، وأنا جناح أيمن ، وأخى جناح أيسر . ولست أدرى ماذا كان يمكن أن تقول والدتنا لو رأتنا على حالنا تلك ، نقطع

شارع السد البرانى من سيدى الحبيبى حتى شارع سلامة ، نعدو بالكرة بين مختلف أنواع العربات ، و « جوده » يطلق الصفافير بفمه وأصابعه آمرا المارة أن يخلوا الطريق لتيم الكابتن « جوده » .

وأذكر أن الكرة أفلتت منا ذات مرة عندما ضرب « جوده » إحدى « الباصات » ، وكانت طويلة بعض الشىء ، وتجاوزت الجناح الأيمن لتستقر رأسا داخل قدرة فول مدمس ، فلم يكن من « جوده » إلا أن أمرنا بالزوغان ، وأخذنا نعدو وراءه حتى اختفينا فى أقرب حارة ، ونحن نرتجف خوفا من « عم منصور » بائع الفول والبليلة السخنة .

ولم يكن يمر بنا يوم دون أن نشتبك فى معركة ، فقد كان « جوده » — كما تقول أمه — يشاكل طوب الأرض . وكان مغامرا فدائيا لا يعتبر فارق القوة بينه وبين خصمه حائلا دون الاشتباك معه ، بل أغلب الظن أنه كان يرى نفسه أقوى وأفضل من أى إنسان ، وإنى لأذكر ذات مرة أن والدتى سألت أمه عما إذا كان يمكنها أن تحضر لعمتى خادما مثل جوده — تقصد مثله سنا — وسمع « جوده » قول أمى فهز رأسه وأجاب فى أسف واعتذار :

— زيى أنا ؟ مش ممكن ، وتلاقى منين زيى ؟

وكان جوده يتفنن فى وسائل التسلية التى نقطع بها الطريق إلى المدرسة ذهابا وإيابا ، وكان يوم الخميس من الأيام المشهودة لديه ، فقد كان يشحذ همته ويحشد قوته للاستيلاء على أكبر عدد من النوت التى كانت توزعها سينما أوليمبيا وإيديال على باب المدرسة ، وكان يخرج منها بنصيب الأسد ، فى النوت ، وفى الجروح والكدمات .

وكان يعتبر نفسه فى جنينة ناميش شخصية عامة يشترك فى كل موكب ويساهم فى كل حفل عام ، وكان أكثر ما يطربه أن يمتطى عربة الجوافة ويقود الجمع الغفير من الصبية معاونا البائع فى صياحه « عال يا جوافة .. بقرش الوقة » ، « اوزن بره .. بقرش الوقة » ، أو يقود المظاهرة وراء الجمل صائحا :

« من ده بكره .. بيقرشين » .

وفى عودتنا من المدرسة ، كان أهم مورد لتسليتنا هو الشيخ « كحكو » فقد كنا نبدأ فى زفه بمظاهرة يقودها « جوده » ويشترك فيها كل من هب ودب من صبية مدرسة محمد على ووادى النيل ، ومدرسة الكمال ، أى الجيل الجديد فى حى السيدة زينب .

كنا نلتقى بالشيخ « كحكو » خارجا من إحدى حوارى شارع سلامه ، فلا نكاد نبصره حتى يبدأ جوده بالهتاف : « شد العمة شد » فنجيب على هتافه : « تحت العمة قرد » .

وهكذا يسير الموكب وراء الشيخ « كحكو » مخترقا شارع السد البرانى وجوده يتفنن فى الهتافات والرجل ثائر هائج ، يقذفنا بأقبح الألفاظ ويدعو علينا بأفظع الدعوات ونحن ضاحكون منشدون : « شيخ كحكو يا شيخ كحكو » .

ولست أشك فى أن الشيخ « كحكو » لو استطاع أن يمسك بجوده لما تورع عن أن يطبق فى زمارة رقبته ويمزقه إربا ، فقد كان يعتبره عدوه الألد ، وخاصة بعد تلك الواقعة التى حدثت بينهما عند سيدى الحبيبى .

كان ذلك قبيل العصر وقد خرج « جوده » لشراء بعض الحاجيات من شارع السد ، ومضت بضع ساعات دون أن يعود ، وفى الساعة العاشرة مساء حضر شيخ الحارة ليطلب منا ــ كالمعتاد ــ أن نذهب لتسلمه من القسم .

وأحضر « جوده » من القسم ، وبعد العلقة والذى منه خلوت به أنا وأخى فى المطبخ ، وأخذنا نسأله عما حدث .

وضحك والدموع فى عينيه وأجاب متفاخرا :

ــ عصفورين بحجر .. عصفور حقيقى ، وعمة الشيخ « كحكو » .. خليتها تنزل ترف .. فاتكم نص عمركم !

وبدأ « جوده » يقص مغامرته قائلا :

ــ أما كان يوم ياولاد ، يعلم بيه ربنا ، أنتم عارفين انى أنا خارج من البيت على أنى أشترى بتعريفه لمون من تحت الكوبرى ، والا من محمد البطل ؛ لكن أنا يا دوبك سبت باب البيت ولقيت الواد زينهم فى وشى .

ــ زينهم مين ، ابن الشيخ طرطور ؟

ــ لأ .. ابن زكية العمشه .

ــ وبعدين ؟

ــ ولا قبلين .. قال رايح فين ؛ قلت له رايح أشترى لمون .. قلت له وأنت ؟ قال رايح أصطاد .

ــ يصطاد ؟

ــ أيوه يصطاد .

ــ يصطاد إيه ؟

ــ متخليكو معايه ، مانا جيلكو أهو ، قلت له رايح تصطاد إيه يا وله يا زينهم ، قال لى عصافير يا خويه يا جوده ، عصافير ؟! معاك فخ ؟ قال : لأ نبله ؛ قلت له جاتك نيله ؛ أل يعنى الواد نشانجى أوى ، أفتكرت معاك فخ كنا نروح نصطاد فى عربخانة الرمالى ؛ دا هناك العصافير بتشغى زى النمل .

ــ فخ ؛ هو احنا بتوع فخوخ . دا شغل نسوان تحط الفخ وتقعد جنبه زى الولايا ؛ عارف النبله دى توقع لك أجدع نسر ، شوف .

وعنها وراح معمر النبله بحتة زلطة وراح ضاربها فى الهوا طلعت الزلطة تصفر زى الصاروخ ؛ فشر البندقية .

أقول لكم الحق ، عينى زاغت على النبلة ، وأنا أصلى نشانجى طول عمرى وأفهم فى النبل كويس ، لكن ما حبتش أطمع الواد زينهم فى وأخليه يتقنزح على ؛ رحت قايل له :

ــ دى نبله دى ، روح يا بنى بلاش معيله ، دى تصطاد بيها دبان مش نسور ؛ روح خلينى أشوف شغلى .

— يعنى مالكش غرض تصطاد ويايه ؟

— لأ . وحاتصطاد فين ؟

— حاصطاد فى شارع السد ، انت عارف شجرة دقن الباشا اللى بعد سيدى الحبيبى اللى بتقعد تحتها أم سيده بتاعة الفول النابت والكرات والبصل الأخضر .

— واشمعنى دى يعنى اللى نقيتها من بين الشجر .. ما قدامك شجرة سيدى الأربعين ؛ والا الشجرة اللى فى بيت المنفلوطى ؛ وألا بيت الزعبلاوى ؛ والا الماوردى ؛ والا الرمالى ؛ لازم تخبط المشوار لغاية هناك ؟

— أصلها شجرة سقع ؛ بتشغى عصافير ؛ تقف تحتها تسمع الصوصوه واصله لرب السما .. ياالله معايا .

— لا يا عم .. أنا رايح اشترى اللمون .

— طب ما تشترى اللمون من عند أم سيده ؛ قل لستك انك مالقتش لمون تحت الكوبرى ولا عند أحمد البطل ؛ رحت تشترى من عند سيدى الحبيبى .

وقفت شويه أفكر ؛ قام زينهم قال لى :

— وجب ؟

— وجب ؛ بس انا اللى اصطاد الأول ؛ ورينى النبله .

مسكت النبله ؛ حطيت فيها الزلطة ورحت ضارب .

طلعت الزلطة .. تروح بعيد ؟! أبدا .. توقع عصافير ؟ أبدا .. تطلع فى الهوا ؟! أبدا .. الزلطة بنت الدايخه تسيب كل الدنيا الواسعة وتندب فى الفانوس الصغير المعلق على بيت المعيرجى نزلته فتافيت .

الفانوس سقط ، وقلبى سقط ، وروحى ساخت وانتو عارفين المعيرجى راجل مجنون وعارفين الشومه بتاعته ، رحت حاطط ديلى فى اسنانى أنا وزينهم وقلت يافكيك .

فضلنا نجرى لغاية ما وصلنا بوابة الرمالى ودخلنا جوا الوابور وبعدين وقفنا ناخد نفسنا ؛ وبصيت لزينهم وقلت له :

ـــ شايف النشان يا وله ؟

ـــ نشان ! طب تعالى نقف قدام الفانوس سنة وجرب تصيبه ؟! أل نشان أل ؛ علىّ أنا يا جوده .

وطلعنا من وابور الرمالى على شارع السد ؛ ورحنا على شجرة دقن الباشا ، ووقفنا ، وابتدأ زينهم يضرب .

طلعت أول زلطة ، ولا نزلتش لا هى ولا العصفوره .

زينهم هز رأسه وقال دى تجربه .

طلعت الثانية ولا نزلتش العصفوره ؛ لكن نزلت هى على دماغ « أم سيده » ؛ وانتو عارفين « أم سيده » ؛ وليه غجرية ؛ مسكت الزلطة وبصت فوق الشجرة مالقيتش حد .. بصت حواليها لقيت زينهم ماسك النبله ، راحت هبه فيه : والنبى واللى نبا النبى ! لو مسكتك ما تمسكك عافيه ، امشى بقولك من هنا منك له ؛ لحسن العفاريت بتنط من عنيه .

ـــ معلهش يا أم سيده ، أول جوز عصافير ليكى .

ـــ مانيش عايزه عصافير ، اللى يفرقه العويل يسفه .

المقصود ما طولش عليكم ، فضل زينهم يضرب من غير فايده ، رحت واخد منه النبله ، وابتديت الضرب ، تطلع الزلطه وورا الزلطه والعصافير ما عندهاش دم ، ما فيش واحده تنزل توحد الله .

الحقيقة انكسفت ، وعمرت النبله وقلت فى نفسى آهى آخر زلطه ، وقريت عليها الفاتحة ، ورفعت إيدى بالنبله عشان أضرب ، فى الوقت ده لقيت قدامى ، مين تفتكروا ؟ خمنوا كده ؟! لقيت عمة الشيخ كحكو .. لأ .. لأ مش على الشجرة ، على دماغ الشيخ كحكو ، وهو جاى يتبختر من عند سيدى الحبيبى .

قلت فرجت ، ووطيت إيدى بالنبله ، ورحت ضارب وقلت : يعنى لا عصافير ولا عمم ؟. وعنها وتنزل عمة الشيخ كحكو ترف بعدما لفت معاها

دماغ الشيخ كحكو سبع لفات .

وينظر جوده الينا ويتساءل :

ـــ بالذمة مش تستاهل أروح فيها القسم ؟

ـــ أى والله تستاهل .

ومرت الحادثة كغيرها ؛ وحلت الإجازة الصيفية ؛ وبدأت والدتى تقاسى منا فى خلالها الأمرين ، وتستجير بالله منا ومن أفعالنا وتدعو على وزارة المعارف لأنها لم تجعل العام الدراسى ممتدا على طول السنة .

وفى ذات يوم كنا نقف أمام البيت ، وقد بدأنا الاستعداد للعب الكرة ، وانتهى جوده من عمل كرة ضخمة حشاها بكل خرق البيت ، وأمرنا أن نخلع أحذيتنا حتى تتساوى ولا يستطيع أحد منا أن « يكسر » الآخر .

وخلعنا أحذيتنا ووضعناها وراء الباب عندما سمعنا صوت ضجيج يأتى من بعيد ، ثم لاح لنا شبح مظاهرة قادمة من شارع الخليج ، وكانت تلك الفترة مليئة بالمظاهرات التى كان الوفد ينظمها ضد وزارة صدقى باشا .

واقتربت منا المظاهرة ، خليط من أهل الماوردى والمدبح بجلاليبهم وطواقيهم ، وقد أمسكوا بأيديهم العصى والشوم وأخذوا يهتفون فى نغمة راقصة ملحنة : «يحيا الوفد ، ويحيا الوفد » .

وانتشى جوده وتملكه من الهتاف الوفدى الملحن الراقص طرب شديد ، فقذف بالكرة وراء الباب ، وصاح بنا فى عجلة :

ـــ ياللا بينا .

وظلت المظاهرة تسير من شارع إلى شارع ، مخترقة وابور الرمالى إلى البغالة مارة بجميع الشوارع والأحياء ، وهى تتكتل وتتضخم .

وسرقنا الوقت ونحن مندمجون فى المظاهرة الصاخبة الهادرة وظللنا نجول معها دون أن نشعر .

ولتتصوروا حال والدتى وقتذاك : لقد كادت تجن ؛ وهى تقف فى الشرفة

باكية ؛ وقد ذهب أبى ليبلغ الأقسام عن غيابنا ويبحث عنا فى القصر العينى .

وأقسمت والدتى ليلتئذ أنها لن تبقى فى البيت لحظة واحدة إلا إذا أدخلنا أبى المدرسة ؛ أى مدرسة .

وهكذا استقر الرأى على أن نقضى بقية إجازتنا فى أحد الكتاتيب رغم أننا كنا فى الرابعة الابتدائية ؛ فقد كان المطلوب هو مجرد سجن يبعدنا عن الدار .

وفى ذات صباح تحرك الركب متجها إلى الكتاب الذى اتفق أبى مع صاحبه على إيوائنا وقد ضم ثلاثتنا : أنا وأخى وجوده ؛ وكان جوده يرتدى طربوشا وصندلا وجلبابا جديدا ؛ ولم يكن هذه المرة مجرد موصلاتى ؛ فقد عقدت أمى النية على أن يبقى معنا طالبا فى الكتاب لحراستنا ثم يعود معنا فى نهاية اليوم .

وكان « جوده » فى حالة سعادة تامة ؛ وهو يرتدى طربوشه وصندله ؛ إذ كان يشعر أنه مقدم على مغامرة جديدة ؛ فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يذهب فيها إلى كتاب .

ووصلنا إلى الكتاب ودلفنا إلى داخله ، واتجهنا إلى حجرة على اليمين كتب عليها « الناظر » .

ودخلنا إلى « الناظر » لنعلنه بنبأ قدومنا ؛ ودفعنا بابه باستخفاف ، فقد كنا نحس أننا أرفع كثيرا من الكتاب ومن الناظر ؛ وأن مجرد وجودنا عنده يعتبر تشريفا له تماما كما ينتسب العلماء إلى إحدى الجامعات .. وتوقعنا أن يهلل الناظر لقدومنا ويكبر .

ووقع بصرنا على الناظر ؛ فدهشنا وبهتنا ؛ ووقع بصر الناظر علينا .. فدهش وبهت .

لقد كان الناظر هو بعينه الشيخ « كحكو » ، لقد هلل لنا وكبر ، ولكن كان تهليلا فى غير مصلحتنا ، وكان أول ما فعل أن نادى الفراش وصاح به مشيرا إلى « جوده » : هات الواد ابن الكلب ده حط رجليه فى الفلقة » .

ووضعت قدما جوده فى الفلقة وهو يصرخ ويستغيث ، والشيخ يصيح ، « شد الفلقة شد » ؛ لقد كان الكتاب حقا بالنسبة لجوده مغامرة كبرى .

فى سيدى زينهم

وخرجت « أم عبده » من باب الدار عابرة سيدى زينهم إلى شارع سكة البغالة ، ثم اتجهت يمينا إلى ميدان زين العابدين .. وسارت بجوار حوض شرب الحمير الكائن فى الميدان وهى تتلقى السلام ممن استيقظ من أهل الحى .

بى حيرة من أين أبدأ الجولة .. وبمن أفتتحها ؟. بأم عبده .. أم بعبده ؟. ولكننى أظن من الخير قبل أن أبدأ بأيهما أن أنبه القارئ ألا يخدعه تشابه الأسماء .. فيظن أن أم عبده هى « أم » عبده حقا .. وأن عبده هو ابن لها .. إذ لا صلة هناك بين الاثنين ولا قرابة . فأم عبده قد أفنت أزواجها الأربعة .. وأولادها العشرة الواحد إثر الآخر .. فما بقى منهم واحد على قيد الحياة . بما فيهم عبده ، الذى نعتت باسمه ، والذى قد مات مضروبا ببلطة فى إحدى ليالى الزفاف .

أما السيد عبده .. أو عبد السميع أفندى .. أو عم عبد السميع .. كما يسميه أصدقاؤه وإخوانه .. أو « المنيل على عينه الشحات ابن الشحات » كما كانت تصر أم عبده على تسميته .

أقول أما عبده هذا فقد كان بلا أم .. أعنى بلا أم على قيد الحياة .. فقد نشأ يتيم الأم والأب .. وخاض معركة الحياة وحيدا ، وسار فيها فريدا .. وأفنى صباه وشبابه وجزءا من كهولته .. وهو وحده لا شريك له .

لنبدأ بعبده .. فنبحث عنه .. ولنصعد الدرج حتى نصل إلى حجرته الكائنة بسطح الدار التى تملكها أم عبده فى سيدى زينهم .

الوقت قبيل الفجر لا يقطعه إلا صياح الديكة التى تقطن التقفيصة الملاصقة لحجرته والتى تشاركه مع بعض البط والأوز سكنى سطح الدار .. وظلمة الليل ما زالت فلولها تقاوم هجوم النهار .. والنجوم قد أضناها السهر ، ونحاول أن نبحث عن عبد السميع أفندى فى حجرته فنبوء بالفشل الذريع .. فقد ملأت الحجرة ظلمة حالكة .. لا شمعة ولا مصباح ولا بارقة ضوء .. حتى النافذة الخشبية الوحيدة التى يمكن أن ينفذ منها إلى الحجرة بعض أضواء النجوم قد أحكم إغلاقها .

ويتعود البصر الظلمة شيئا فشيئا فيستطيع أن يميز فى ركن الحجرة الشىء الوحيد بها الذى يمكن أن يكون فراشا وهو لا يعدو كنبة خشبية عارية .. ومع ذلك فإننا نجده قد خلا من راقده .. ولا نجد لعبده عليه أثرا .

أين عبده ؟ .. إننا نسمع رجع أنفاسه وزفراته .. ومع ذلك لا نرى له وجوذا .

وتخف الظلمة بعض الشىء ، ونستطيع أن نميز بقية محتويات الغرفة : قلة فارغة وضعت بجوار الكنبة ومنضدة خشبية عليها بعض فتات خبز جاف .. ونوى زيتون .. وبقايا بصلة ، ومصباح غاز مطفأ . وكتاب ذو ورق أصفر باهت .

وعلى أحد الجدران دق مشجب علقت عليه جاكتة ، وبنطلون ، ومنديل محلاوى ، وطربوش متداعى الجوانب .

ولكن .. أين عبده ؟

لقد أطل برأسه من تحت الكنبة .. وعيناه نصف مغمضتين وقد أخذ يفركهما فركا شديدا بيديه .. حتى تم فتحهما وبدأ يسحب جسده بهدوء وتأن من تحت الكنبة .

وأخيرا ظهر عبده .. بجلبابه المخطط وجسده الهيكلى النحيل الطويل ، وعينيه الغائرتين ، وذقنه الذى تناثرت فيه الشعيرات فلا هو ملتح ولا هو حليق ، وأنفه

الضخم ، وطاقيته التى حشر فيها رأسه ، والتى أهدتها إليه أم عبده عندما كانت علاقته بها على ما يرام .

وسار عبده على أطراف أصابعه متحسسا طريقه فى الظلمة التى لم تنقشع بعد .. حتى وصل إلى المشجب ومد يده فأمسك بالبنطلون ، ودفع فيه ساقيه دون أن يخلع الجلباب بل حشره فيه حشرا فبدا البنطلون منبعجا. لقد كان الجلباب لا يفارق جسده قط فهو جلباب بالليل ، قميص بالنهار .

وأرتدى عبده الجاكتة ولف المنديل المحلاوى حول عنقه ، وأتم هندامه بالطربوش ، ثم حرك إحدى قدميه يمنة ويسرة يبحث بها عن الحذاء حتى عثر عليه فدس فيه قدميه الواحدة بعد الأخرى دون أن ينحنى أو يمسك بالحذاء .

وكان حذاء عبده أحب شىء إليه فى هذه الحياة ، فقد كان يشعر له بامتنان دائم وفخر مستمر .. إذ كان حذاء جيدا أصيلا « ابن ناس » وهو لا يزال يذكر تلك الفرصة التى أتاحت له أن يأخذه خطأ بدلا من حذائه البالى فى إحدى صلوات الجمعة ويذكر بعد ذلك كيف بلى نعله فأخذه للأوسطى مخيمر العتقى « وأتحفه » بنعل كاوتش أوتومبيل ، نعل دنلوب سميك لا يبلى .

وانتهى عبده من ارتداء ملابسه ، أو على الأصح من نقلها من المشجب وتعليقها على جسده ، ثم تلفت حوله وتحسس جيوبه وانحنى مادا يده تحت الكنبة فأخرج نصف سيجارة دسه فى جيبه وخرج من الحجرة .

سيظن كل قارئ أنه خرج من باب الحجرة .. إذ ما الذى يحدو برجل مثله أن يخرج من حجرته من غير الباب ، وإذا لم يخرج من الباب فمن أين إذا خرج ؟.

لقد فتح الرجل النافذة ، وكان الضوء قد بدأ ينسج خيوطا رقيقة ونظر أسفل النافذة يمنة ويسرة وكأنه اطمأن إلى أنه لا يوجد هناك من يرقبه ، ثم دفع بساقيه من النافذة واعتلى حافتها ومد ذراعيه وتعلق بإحدى المواسير الملاصقة للنافذة.ثم سحب بقية جسده من داخل الغرفة ، وبدأ يهبط على الماسورة إلى الأرض .

فعل الرجل كل هذا بمنتهى البساطة .. كمن يأتى عملا اعتاده كل يوم ،

والواقع أنه قد اعتاده فعلا ، فقد مضى عليه أسبوع ، وهو لا يدخل غرفته ولا يبرحها إلا بهذه الطريقة .

ترى ما الذى اضطر عبده إلى كل ذلك ؟ ما الذى يجبر المسكين على عدم التمتع بالرقود فوق الكنبة ! وما الذى يغريه بأن يحشر جسده تحتها ويظل كذلك طول الليل ، ثم ما الذى يدعوه لأن يستيقظ مع الديكة فيتسلل فى الظلمة ويهبط من النافذة من ثالث دور ؟!!

ما الذى يدعو إلى كل هذا ؟.

أم عبده هى السبب ، أم عبده ، والفقر ، ولا أحد غيرهما ، فإنها لو رأته لانهالت عليه ضربا ، وأرته على حد قولها « نجوم الضهر » فقد مضت عليه أربعة أشهر لا يدفع إيجار الحجرة ، وقد وجد نفسه مخيرا بين أحد ثلاث : إما أن ينام على قارعة الطريق فيموت من البرد ، وإما أن يصعد إلى غرفته فيموت من الضرب ، وإما أن يتسلق المواسير ويتسلل إلى الغرفة ، ثم يختبىء تحت « الكنبة » وفى هذه الحال قد يموت وقد لا يموت ، فوجد أن الأمر الأخير أسلم عاقبة وأن احتمال النجاة فيه أكثر ، وخاصة بعد أن جربه فوجده أسهل مما يتصور .

ولكن أين أم عبده ؟ ومن تكون ؟ وكيف هى ؟

أم عبده يا سيدى القارىء وقاك الله الشر ، وجنبك الأذى ، هى الشر وهى الأذى ، أو كما قال — أعنى عبده — « غولة فى صورة آدمية » .

هل لديك الشجاعة الكافية لأن تبحث عنها معى ؟ أو أن تسمع عنها منى .. تشجع يا سيدى وتجلد واصبر وانتظر ؛ ها هى أم عبده ، تستيقظ هى الأخرى ، هل رأيتها ؟

تقول لا ليست أم عبده ؟ بل هى والله العظيم .

تقول إنها ليست آدمية أصلا ؟ حقا ، وهذا ما جعلنى أجزم بأنها أم عبده .

لو تخيلنا أن خليطا من الحيوانات الآتية : الفيل ، السيد قشطة ، البومة ، الحمار الوحشى ، الغوريللا ، الدب الأسود (لا الأبيض) قد تجمعت كلها

واتفقت على أن تنتج من اللبؤة وليدا يجمع كل صفاتها جميعا ويأخذ من كل واحد منها أهم مظاهره ، لما كان ذلك الوليد شيئا يختلف عن أم عبده .

استيقظت المرأة ، ولنسمها امرأة من باب التجاوز ، وجلست فى فراشها برهة تستريح من عناء النوم ، فلو كان الأمر بيدها لظلت مستيقظة ليل نهار ، ثم هبت من فراشها فقرقع الفراش من ثقلها وتوجع ، وعلا منه صرير لو ترجم إلى العربية لكان « اللهم هب لنا من لدنك رحمة ، اللهم لا تحملنا ما لا طاقة لنا به » .

هبت أم عبده ، فكأنها زوبعة هبت ، أو عاصفة ثارت ، ضجيج وعجيج ، صياح وصراخ أيقظ أهل الدار ، وأطلت برأسها من الباب تلقى بإنذارها اليومى إلى السكان وتحذرهم من أن يحاولوا مسح السلالم حتى لا تبوش ، وتنذرهم بأنها لو رأت قطرة ماء تصب عليها ، فستجعله يوما أسود « هى السلالم حاتستحمل إيه والا إيه ، كفاية رجليكم اللى طول النهار تدب عليها ، هو انتوا بتهمدوا » .

وانتهت أم عبده من إنذارها الأول ، وأحست بشىء من الطمأنينة فقد كان أكثر ما يقض مضجعها . هو خشيتها من أن تذيب مياه المسح حجر السلالم .

واختفت بعد ذلك برهة . ثم سمع وقع قدميها تهبط السلم وتقرقعه بمركوبها الأصفر قرعات منتظمة وتدندن بأغنية يستطيع المرء لو أرهف السمع ، أن يميز فيها « بينى وبينك كلام ، ويش وصلوا لامك يا عبده » .

ثم صمتت فجأة فقد تذكرت عبده . وصكت على أسنانها وحدثت نفسها فى تهديد ووعيد :

« آه يا شحات الكلب ، بس لو تقع عليك عينى لأفرج اللى ما يتفرج » .

وصمتت لحظة .. ثم عادت تحدث نفسها مرة أخرى ، موجهة القول إلى عبده « أنا أم عبده المسيِّطة !! على سن ورمح !! ينصب على جربوع زيك .. يا ضلالى يا ابن الضلالى .. » .

وخرجت « أم عبده » من باب الدار عابرة سيدى زينهم إلى شارع سكة

البغالة . ثم اتجهت يمينا إلى ميدان زين العابدين .

وسارت بجوار حوض شرب الحمير الكائن فى الميدان وهى تتلقى السلام ممن استيقظ من أهل الحى .. عطية . بائع البليلة ولقمة القاضى ، وحبيشة يدفع عربته الصغيرة التى قد وضع فيها قدرة الفول .. وكانت تحياتهم لها تحيات خشية ورهبة فقد كانوا يخافون . بذاءة لسانها وجبروتها .

وأخيرا وصلت « أم عبده » إلى مقر عملها .. وجلست أمام متجرها .

كان متجرها هذا عبارة عن طبلية كائنة على باب المدبح .. وكانت بضاعتها هى عفش الذبائح.. الرؤوس والكوارع والطحال والحلويات والكرش والنفوس وكل ما تبقى من جسد الذبيحة بعد أن يأخذها الجزار .

ولقد قال عنها عبده من باب التشنيع إنها تدس فى بضاعتها أحشاء وكرشا آدمية .. من ضحاياها .. فهى « قتالة قتلة » .. ولقد بلغها قوله فنظرت إلى السماء داعية « عقبال ما بيع كرشته وطحاله .. قادر يا كريم تسمعها منى دعوة وليه » .

تربعت أم عبده أمام الطبلية .. بعد أن خلعت طرحتها السوداء ، وارتدت فوق جلبابها هدوم الشغل ، وارتفع صوتها منادية على بضاعتها وهى تذب بمذبة تصلح لأن تكون هى نفسها عشا للذباب ، وأخذت تترنم قائلة « هنا الحلويات ولا يبيع الحلو .. إلا الحلو » .

وتلفتت أم عبده حولها فوجدت المعلم « أباوة » زميلها فى المهنة . وقد أخذ يرص بضاعته فزمجرت بالتحية صائحة :

— صباح الخير يا معلم أباوه .

— صباح الخير يا معلمه .. ازاى الحال ؟

— رضا ، أهى ماشية ، يوم عسل ويوم بصل .

— انشا الله عسل دايما يا معلمه .

— ومنين يا خويا حنجيبه العسل ده .

— منين ؟!! وانت أم العسل .. والقشطه والزبده .. ميت حلاوة على عيونك .

ثم أخذ الرجل يصفق بيديه طربا وأردف صائحا :

— ارزقها بقى يا رب .. ميت ألف جنيه يا رب .. مش عايزهم ناقصين مليم واحد ، وإلا ايه يا أم عبده .

— ياخى اتوكس ، قول نص ريال ، قول بريزه ، ميت ألف جنيه تعمل بيهم إيه ؟. والنبى تتوحل فيهم ما تعرف تعدهم ولا تضيعهم .

— ازاى بقى .

— طب قوللى تجيب إيه بسلامتك كده .

— احسبى عندك .

— هيه .

— أحشش بألف .

— يبقى فاضل تسعة وتسعين .

— واسكر بألف ، واكل نيفه بألف .

— يبقى فاضل سبعة وتسعين .

— وابرم بألف .

— سته وتسعين .

— لأ ، حابرم بألفين ، والا بتلات الاف ، أصل انا احب البرم .

— باربع تلاف ، بخمس تلاف ، يبقى اثنين وتسعين ، وخدلك ألف شبرقة يبقى فاضل واحد وتسعين ، تعمل بيهم إيه يا روح امك .

— وافرق بألف عيش وفول للسيدة عشان اروح الجنة .

— عيش وفول ؟ دانت تفرق عيش وكباب ، زى بعضه ، خليك على عقلك ، ، ألف تدخل بيهم الجنة ، عندك حاجة تانيه غير كده ، أديك حششت وسكرت وبرمت واشبرقت ورحت الجنة بعشرة الاف .

ـــ كفايه كده .

ثم رفع يده إلى السماء صائحا :

ـــ كفايه يا رب عشرة الاف . بس ابعت .

ثم انطلق يقهقه هو وأم عبده ، وبعد برهة قالت أم عبده وهى تهش بالمنشة :

ـــ يا خويه الناس بطلت تاكل كوارع والا إيه .

ـــ كلهم سم لما يهرى مصارينهم ، هم دول ناس ، دول فقر دكر ، دانا كنت زمان اسرح بالثلاثين جوز ماكانوش يستحملوا منى صباحية ؛ كنت يدوبك اطلع من المدبح على بركة قارون وعلى بال مالف شويه فى زينهم والبغالة أكون جبرت ، زى دلوقت الواحد كأنه بينادى على قتيل .

ـــ والله يا معلم أباوه ، الدنيا ما بقت زى زمان ، حتى السكان بقم ملاوعين ونصابين وولاد كلب ؛ وهو لولا انى أنا حمشه معاهم وموارياهم العين الحمره كنت طلت مليم ؟

ثم أطلقت زفرة حارة وأردفت :

ـــ مفيش مغلبنى فيهم غير الشحات ابن الشحات : آه يا نارى لو اعتر فيه ، لاخلى جتته حتت ، زى اللى قدامى عالطبليه .

ـــ هو مين ده ؟

ـــ المنيل على عينه اللى ما يتسماش ، عبده ، يعنى حايكون مين غيره .

ـــ هو لسه برضه ماداكيش الأجرة ؟

ـــ هو انا باشوفه ؛ دا زى فص ملح وداب أدور عليه فى سلقط فى ملقط مالوش أثر .

ـــ يمكن مات ؟

ـــ ما بيمتش يا خويه أبدا . أنا برضه قلت زيك كده لكن اللى حيرنى انى باطلع اشقر على الأوده ألاقى فيها فتافيت أكل ، وزى ما يكون الراجل بايت فيها . لكن بس بيخش منين . دانا قاطعه عليه السكة .

— أقول لك أحسن طريقه ؟

— إيه ؟

— سكى الأوده بالمفتاح ، سنكريها كويس .

— سكيتها ، وسنكرتها ، وعملت اللى ما يتعمل .

— وبعدين ؟

— برضه باطلع الاقى الفتافيت والبصل .

— عجيبه !. يعنى بيخش منين ؟

— علمى علمك يا معلم أباوه .

— يمكن من اخواننا الشياطين .

— شياطين ؟ ده شكل شياطين ؟ ده منيل على عينه وخايب .

— طيب وإيه يعنى وهو مافيش فى العفاريت خايبين .

— لازم فيه .

— أهو ده تلاقيه منهم .

— ياخويا بس بقى ماتلبشى جتتى . أنا مش ناقصه ، اخفيها سيره بقى . جاتو نيله مطرح ما راح .

ولنترك أم عبده الآن منهمكة فى بضاعتها ما بين رؤوس وكوارع ، وفى حديثها مع المعلم أباوه ، ولننطلق فى أثر عبده لنرى ماذا فعل الله به .

سار عبده وقد وضع يديه فى جيبى بنطلونه ، ومر ببائع لقمة القاضى فغير ريقه بلقمتين على الحساب ، ثم انطلق فى طريقه ،

كان عبده يحس فى يومه هذا بشيء من الأمل يساور نفسه ، فهو مقبل على حياة جديدة ويشعر أن بؤسه وفاقته سيفارقانه وشيكا ؛ لقد بدأ الحظ يتبسم له أخيرا بعد طول عبوس ، وبدأت الدنيا تقبل عليه بعد أن طال إدبارها عنه .

وداخله الانتعاش وهزه الطرب ، وأخذ يفكر فى مشروع الزواج الذى يوشك أن يقدم عليه ، هذا المشروع الذى يضع نهاية لشقائه ووحدته .

إنها صفقة ولاشك رابحة ، فمهما تكن المرأة ، ومهما بلغ بها القبح فهى برضه امرأة ، تملأ أحضانه وتقضى حاجته ، وتهيئ له فى نومه الدفء والراحة ، وفى يقظته الطعام والملبس .

ثم أهم من ذلك كله ستنقذه من الخطر الداهم والكارثة الكبرى : أم عبده .

وبدأ يتخيل نفسه بعد أن حصل من زوجته المستقبلة على الإيجار المتأخر ، ووضعه فى جيبه . ثم ذهب منتفخ الأوداج مرفوع الرأس ، وقذف به إلى المرأة المجرمة ، ثم خلع حذاءه ، وأهوى بنعله الدنلوب الثقيل على رأسها ، وبصق فى وجهها الخنزيرى بصقتين أو ثلاثا ، وأخرج لها لسانه ، ثم انطلق هاربا بعد أن فش غليله .

وأحس بالكثير من الراحة . وكان قد وصل إلى قهوة « الوردة البيضاء » فجلس على مقعد خارجها . وطلب جوزه ، على الحساب أيضا ، وظل يشد منها الأنفاس ، حتى بدأت الشوارع تعج بالحركة .

كان على عبده بعد ذلك أن يبدأ عملية التأهب للقاء عروسه الجديدة .. فقد اتفقت معه أم زكية (التى كانت الواسطة فى هذا الزواج) على أن الست ستحضر لزيارتها قبيل العصر ، وأن عليه أن يطب عليهما فى هذا الوقت كأنه قد أتى صدفة ؛ وبذا يتم اللقاء وتتم الصفقة .

وبدأ عبده عملية تهيئة نفسه للقاء بمسح الحذاء الطيب الأصل ، وكانت عملية مسح الحذاء عملية عويصة ، وكان أصعب ما فيها أن ماسح الأحذية لم يستطع أن يحدد بالضبط لون الحذاء !!

وعندما انتهى من عمليته انحنى عبده وهمس فى أذنه « معاك شلن سلف ؟ » وكان الماسح معرفة قديمة مع عبده فمد يده فى جيبه وأعطاه الشلن .

وذهب عبده بعد ذلك إلى الحلاق ؛ ثم إلى الطرابيشى وتبقى معه بعد ذلك نصف فرنك ؛ ابتاع به كرافته من بائع حمل على ذراعه مئات الكرافتات ؛ ثم وقف أمام إحدى واجهات المحلات وربط بها ياقة الجلباب .

وأخيرا حان الموعد وذهب عبده يتبختر ويدعو الله أن تكون العروس على شيء ولو قليل من الملاحة والسمنة .

ووقف عبده أمام باب « أم ذكية » يشد الجاكتة ، ويصلح الكرافتة ، ويثبت الطربوش على رأسه ، ثم قرأ الفاتحة ، وطرق الباب :

— أهلا وسهلا ، أهلا .

وسحبته « أم ذكية » من يده ودخلت به إلى العروس .

ونظر عبده إلى العروس ثم وقع مغشيا عليه .

لقد كانت العروس : أم عبده !!

في المـــــــــاوردي

ولأول مرة في تاريخ كوبري المنيرة وعشش الماوردي ، يفتقد الناس « فاطمة شيخون » وابنها « الششتاوي » . فقد أقبل الزبائن في مطلع الفجر ليبتاعوا مرتبهم اليومي من المشبك ، فإذا بالمكان يخلو منهما . وهزوا رؤوسهم تساؤلاً ودهشا وأسفا . وخشوا أن يكون قد ألم بالمرأة والولد مكروه .

لم يكن « ششتاوي » لقبه .. أعني أن اسمه لم يكن محمد ششتاوي أو إبراهيم ششتاوي .. بل كان اسمه ششتاوي فقط . أو قد يكون ششتاوي علي ، أو محمد ، أو أي شيء آخر تآكل على مر الزمن ، وامحى مع الأيام فلم يبق منه سوى ششتاوي .

وقد يستغرب هذا الاسم ويتساءل سامعه : من أي شيء اشتق وإلى أي جهة ينسب ؟ ولكن أمه — وهي المسئولة الأولى عن هذا الاسم — تقول إنها سمته ششتاوي نسبة إلى الشتاء .. لأنه ولد في طوبة ، والسماء « تشتي » والجو عاصف مكفهر .

وهكذا يتضح لنا أن الششتاوي عكس الصيفي ، ولسنا ندري هل عنت أمه بهذه التسمية شيئا .. أم أنه مجرد لفظ ألقته على عواهنه . ؟ على أي حال لا أظن الاسم — على غرابته — يستدعي منا كل هذا البحث ، والفحص ، بل خير لنا أن نتعوده كما تعوده صاحبه ، وكما تعوده من حوله ، فأضحوا ينادونه به بلا أقل تفكير

فإذا تجاوزنا الاسم إلى صاحبه وتبعناه لنرقبه فى أول مرحلة من مراحل حياته ، وجدناه قد ربط من وسطه بحبل شد إلى أحد القوائم الحديدية لكوبرى المنيرة القائم على سكة حديد حلوان والموصل بين حى المنيرة من ناحية والماوردى وجنينة ناميش من الناحية الأخرى .

ويبدو لنا الششتاوى فى وضعه هذا أشبه بكلب حائر أرهقه القيد . فهو يطوف حول العمود على قوائمه الأربع مبتعدا عنه بأقصى ما يسمح له الحبل ، وعلى مقربة منه تربعت صاحبته أو أمه « فاطمة شيخون » ، وقد وضعت أمامها متجرها المكون من صينية تحوى البضاعة الملائمة ، والتى تتطور حسب ما تقتضيه الظروف . فتارة نراها مليئة بالمشبك ، وأخرى بالشطيطة ، وثالثة بالكشرى أبو جبة ، ورابعة بالكسكسى .

والششتاوى وأمه يكونان زوجا لا ثالث لهما . فقد توفيت — الفردة الثالثة — أبو ششتاوى وهو فى بطن أمه — أعنى الولد .. لا الأب — وكان ذلك فى معركة حامية فى المدبح استعملت فيها السكاكين ، والكزالك ، والسواطير وكل ما فى المدبح من أسلحة للقتال ، وانتهت المعركة بقتل أربعة كان صاحبنا أحدهم .

ورغم أن « فاطمة شيخون » كانت تدعو على زوجها فى كل عراك بينها وبينه بأن يموت قتيلا .. فقد ساءها كثيرا أن يستجيب الله دعاءها عليه فى هذه المسألة بالذات .. ويحقق — على أتم وجه — هذه الدعوة دون غيرها من الدعوات .

وحزنت المرأة بالطبع على زوجها حزنا بالغا ، وكان إحساسها بالفجيعة يزداد كلما قاربت الوضع . فقد أوجع نفسها أن ينزل الضيف الجديد مهيض الجناح مكسور الخاطر ، وألا يبصر أباه القوى الشكيمة المرهوب الجانب ذا الحول والطول بين جزارى المدبح .

ونزل الششتاوى ذات ليلة . فلم يجد من يستقبله سوى الأم الطريحة ، وجارة أرقها الصياح فتطوعت للمساعدة .

ومرت الأيام فإذا بالضيف الجديد قد ملأ عليها الحجرة الموحشة وأضاء لها الظلمة وبدد اليأس ، وإذا به يشد أزرها ويعينها — بمجرد وجوده — على احتمال الحياة ، بل لقد حبب إليها الحياة .. وأبداها لها أمرا ضروريا .. من أجله هو .

لقد وجدت فى ذلك الكائن الضئيل القدر شيئا كثيرا أكثر من مجرد عزاء وتسلية ، وجدت فيه غرضا وغاية .. بعد أن كانت تحس أنها تحيا بلا غرض وتسير إلى غير غاية .

ولم يكن الششتاوى — والشهادة لله — جميلا بحال من الأحوال ، ومع ذلك فما انطبق المثل القائل بأن « القرد فى عين أمه غزال » كما انطبق على صاحبنا وأمه .

لقد كانت تبصر فيه — وهو العجينة اللينة من اللحم — صورة طبق الأصل من أبيه ، وتتوهم أنه لو أمسك بشومة أو ساطور لاستطاع أن يسوى الهوايل .

وكان بينه وبينها ، وهو لا يعدو الأسبوعين عمرا ، أحاديث لا تنتهى ، تتحدث إليه وتجيب على نفسها نيابة عنه ، وتمضى الساعات الطوال وهى لا تكل ولا تمل كأنها تحدث أعذب الناس سمرا وأمتعهم حديثا .

وبدأت المرأة كفاحها من أجل الطفل ، فقد صممت على ألا يكون يتيما ، وعلى أن تعوضه بجهادها عن أبيه الراحل ، وخرجت إلى حياة الكفاح بأول صينية مشبك متخذة مقرها أسفل الكوبرى فى ملقف مارة ، وموضع سقع ، ومكان لا يبعد كثيرا عن مسكنها فى عشش الماوردى .

ولم يكن ششتاوى فى أول أمره بالشىء الذى يعمل حسابه ، أو الذى يعرقل سير تجارتها ، فقد كانت ترقده على حجرها ، ملفوفا فى هلاهيله .. مستغرقا فى نومه ، فإذا ما أيقظه جوع أو ألم به ضيق .. ألقمته ثديها .. فانطبق عليه المثل « أطعم الفم تستحى العين » ولا تمضى دقائق حتى تستحى عينه ، ويستغرق فى نومه .

ولكنه — مذ بدأ يحبو على أربع — قد أضحى شيئا خطيرا .. مقلقا مزعجا ،

ولم يعد قط يقنع بالنومة .. أو بالثدى .. بل بدا مناكفا مشاكسا .. جوابا جوالا . تماما كأبيه .. متواثبا لا يستقر له قرار فى ممر » .

لقد بدا الششتاوى .. من يومه .. مغامرا كأبيه . وكان أكثر ما تخشاه الأم أن يندفع كأبيه فى إحدى المرات فيورد نفسه موارد العطب .

كيف لا ، وهو لم يكد يحبو على أربع .. حتى تسلل من جوارها فاندفع إلى عرض الطريق ليستقر أمام أول عربة قادمة ، ولولا فضل الله ، ومهارة السائق لطوته العجلات .

لقد صرخت يومها صرخة مدوية ، وعدت لتحمله من أمام العربة ، ولتتلقى سباب السائق وشتائمه ، وتعود إلى مقرها وهى تضم الطفل إلى صدرها وتبكى بحرارة وهو يحملق فى فزع وارتياع .. لسنا ندرى أمن الموت ، أم من النجاة منه ؟

ومن ذلك اليوم والمرأة تضعه وراءها أى تحجزه بين جسدها وبين السور القائم على جانب سكة الحديد .

وذات يوم بحثت عنه وراءها فلم تجده ، وأمامها فلم تجده ، وفى عرض الطريق فلم تجده ، وأخيرا وصل إليها صوته وقد استقر على شريط الوابور بعد أن نفذ من خلال السور وأخذ يلهو بالحصى .

وروعت الأم ، وانطلق صراخها يدوى فى الفضاء ، وذعر الناس وأقبلوا عليها ، وانطلق بعضهم فأحضر لها الطفل فى لمح البصر ، وأخذت تضمه إلى صدرها فى لهفة وهى تلهث كأنها عائدة من سباق . سباق مع الموت .

واستقر رأيها بعد ذلك على أن خير طريقة تحافظ بها على الطفل المغامر وتؤمنه من التهلكة هى أن تربطه بحبل من وسطه وتشده إلى إحدى قوائم الكوبرى .

وهكذا انتهى الأمر بالششتاوى إلى الربط فى العمود ، واستراحت أمه من مغامراته الخطيرة وأطمأنت إلى أن شقاوته — مهما بلغت — فلن تبعده عنها أكثر من متر أو متر ونصف — وهو كل ما يسمح له به قيده — من جولان فى المنطقة الآمنة .

ومع ذلك فقد أصر الشِشتاوى على أن يغامر بنفسه حتى فى المنطقة الآمنة وأن يوردها موارد التهلكة فى هذه الحدود الضيقة . وأن يروع أمه بصراخه ذات يوم فالتفتت إليه فزعة مرتاعة فإذا به — لا تدرى كيف — قد لف الحبل حول عنقه وأخذ يحبو حول العمود حتى ضاق عليه وكاد يشنق به نفسه .

ورأت الأم أن مسألة الحبل لم تعد ذات قيمة ، وخاصة أن الششتاوى منذ بدأ يتعلم المشى أضحى من العسير عليها تقييده فى هذه الحدود الضيقة .. فلم تر من إطلاقه بدا وطمأنت نفسها بأن الحذر لا يمنع القدر ، وأنه خير لها أن تترك الأمر لله العلى القدير .

وأخذت الأيام تمر ، والششتاوى يزداد على مرها نموا ، وأمه ما زالت قابعة فى مقرها تحت الكوبرى فى جهادها الصامت .. هى وصينية المشبك والشطيطة والكشرى . لا تضىء حياتها سوى بارقة واحدة ، ولا تسعى فى حياتها إلا لغرض واحد ، ولا تعيش إلا بأمل واحد هو الششتاوى .

وبلغ الششتاوى مبلغ التلاميذ ، واستحق فى نظرها أن يذهب إلى الكتاب فقد كان أملها فيه عظيما ، وكانت تعتقد أنه لابد أن يكون أفنديا .. حتى يأمن على الأقل عادية الموت قتيلا فى المذبح كأبيه .

أجل .. إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، وقد لدغت من المذبح ، ومن فن الجزارة مرة .. فمن الحمق أن تدفع بابنها إلى السبيل الشائك ، لتلدغ من الجحر مرة أخرى .

ولأول مرة فى تاريخ كوبرى المنيرة وعشش الماوردى يفتقد الناس « فاطمة شيخون » وابنها الششتاوى . فقد أقبل الزبائن فى مطلع الفجر ليبتاعوا مرتبهم اليومى من المشبك . فإذا بالمكان خلو منهما ، وهزوا رؤوسهم تساؤلا وعجبا وأسفا ، وخشوا أن يكون قد ألم بالمرأة أو الولد مكروه ، ولكن المعلم « سيد فرخه الطعمجى » أنبأهم نبأ عليم ببواطن الأمور بأن الششتاوى سيذهب اليوم إلى المدرسة .

ولقد كان الرجل مصيبا فيما قال . ففى هذه اللحظة بالذات ، كانت المرأة قد أتمت تنظيف ابنها وألبسته جلبابه الجديد وطربوشه الذى ابتاعته له من مولد الماوردى ودست قدميه ـــ لأول مرة ـــ فى صندل لامع براق .

وكانت قد أعدت فى المساء صينية الكسكسى ، وأتقنت طهيها ، لا لبيعها ، بل لإهدائها إلى « الشيخ زكى » ناظر مدرسة السعادة ، كرشوة أولية لقبول ابنها ، والتوصية عليه .

وربطت المرأة نقودها ـــ ريالا وثلاثة قروش وأربعة مليمات ـــ فى خرقة صغيرة دستها فى صدرها .. ثم حملت صينية الكسكسى على رأسها ، وسحبت الششتاوى بإحدى يديها .

ووصل الموكب الصغير إلى المدرسة سليما ، ولم يكن وصوله سليما بالأمر السهل ، فقد كان من الصعب على المرأة أن تحتفظ بالصبى فى يدها ، وهو المقفاز المتواثب ، المعجون ـــ على حد قول أمه ـــ بمية العفاريت . فقد استطاع الزوغان منها أربع مرات : المرة الأولى أغرته عربة حنطور بالشعبطة وراءها فلم يستطع المقاومة ، وأفلت من يد أمه وأخذ يعدو وراء العربة فاعتلى الخشبة الكائنة فى مؤخرتها وظلت أمه تصرخ وتعدو بصينية الكسكسى على رأسها ، حتى تطوع أحد المارة ، فصاح بسائق الحنطور محذرا : « كرباج ورا يا أسطى » ، فقفز الششتاوى إلى الأرض قبل أن يهوى عليه الكرباج .

والمرة الثانية . كانت إحدى عربات الرش هى سبب الإغراء . فقد كره الششتاوى أن يرى زملاءه من أهل الحتة يتواثبون وراء العربة مغرقين نصفهم الأسفل بمائها الرشاش ، وأن يظل وحده المحروم من هذه النعمة ، ولعن المدرسة فى سره ، وود لو استطاع التخلص من قبضة أمه ، ولكنه وجدها تطبق عليه جيدا . فلم ير هناك خيرا من التحايل عليها حتى تفك إساره ، وبدأ يعرج فى مشيته .

والتفتت إليه أمه متسائلة :

ـــ ما لك ؟

ـــ الصندل وجعنى .. يمكن فيه زلطه .

وببساطة تركت أمه يده ليخرج الزلطة من الصندل . فلم يكد يحس بالحرية حتى اندفع بأقصى سرعة إلى عربة الرش ، ولاحقته صيحات أمه فزعة مرتاعة : « يا واد يا ششتاوى .. يا مقصوف الرقبة » .

ولم يفلح فى إعادته سوى توسل أمه إلى العربجى بأن يغلق المياه .

ولطشته أمه قلمين ، ولدعته قرصتين ، أفلحتا فى انتزاع بعض الصرخات السطحية ، وفى ردعه إلى حين .

أقول إلى حين .. أو على الأصح ، إلى حين قصير .. إذ لم يكد ششتاوى يستقر بجوار أمه بعد أن أغرق نفسه بالمياه حتى بدا فى الأفق خطر كبير هو الشيخ أحمد بسيفه الخشبى وعمامته الخضراء .

والشيخ أحمد هذا هو أحد مجاذيب السيدة زينب ؛ يقضى يومه طائفا بالطرقات والحوارى .. محاطا بجمهرة من الصبية منشدا معهم « الله حى .. عباس جى .. يضرب بمبه وهوا جى » .

ويعتبر ششتاوى .. على صغر سنه .. ساعد الشيخ أحمد الأيمن ، وعونه الأول ومنظم الهتافة ، وقائد المظاهرات ، وكان الشيخ أحمد يسير فى المقدمة وخلفه الششتاوى وإخوانه مكونين جيشا عرمرما .. يغزون به مختلف الأحياء .

وبدا الشيخ أحمد فى هذه اللحظة وقد ساق خلفه جيشه الذى لم يك ينقصه سوى الششتاوى .

وفجأة رفع الشيخ أحمد سيفه الخشبى فى الهواء فلم تشعر المرأة إلا وقد سقط ابنها بجوارها منبطحا على الأرض وهو يصيح بها أن ترقد مثله ، وفزعت المرأة وتملكها الذعر ولم تملك سوى الجلوس على الأرض بصينية الكسكسى وهى تتساءل فى رجفة عن جلية الأمر .

وهمس الششتاوى :

ـــ ألا ترين الشيخ أحمد قد رفع سيفه .. لابد أنه قد رأى العدو ؟

ونظرت المرأة إلى الشيخ أحمد وإلى الششتاوى وصاحت مغيظة :

ـــ إلهى يفضحك ، انت والشيخ أحمد .. قوم فز .

وتابعت سيرها ، وقد شدت قبضتها على الصبى بعد أن أقسمت ألا تتركه إلا أمام الشيخ زكى ...

ومع ذلك فلم تمض لحظة قصيرة حتى زاغ الششتاوى للمرة الرابعة والأخيرة .

لقد كان الإغراء فى هذه المرة أكبر من أن يقاوم . لقد كانت مسألة ترام ، والششتاوى لا يطيق أن يمر به ترام دون أن يتشعبط على الشمال .

وهكذا انطلق الششتاوى يعدو وأمه تصيح وتولول ، حتى استقر به المقام على سلم الترام فأشار إليها صائحا بأن تلحقه على المدرسة .. ما دامت لا تستطيع الشعبطة مثله .

ووصلت إلى المدرسة فوجدته فى انتظارها فساقته أمامها إلى غرفة الشيخ زكى ناظر مدرسة السعادة .

وكانت حلة الكسكسى براعة استهلال من « فاطمة شيخون » فقد أشرق لها وجه سيدنا وانفرجت أساريره وإن كان قد حاول أن يتمنع فى أول الأمر مدعيا أن « مافيش لزوم » ، وأن ششتاوى كابنه ، وأن المرحوم أباه كان له أفضال عليه ، وأنه لا ينسى له الكوارع والفشش التى كان يتحفه بها بين آونة وأخرى !

وهكذا تم قبول ششتاوى كطالب علم ، ووقفت أمه لوداعه قبل أن يختفى داخل المدرسة ، وأحست بألم الفرقة يعتصر قلبها وانحنت عليه تضمه إليها وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، وهتفت بالشيخ زكى :

ـــ خلى بالك منه يا سيدنا الشيخ .

ثم ضمت إليها ششتاوى ضمة أخيرة كأنه ذاهب إلى ميدان قتال وقالت له :

ـــ مش عايز حاجه يا ششتاوى ؟

وهز الشِشتاوى رأسه ، وطلب منها أن تنبئ الشيخ أحمد بأنه ذهب إلى المدرسة وأنه سيعود إليه بعد الفراغ منها .

* * *

وعاد الششتاوى إلى البيت فى ذلك اليوم .. بعد أن اشتبك فيما يقرب من خمس معارك فقد فيها زر طربوشه وفردة صندل ومزق فيها جلبابه الجديد .

واستقر رأى الأم منذ ذلك الحين على أن تنقل مقرها من تحت الكوبرى إلى باب مدرسة السعادة ، حتى تضمن بقاءها بجوار ابنها ومرافقته فى غدوه ورواحه .

وهكذا أمنت عليه من كل شيء ، وزدعته عن ركوب المخاطر إلا شيئا واحدا هو الشيخ أحمد ، والعدو وراءه ، والهتاف له ، والمحاربة فى جيشه .

وظلت الأم ترى فى الشيخ أحمد مهلكة كبرى ، وعدوا مبينا ، فلشد ما كانت تخشى على صبيها من العدو وراءه ومن الرقود على قارعة الطريق والعربات غادية رائحة .

وفى عودة لها ذات مرة من المدرسة وقد سارت وصبيها إلى جوارها التقت بالشيخ أحمد منطلقا بجيشه يحارب العدو الوهمى المجهول رافعا سيفه الخشبى مهددا منذرا ..

ولم يكد يراه الششتاوى حتى انطلق إليه منضما إلى جيش الصبية ، وثارت أمه وعدت وراءه تريد استعادته واعترضها الشيخ أحمد طالبا منها أن تكف عن الخوض بين جنوده الذين يحارب بهم العدو وإلا اضطر إلى أخذها أسيرة .

وأمسكت المرأة بخناقه وكالت له السباب صائحة به :

— يا راجل يا مخبول يا مجنون عدو إيه جالك عدو يحش رقبتك .

وهز الشيخ أحمد رأسه مشدوها يتعجب من جهلها وحمقها ، وكيف أنها لا تعرف العدو الذى يحاربه ، ثم شد رأسها إليه وهمس فى أذنها :

— ده خد منى تلاته .. مرة واحدة .

وبدت فى صوته رنة بكاء واختلجت عضلات وجهه ؛ وأردف قائلا :

ـــ ثلاثة أولاد مرة واحدة ، خدهم منى .. حرق قلبى .. وقطم وسطى .

وأحست المرأة برجفة تسرى فى جسدها وتركت الرجل وهى تهمس فى شفقة بالغة :

ـــ ثلاثة أولاد مرة واحدة ؟ الله يكون فى عونك .

ومدت يدها فأمسكت بالشثتاوى وضمته إليها فى حرص وقد اغرورقت عيناها بالدموع .

وفجأة سمعت أحد الصبية ينادى :

ـــ ششتاوى ..

وتلفت الششتاوى فإذا بأحد رفاقه يناديه وقد تسلق إحدى مركبات الترام ، واندفع الششتاوى إلى صاحبه ، يريد أن يلحق به فى الترام فى اللحظة التى اندفع فيها ترام من الاتجاه الآخر ، وانطلقت فى الجو صيحة مدوية وفى غمضة عين كان الششتاوى أثرا بعد عين .

ووقفت المرأة فى مكانها كالمصعوقة ، ثم اندفعت تحتضن الأشلاء وهى تعوى ككلب جريح ، وفجأة أبصر بها الناس تترك الجثة وتعدو إلى حيث وقف الشيخ أحمد يحملق فى ذهول .. فتركع أمامه مولولة صائحة :

ـــ خده منى .. الحقنى .. قول له يرجعه .

وربت عليها المخبول بحنان ورفق وقال مشجعا :

ـــ ماتخافيش .. خليها على الله .

ثم ضرب بسيفة فى الهواء .

ومنذ ذلك اليوم لم ير الشيخ أحمد قط وحيدا .. لقد زاد عدد المخابيل واحدا .. وكانت « فاطمة شيخون » تلازمه أينما ذهب .. لقد كانت تحارب معه العدو المشترك .. عله يعيد إليها ما أخذ !

فى سيدى الحبيبى

وقد شب « زكى » وترعرع فى حانوت « المعلم عبده » الذى أواه يتيما ، وظل يستخدمه نظير إطعامه وإيوائه .. ولم يكن يعرف له مقرا سوى الحانوت وسيدى الحبيبى .. يقضى فى الأول يومه ويبيت فى الآخر ليلته ، لا يكاد يفارقهما لحظة واحدة .

الزحام على أشده ، والزبائن قد تجمعوا أمام باب الحانوت الكائن فى سيدى الحبيبى بشارع السد البرانى ، يتدافعون بالمناكب ويتضاربون بالأكتاف ، وقد امتدت أذرعهم وارتفعت أيديهم قابضة على القروش مطالبة بالبضاعة ، وتعالت صيحاتهم مستحثة متعجلة متلهفة :

« بتلاته صاغ بساريه يا عم عبده . ببريزه بلطى وحتتين جزل وكتر الدقة . يا الله يا عم عبده أنا بقالى ساعتين واقفه ، عندك شبار ؟ عايز حتتين تعابين يا عم حسن . اشهل شويه يا عم عبده ، هو إيه يا أختى ده .

وفى وسط هذه المظاهرة يبدو « عم عبده من وراء الزجاج فى حركة دائبة كأنه المكوك .. تلتقط أصابعه قطع السمك المقلى من الصوانى النحاسية الصفراء المفروشة بعيدان خضراء من بقدونس وجرجير وتقذف بها فى عجلة لتعبئتها فى قراطيس جاهزة من الورق ، وتقذف وراءها بلفائف صغيرة معبأة بالدقة ، ثم يمد يده إلى أعلى مناديا جماهير الزبائن :

ــ خمسه بلطى .

فتمتد يد الزبون المطلوب ويصيح معلنا عن نفسه « أيوه هنا » ثم يدفع الخمسة قروش ويتسلم قرطاس السمك .. ويقذف « عم عبده » بالنقود فى درج بجواره ثم يعاود عملية التعبئة ، وقد بدت على أساريره علامات الجد وتقارب حاجباه الثقيلان اللذان يتهدلان على جبينه كأنهما تندة أو مظلة وقد تجعد ما بينهما فى تجهم وصرامة ، وارتفع طرفا شاربه حتى كادا يلتقيان بأطراف حواجبه لتكون فى وجهه مستطيلا من الشعر تبدو فى داخله عينان زائغتان ظاهرتا الحول ، ووضع الرجل على رأسه لبدة بيضاء ملفوفة بلاسة حريرية وبدا رأسه الضخم وحواجبه الثقيلة وشواربه المبرومة لا تتناسب قط مع ضآلة هيكله ونحافة جسده .

وبين آونة وأخرى يتلفت الرجل إلى داخل الحانوت ليطلق صيحة مزمجرة منذرة :

ـــ اخلص يا واد يا زكى ، الصوانى قربت تفضى ، اعمل لك همه لحسن اضربك ضربه اطير نفوخك .

ونترك عم عبده والزبائن فى صياحهم وضجيجهم ونتجه إلى داخل الحانوت لنلقى نظرة على ما به .. فنجد الصياح قد خف واستبدل به ضجيج من نوع آخر ، هو ضوضاء وابور الجاز وطشطشة قلى السمك فى الزيت ، وفوق كل هذا .. غناء الواد زكى .

والحانوت من داخله لا يسر الناظرين .. هباب يكسو السقف والجدران حتى لا تستبين من السواد لونها ، وحوض وصنبور ، وبالوعة فى أحد الأركان ، وأرض لزجة رطبة مليئة بمخلفات السمك من زعانف ومصارين وخاشيش ، والجو قد انتشرت به رائحة الزفارة ورائحة القلية والثوم والكمون .

ووسط هذا التبلوه الرائع من الهباب والزفارة والقذارة وقف « الواد زكى » أمام الوابور وطاسة القلية ، وبجواره طست ملىء بقطع السمك النىء وقد أمسك بسيخ يقلب به السمك فى الطاسة ، ويدندن فى طرب :

« طلعت فوق السطوح سرقوا اللباس منك يا عبده .. لا والنبى يا عبده » .

وتنطلق صرخة مدوية من عم عبده ويهتز شاربه ويصيح مهددا :

— التفت لى فى إيدك .. لحسن واللى نبا النبى أجى أقطعك جزل واقليك فى الطاسة اللى قدامك . آدى اللى انت شاطر فيه . لا والنبى يا عبده . دم لما يلهفلك .

ويتمتم « زكى » ببعض كلمات الاستياء ويعتذر بأنه يقصد عبده آخر ، ثم يخلد إلى الصمت .

ومن العجيب أن تؤثر تهديدات المعلم عبده هذا التأثير فى زكى . فقد كان التهديد بأن يضربه ضربة تطير نافوخه وأن يقطعه جزلا ويقليه فى الطاسة يبدو مضحكا جدا .. لأن زكى هذا الذى يصر المعلم عبده على تسميته « بالواد » . كان يمكن أن يصنع منه أربعة كالمعلم عبده ، فهو مخلوق ضخم طويل .. عريض المنكبين ، مفتول العضلات ، كثيف شعر الصدر والذراعين ، كبير الرأس والوجه ، ضخم التقاطيع ، كأنه صورة مكبرة لإنسان ، أو كأنه من مخلوقات جلفر الوهمية .

وبقدر ما أسرفت الطبيعة فى صنع جسده بقدر ما بخلت فى صنع عقله — إن لم تكن نسيت أن تهب له عقلا — فهو أغبى خلق الله ، وقد عرف منذ نشأته الأولى باسم زكى الجحش .. حتى صار علما له ، وانقرض اسم أبيه فلم يعد له ذكر ، وقد شب وترعرع فى حانوت المعلم عبده الذى آواه يتيما ، وظل يستخدمه نظير إطعامه وإيوائه . ولم يكن يعرف له مقرا سوى الحانوت ، وسيدى الحبيبى ، يقضى بالأول يومه ويبيت فى الآخر ليلته .. لا يكاد يفارقهما لحظة واحدة ، حتى بات يألف السمك أكثر مما يألف الناس ، ونشأ بين الاثنين — أعنى بينه وبين السمك — نوع من الصداقة والود والثقة .

وكان زكى شديد النفور من الناس ، ينظر إليهم وقد تجمعوا وراء الزجاج يتصايحون ويتخاطفون قراطيس السمك ، كما ينظر الإنسان إلى حيوانات مفترسة ، وكان أكثر ما يسوءه عندما يخلو إلى نفسه ويجلس ليفكر — بفرض أن

فى رأسه شيئا يفكر به — هو أن الله قد خلقه آدميا و لم يخلقه سمكة .

ما حاجته إلى كل هذا الجسد الضخم ، والرأس الكبير المكسو بالشعر ، والأطراف الطويلة ؟ أين فمه المتسع من فم السمكة الصغير ؟ وأين ساقاه من ذيلها المزركش المنتظم ؟ وأين ذراعاه من زعانفها الدقيقة الرفيعة ؟

لشد ما كان يبعض هذا المنظر الآدمى القبيح ، ولشد ما كان ينظر إلى الناس من وراء الزجاج فى خوف وقلق .. وكان أكثر ما يضايقه أن السمك المسكين لا حول له ولا قوة ، وأنه يستسلم راضيا صاغرا للتقطيع والقلى ، وأن هؤلاء الوحوش يلتهمونه لقمة سائغة .

آه لو أصبح سمكة ، لالتهم كل هؤلاء الناس وانتقم للسمك المسكين .

وهكذا ظل « زكى الجحش » فى كرهه للناس وانطوائه داخل الحانوت بين السمك .. كل أمنيته فى الحياة هى أن يصبح سمكة ، حتى أبصرها ذات مرة وراء الزجاج بين جمهرة الزبائن من الوحوش الآدمية ، فإذا برأسه يدور .. وإذا به يترنح كالثمل !

من ؟

« سنيه أويه » ولا أحد غيرها . من غيرها يستطيع أن يفعل به ما فعلت ؟

رآها أول مرة وقد انحشر جسدها بين الأجساد المتراصة وعلا صوتها ينادى المعلم عبده طالبة منه بخمسة قروش بياض .

ورن صوتها فى أذنه رنة تختلف عن بقية الأصوات ، رنة بها حلاوة غريبة ، وتطلع إلى وجهها وأخذ يحملق فيه بذهول .

بياض ؟!

ما حاجتها إلى البياض ؟! وهى نفسها بياضة تملأ اليدين والذراعين ؟

وعادت البياضة تصبح منادية على المعلم عبده وما من مجيب ، وأخيرا أخذت تدفع الناس بيديها شاقة لنفسها طريقا بين الأجساد حتى وصلت إلى باب الحانوت ودلفت منه .

— ما شاء الله ! ما هذا ؟ إنه لم ير قط آدميا بهذه الكيفية ، هذا الوجه المستدير ، والخدان الموردان الشبيهان بالطماطم ، والمنديل المائل على أحد الحاجبين والورود الصغيرة المدلاة منه على شعرها المنسدل على الكتفين .

والكتفان .. أجاركم الله .. قد انزلقت من فوقهما الملاءة السوداء فكشفت عن قميص رفيع أبان معظم الكتفين .. بياضهما ونعومتهما ، والذراعين المليئتين ، والصدر الثائر على غطائه ، المندفع فى عنف ، القافز فى تحرر .

وسمعها تصيح فى غضب واستياء :

— إيه ده يا معلم ده ؟ بقالى نص ساعة أهاتى لما صوتى اتنبح ما حدش سائل فى .. عايزه بخمسه صاغ بياض .

ولم يرد عليها المعلم عبده بل صاح فى زكى :

— اخلص يا واد يا زكى لحسن الصينية فضيت .

واسترسلت البياضة تقول :

— يا الله والنبى يا زكى يا خويه ، اخلص اعمل معروف .

وأحس من قولها برجفة سرت فى جسده .

« يا زكى يا خويه » ؟ لقد كانت أول مرة يخلع عليه مثل هذا اللقب ، وممن ؟ من البياضة الساحرة الرائعة ؟

وانهمك زكى فى العمل بهمة ونشاط ، وقد أدار وجهه من فرط الخجل ، فقد أحس أنه لا يستطيع أن يحتمل طول التحديق فيها .

وانتهت الليلة على خير ، وجلس زكى فى خلوته بالحانوت بين السمك يحلم بالبياضة !

ومضى يومان بعد ذلك ، وزكى يحملق فى الزبائن ، شارد الذهن ، يبحث عنها فى لهفة دون أن يجد لها أثرا .

ثم حضرت فى الليلة التالية ، وظلت تحضر بعد ذلك كل ليلة لتبتاع السمك ولتلقى على زكى ما تيسر من التحيات الرقيقة .

وهكذا أنشب الحب أظافره فى قلب زكى الجحش .. قلب غشيم لم يعرف قط ما هو الحب ، ولا تطلع من قبل إلى شبح امرأة .

وظل زكى راضيا من البياضة بتلك التحيات الخاطفة ، قانعا بمرآها كل ليلة عندما تحضر لتبتاع السمك . حتى كان ذات يوم وقد وقف مع « سيد الخضرى » فى حانوته المجاور لحانوت المعلم عبده يسأله حزمة بقدونس ، عندما سمع صوت قبقاب يطرقع على أرض الرصيف بدقات موسيقية منتظمة ، ثم سمع صوتا ساحرا يصبح به :

ــ العواف ياسى زكى ؟

وتلفت وراءه .. وكان يقف بالقميص والسروال ، فإذا به يراها هى بعينها ودمها ولحمها ، وقد أخذت تتشدق بلبانة بين أسنانها ، وتصدر منها بين آونة وأخرى طرقعة رائعة اللحن .

وارتبك زكى ، فقد كانت مفاجأة شديدة الوقع على نفسه ، ونزل عليه ــ كما يقولون ــ سهم الله. فلم ينبس ببنت شفة ، وعادت البياضة تقول :

ــ يوه ، يا خويا ما تنطلق . العواف ياسى زكى .

وأخيرا منَّ الله عليه بالحديث ، فأجاب فى صوت مبحوح :

ــ الله يعافيك .

وأخذ « سيد الخضرى » يصفق بكفيه تصفيق غزل ، ويلعب حواجبه ويصيح بالبياضة :

« يابت يا سونه . أموت فى الكوارع البلدى » .

ودهش زكى ، ونظر إلى سيد فى استنكار ، ثم سأله مستفسرا :

ــ سونه ! اسمها سونه ؟

وأجاب سيد متسائلا فى دهش :

ــ الله ! أنت مش عارفها ؟ دى البت سنيه أويه ، بت زى اللوز .. بتشتغل فى بيت زكيه العايقه .

ــ بتشتغل إيه ؟

ــ يعنى حاتشتغل إيه فى بيت زكية العايقة ؟ ناظره ؟ والا واعظه بتشتغل مره يا روح أمك .

ــ يعنى إيه ؟

ــ لا .. دانت نيله أوى ، عمرك ما رحت بيت زكيه العايقه ، صدق من سماك جحش ، تحب تروح معايا الليله دى ؟

وبدا على زكى عجب شديد وتساءل غير مصدق :

ــ نروح عند سونه ؟

وعاد سيد يؤكد :

ــ أيوه عند سونه . إيه . صعب ؟ إيدك على بريزه .

وهز زكى رأسه فى أسف ، فعاد سيد يقول :

ــ ما معاكش بريزه ؟ بلاش . أنا عازمك على حسابى الليله دى .. استنانى هنا بعد ما تشطبوا .

ومر اليوم بزكى وهو ذاهل شارد لا يدرى مما حوله شيئا ، حتى حانت الساعة الموعودة ، ورحل المعلم عبده إلى بيته وأغلق زكى الحانوت ، وبدل أن يأوى إلى سيدى الحبيبى كما تعود أن يفعل ، ارتدى جلبابه وجلس ينتظر فى الخارج وقد أخذ قلبه يدق بعنف ...

وأخيرا حضر سيد ، وسار الاثنان فى صمت حتى بلغا شارع سليم ، واستمرا فى السير فيه حتى عبرا شارع زين العابدين ثم دلفا يمينا إلى زقاق مظلم ، ثم أخذ سيد يجول به خلال الأزقة منحدرا به يمنة ويسرة وهو يحث الخطى وراءه فى صمت وقد شرد ذهنه فى « سنية أوية » ، وأخذ يتخيلها وقد سقطت عنها الملاءة السوداء ووقفت أمامه بالقميص الخفيف الذى لا يؤتمن على سر ، فهو لما فى داخله أفضح وأفصح وبما احتواه أبين وأشرح ، ثم زاد به الطمع فى الخيال فأخذ يجردها من غلالتها الرقيقة وتراءت له عارية من كل سوء ، أو ــ كما يقولون ــ يا مولاى كما خلقتنى .

وقبل أن يتمعن فيها وجد صاحبه وقف فجأة أمام باب خشبى واطئ فأصابه ارتباك شديد وهمس متسائلا فى ذعر :

— وصلنا ؟ وهو دا بيت زكيه العايقه ؟

— لسنه يا جحش .

ثم أخذ ينقر على الباب بسبابته نقرة معينة .

وعاد زكى يهمس فى دهش :

— أمال ده إيه ؟ حانعمل إيه هنا ؟

— حانوزن دماغنا يا تور ، حانعمر الفارغة ، خش ورايا .

وفى تلك اللحظة فتح الباب ببطء وأطل من ورائه وجه أخذ يتفحصهما فى حذر ، ثم صاح فى النهاية :

— أهلا يا ابو السيد ، مين ده اللى معاك .

— الواذ زكى الجحش صبى المعلم عبده .

ودخل سيد ، ولم يملك زكى إلا أن يهرول وراءه فى دهش وذهول وهو يحاول أن يفهم ما عناه صاحبه بقوله « نوزن دماغنا » و « نعمر الفارغه » وظل يسير برهة فى سرداب مظلم أفضى به أخيرا إلى ضوء باهت يصدر من مصباح زجاجى ، وسرت إلى أنفه رائحة غريبة ليس له بها سابق معرفة .

وسمع سيد يلقى التحية بصوت جهورى « السلام عليكم » ، وتعالت بضعة أصوات مختلفة النغمات والنبرات مجيبة التحية : « عليكم السلام يابو السيد ورحمة الله » . وأخذ زكى يفحص المكان بعينيه فإذا به حجرة ضيقة قد احتشد فيها بضعة رجال جلسوا على الأرض فى شبه دائرة وقد اتكأوا بظهورهم على جدرانها الرطبة .

واتخذ سيد مكانه فى الدائرة وجذب زكى فأجلسه بجواره ، وصاح رجل يتخذ مكان الصدارة مناديا بصوت أجش :

— يا واد يا دقدق . ماتياالله يا واد .

— حاضر يا معلم .

وظهر دقدق من الحجرة المجاورة وقد حمل فى يده جوزة صغيرة لا تكاد تفترق عن الجوزة التى أبصرها زكى على المقهى الكائن أمام حانوتهم إلا فى صغر حجمها وقصر غابتها .

ودارت الجوزة على الحاضرين ، وأخذ كل منهم يجذب منها نفسا طويلا ثم يسلمها إلى جاره ، حتى وصلت إلى سيد الذى أسلمها بدوره إلى زكى .

ومضت برهة وزكى قد أمسك الجوزة فى يده حائرا مذهولا ، وأخيرا ضربه سيد بكوعه وهمس به :

— شد منها نفس يا غشيم ، دانت نيله قوى .

ووضع زكى طرف الغابة فى فمه وجذب منها نفسا طويلا جعل جاره الآخر يصيح به :

— حيلك حيلك ، كفايه كده .

وسلم زكى الجوزة لجاره ثم أخذ يرقبها تنتقل مرة أخرى فى دورة ثانية حتى وصلت إليه :

وأحس زكى بعد النفس الثانى بضيق فى تنفسه وكأن شيئا ثقيلا يجثم على صدره ، ولكنه أخذ يخف رويدا رويدا حتى أحس بنفسه قد بات خفيفا كأنما يوشك أن يطير ، وأحس كأن ذراعيه قد تحولتا إلى جناحين .. ونظر إلى الحاضرين فإذا بهم يتضاءلون وينقرضون حتى أضحوا كالنمل ثم اختفوا نهائيا .

وتلفت زكى حوله فإذا بجو الحجرة قد ملئ بدخان أزرق ووصل إلى أذنيه صوت أنغام لطيفة تأتى من بعيد استطاع أن يتبين خلالها صوت سنية وهى تهتف : « العواف ياسى زكى » .

وأحس ببرودة لطيفة ، ووجد الدخان يتثاقل حوله ويتكاثف ، وبدا له أنه محاط بضباب ثقيل أخذ يتحول تدريجيا إلى قطرات ماء حتى أضحى محاطا بالماء من جميع الجهات ، و لم تجد قدماه ما تستقران عليه ، بل أعجب من ذلك أنه لم

يجد له قدمين بالمرة ، بل وجد بدلهما ذيلا منمقا كذيل السمك .

عجبا ! كيف حدث هذا ؟! لقد أضحى زكى سمكة ، إى والله .. هذا هو الذيل ، وتلك هى الزعانف . إنه يستطيع أن يتنفس فى الماء بمنتهى السهولة ، ويستطيع أن يروح ويغدو كما يشاء .

حمدا لله ، لقد تحققت أمنيته التى طالما ذابت نفسه شوقا إليها ، لقد فارق الوحوش الآدمية إلى غير رجعة ودخل فى عالم السمك .. أيتها الأسماك أبشرى ، إن زكى ملك الأسماك سيثأر لك من ابن آدم .

وأخذ زكى القرموط — فقد وجد نفسه أشبه بالقراميط — يتجول فى عالمه الجديد ، وطال به التجوال حتى أحس بالجوع دون أن يجد ما يسد به رمقه .

شىء عجيب ! أليس لديهم فى هذا العالم ما يؤكل ؟ ولو لقمة بجبنة ؟

وفجأة لاحت له فى الماء اللقمة التى يتلهف عليها .. واتجه إليها محركا زعانفه وذيله فى عجلة حتى وصل إليها ، وفتح فمه فأطبق عليها .

وهنا كانت الكارثة .

يا له من حمار أحمق ! لقد أحس بشىء حاد يخترق فمه وينفذ إلى أذنه ، كيف انزلق إلى الطعم بمثل هذه السهولة ؟

أيصطاده إنسان ولما يمض عليه فى الماء بضع دقائق ؟ أهكذا يقع غنيمة سهلة باردة ؟

وحاول أن يخلص نفسه من السنارة ، ولكنه وجد نفسه ينجذب بسرعة إلى على ، وفى غمضة عين وجد نفسه خارج الماء .

وأخذ يضرب بذيله محاولا الفرار .. وأدار رأسه فوقعت عيناه على الصياد الشرير والمجرم الأثيم .

من هذا ؟! إنها هى ، هى بعينها .. سونه ، من يصدق هذا ؟ كيف تكون هى أول من يخرجه من عالمه المحبوب ؟

ووجد الهواء يثقل عليه ، وتملكه ما يشبه الإغماء ، وأحس بالمرأة تقلبه بين

يديها ، ثم أبصر بها وهى تتناول مقصا وتأخذ فى قص زعانفه وذيله ثم دفعته فى نخاشيشه وهو يستعطفها ويتوسل إليها أن ترحمه وتتركه لوجه الله ، ثم سمع صوت الوابور وطشطشة الزيت ، وأحس بشيء أشبه بالسيخ يتخسه فى جنبه ، فحاول التخلص منه ولكنه استمر ينخسه ، وسمع صوتا يصيح به :

— ياللا بينا .

وفتح عينيه بتثاقل فإذا بسيد يضربه بكوعه فى جنبه ، وعاد يقول له ملحا :

— فوق بقى ، الغرزة شطبت .. ياللا بينا .

وتساءل زكى فى صوت خافت :

— على فين ؟

— على زكيه العايقه ، تشوف الست سنيه .

وصاح زكى فى فزع .

— سنيه ؟ أبدا ! أنا فى عرضك ماروحشى ، كفايه اللى عملته فى ، رجعنى الدكان ابوس إيدك .

وعاد به سيد إلى الدكان ، ولم يتطلع زكى بعد ذلك إلى « سنيه » إلا وسرت فى جسده قشعريرة خوف ، لقد كانت تلك هى مغامرته الأولى والأخيرة .

فى البغالة

كان هذا الحديث أشبه بشريط مسجل يعاد كل صباح بين أبى سريع وأمه .. لا يكاد يختلف اليوم عنه فى أمس ولا فى غد .. يدور بينهما قبيل الفجر فى المندرة التى يقطنانها فى شارع ممتاز بالبغالة .

الساعة الرابعة صباحا . وبين حين وآخر تعلو أصوات الديكة من هنا وهناك ، وأبو سريع يدعك عينيه ويتقلب على جنبيه وهو يتمطى ويتثاءب ، ومن أقصى الحجرة ينبعث صوت رفيع حاد كأنه صوت الضفادع ينادى نداء ملحا متواصلا :

ــ أبو سريع .. أبو سريع !

ويجيب أبو سريع بمزيد من التمطى ومزيد من التثاؤب ، ويستمر الصوت في إلحاحه :

ــ أبو سريع .. أبو سريع !

وهنا يزوم أبو سريع ، ولكن الصوت لا يعتبر الزومان إجابة كافية ، ويستمر فى توسله :

ــ قوم يا ابنى . قوم يا خويا الله يهديك . أبو سريع أبو سريع .

وعلى حين غرة تنطلق من أبى سريع صيحة غضب بعد نفاد صبره ويجيب ساخطا .

ــ ما قلنا طيب . خلاص صحينا . لمي لسانك واتكتمى بقى . والا عليك

عفريت اسمه أبو سريع ؟!

— قلبي عليك .. يرفدوك وترجع ماتلاقيش اللضا .. وتبقى داير من قهوه لقهوه زى المقاطيع !.

— اصطبحى وقولى يا صبح .

كان هذا الحديث أشبه بشريط مسجل يعاد كل صباح بين أبى سريع وأمه .. لا يكاد يختلف اليوم عنه فى أمس ولا فى غد ، يدور بينهما قبيل الفجر فى المندرة التى يقطنانها فى شارع ممتاز بالبغالة .

وكان أبو سريع قد التحق حديثا بعمله الجديد .. كمساريا فى شركة الترام .. وقد أحست أمه عند عودته إليها لأول مرة ببدلته الرسمية الصفراء ؛ بأنها قد بلغت أقصى أمانيها .. وأنها لم يعد ينقصها غير شيء واحد حتى تموت مستريحة البال .. قريرة العين .. هو أن تفرح به ، وتلمه على بنت الحلال .

ولم تكن المرأة مبالغة فى فرحتها بأبى سريع بعد أن استقرت به الحال وأضحى موظفا يرتدى السترة والبنطلون والطربوش .. أو بمعنى آخر : أفنديا .. فقد كانت المسألة حقا تستحق الفرحة .. أولا لأنه كان أول أفندى فى العائلة الكريمة ، وثانيا لأنه — هو بالذات — كان آخر من يتصور إنسان أن تستقر به الحال فينتظم فى عمل أيا كان .

تلك كانت هداية من الله .. وكانت حسن الختام لحياة الشقاوة والبلطجة التى كان يرتع فيها أبو سريع .

من كان يصدق أن هذا المخلوق الهائم الشارد المطيور الذى لا يحمل نفسه عبء مسئولية ، أو يثقل عليها بتفكير فى مصير ، أو خوف من مستقبل ... المخلوق الذى لا يضيق بهمّ أو يسعى إلى رزق ، أو يجهد فى عمل .. المخلوق المغرق فى لهوه ومرحه وعبثه .. من كان يصدق أنه يمكن أن ينطوى فى وظيفة ذات حدود وقيود ونظم ومواعيد !

كان أبو سريع .. من يومه — كما تقول أمه — شضليا مهياصا متلافا ..

لا يعتمد عليه فى شىء ، ولا يركن إليه فى عمل .. فما كان يطيق الذهاب إلى الكتاب إلا بعد علقة صباحى يتناولها على الريق .. من خيزرانة أبيه ، وكان كثير الفرار من الكتاب ، كثير المقالب فى شيوخه .. وأمه ما زالت تذكر كيف حاول الشيخ « شحتوت » حبسه — وهو فى السابعة من عمره — فى زنزانة كتاب الاجتهاد فقفز من النافذة وهبط إلى الأرض .. لا لينجو بجلده .. بل ليتسلل إلى حجرة الشيخ « شحتوت » نفسه ويغلقها عليه ، وهو جالس يصلى ، ويتركه سجينا فى الغرفة حتى أطلق الفراش سراحه فى اليوم التالى .

وتذكر كذلك كيف كان يحتفظ بقشر البطيخ ليأخذه معه إلى الكتاب قائلا : إن القشر الأبيض ينفع فى اليوم الأسود ، وأن له فيه منافع جمة .. أهمها ضرب أقفية التلاميذ فى أثناء الدرس ، وزحلقة « الشيخ بندق » عند دخوله الفصل أو خروجه منه !

وأخيرا هرب من الكتاب .. ومن كل كتاب آخر حاول أبوه أن يدخله فيه .. ولم يكن نصيبه فى المدارس الابتدائية بأحسن من نصيبه فى الكتاتيب .

وانتهى الأمر بأبيه .. بعد أن فقد كل أمل فى جعله ابن مدارس .. وفى أن يكون أبا لموظف متنور متعلم .. يغيظ به الأقارب ويكيد به الحساد ، انتهى الأمر به بعد طول يأس وقنوط إلى أن يحجزه فى دكانه ويحاول الاستغناء به عن أحد صبيانه ، وأن يقنع بأن يورثه مهنته ويخلفه فى عمله .

وهكذا بدأ أبو سريع يعمل كصبى لبان فى شارع ممتاز يقوم بتوزيع اللبن على زبائن حى البغالة فى أقساط الصفيح صباحا .. ويحمل الصينية الخشب المليئة بسلاطين الزبادى لبيعها مساء ، وفيما بين هذا وذاك ، كان عليه أن يقوم بما يلزم من غسل الأقساط وجمع السلاطين وإشعال المنقد .. وتنظيف الدكان .

كان هذا هو عمل أبى سريع ، أو على الأصح ما كان يجب أن يعمله كصبى لبان .. صبى عاقل كبقية خلق الله من الصبية .

ولكن أبا سريع لم يكن كبقية خلق الله .. ولو كان خلق الله كلهم كأبى سريع

ولما قامت للدنيا قائمة .. ولا انتظم فيها عمل .. لأن أبا سريع كما قلنا كان يحس دائما بأنه غير مسئول عن أى شيء .. وأنه يجب ألا يكون قط مسئولا .. فهو لا يفعل إلا ما يحب ويشتهى .. وهو ما دام مبسوطا فعلى الدنيا السلام .. لقد كان قوله المأثور إذا ما سئل عن خطأ أو مخالفة « إنه مبسوط كده » .. لقد كان نموذجا لإنسان ضارب الدنيا صرمة أو حاطط فى بطنه بطيخه صيفى أو كما تقول أمه :

« ما حدش واكله عجين » !

وعلى ذلك فمن الحمق أن نظن أن أبا سريع — كصبى لبان — يمكن أن يعمل ما يجب على صبى اللبان عمله .. من كل ما ذكرنا من واجبات .

إذن .. فماذا كان يفعل أبو سريع .. !

لنرقبه فى أول خروج له ، وقد حمل صينية الزبادى على رأسه وهو فرح مسرور لمجرد أنه يعمل شيئا جديدا وأخذ يطوف بالحوارى مناديا :

« يا قشطه يا زبادى » .

ثم يخطر على باله فجأة أن يذهب إلى شارع التلول حيث تعود أن يجتمع برفاقه وهم يلعبون كرة الشراب ليرى ماذا يفعلون .. وليريهم أنه قد أضحى صاحب عمل ، وصاحب صينية .

ويهل على باب الحارة .. فيلمحه الصبية المنهمكون فى اللعب .. فيقفون اللعب ويصيحون به فى دهشة :

— إيه ده يا وله يابو سريع !

فيقول مفتخرا :

— لبن زبادى .. حدش له غرض !

ويقذف أحدهم بالكرة .. ويحس أبو سريع أن رجله تأكله على اللعب .. وتقترب الكرة منه .. فيشتد الإغراء وتضعف المقاومة . فيستعدل لها ويرجع ساقه إلى الخلف ، ثم يسدد إليها ضربة قوية .. تقذف بها إلى أقصى الحارة ،

وتقذف به طريحا على الأرض وسلاطين اللبن فوقه .

وينهض أبو سريع متحاملا على نفسه .. ويتزاحم عليه الرفاق يلعقون ما علق به من الزبادى .. ثم يساعدونه فى لم الأنقاض .. ويعود إلى أبيه حاملا بقايا الزبادى ، وشقافة السلاطين .. ويخبره ببساطة أنه تزحلق على قشرة بطيخ .

ويحتار أبوه فيما يفعله به ويثور ويقسم أن يرسله إلى الأحداث . فتهدئه أمه . وتذكره بأن هذه هى المرة الأولى التى يخرج فيها .

ويخرج فى المرة الثانية ليتجه رأسا إلى شارع التلول وليضع الصينية على أحد الشبابيك وينهمك مع الصبية فى اللعب !

وترتفع الكرة .. لتستقر فى وسط الصينية .. وتقلب عاليها سافلها .. ويعود أبو سريع ليخبر أباه أن السبب هذه المرة كان قشرة شمامة !

ويهيج أبوه ويثور .. ويقسم أنه لابد أن يحطم رأسه ، وتتدخل أمه قائلة « التالته تابته » وأنه يجب أن يعطى الصبى فرصة أخيرة .

ويخرج أبو سريع فى المرة الثالثة .. ويبدو كأنه قد حقق رجاء أمه .. وأن « التالته » حقا « تابته » . فلقد عاد فى المساء بالصينية فارغة .. بعد أن جبر كل ما بها وأخبر أباه أن الزبائن سيدفعون الحساب آخر الشهر .

وهكذا ظل أبو سريع يخرج كل يوم بالمليان ويعود بالفارغ ، وأبوه مطمئن وأمه راضية .. ولم يكن أبو سريع نفسه بأقل منهما رضا وهناءة .. فقد كان كل ما يفعله .. هو أن يذهب إلى شارع التلول فلا يضع الصينية على النافذة حتى لا تهبط الكرة عليها فتتلف اللبن .. بل يجمع الرفاق ويوزع عليهم السلاطين .. فيأتون على ما بها ، ثم يكومونها فى حفرة بالأرض ويغطونها بالصينية .. وينهمكون فى اللعب .. وفى النهاية يأخذ أبو سريع السلاطين الفارغة ويعود إلى البيت .

وانكشف الأمر فى نهاية الشهر .. وأقسم أبوه بالطلاق ثلاثا .. أن يطرده من الدار .

وظلت أمه تبكى وتنوح قائلة : إن المحروقة الكورة هى السبب فى كل ما حدث .

ولم تطل غيبة أبو سريع عن الدار .. أكثر من يوم . فقد تدخل القدر وأقسم ثلاثا أن يكون الأب هو المطرود . وعاد أبو سريع ليصبح رب الدار .. بعد أن استقر أبوه فى مقره الأخير .. باب الوزير .

وتوقعت الأم أن يهتدى أبو سريع .. ويكبر ويتولى أمر الدكان بعد أبيه .

ولكن خاب أملها .. فقد استمر أبو سريع على حاله وكان أول ما فعله بعد موت أبيه هو أن ابتاع لنفسه جزمة فوت بول .. وفانلة مخططة وشرابا ملونا .. وأنبأ أمه أنه قد أضحى كابتن « تيم الأسد المرعب » .!

وتولت الأم أمر الدكان لتطعم نفسها .. وابنها .. وتيم الأسد المرعب !!

أجل .. لقد كانت المرأة مسئولة عن إطعام وأيواء أفراد « تيم الأسد المرعب » من الضائعين والشحاتين .. الذين تعودوا أكل اللبن الزبادى كل مساء .. عقب كل مباراة .

وانتقل ميدان اللعب من شارع التلول إلى أرض الطيبى بسيدى الطيبى ، وهى أرض متربة تغوص فيها قدم اللاعبين إلى مسافة تزيد على ربع متر داخل الأرض .. وكان أبو سريع وبقية أفراد التيم .. يقضون نصف عمرهم .. مدفونين فى هذه الأتربة .. والنصف الآخر فى مقهى « أبو الفضل » فى أول شارع السد .

واشتهر أبو سريع .. « كابتن تيم الأسد المرعب » .. فقد كان التيم دائم الفوز ، لأنه لا يلاعب الأتيام الأخرى إلا فى أرض الطيبى وهى أرضه التى اعتادها والتى لا يستطيع أى تيم سواه أن يلعب فيها ، فقد كانت الأتربة تثور من الأرض وتملأ الجو فيختفى كل شىء عن أعين اللاعبين ، ويختفون هم عن أنفسهم ، وتختفى الكرة عن أبصارهم ، فلا ترى إلا وقد استقرت — بقدرة قادر — فى مرمى التيم المضاد .

وهكذا كان « تيم الأسد المرعب » لصاحبه أبو سريع ، دائم الفوز ، بعد أن أصبح اختصاصيا فى اللعب وراء ستار من الغبار ، أو قل إنه أضحى لا يشق له — وسط الغبار — غبار .

وفوضت الأمر أمرها لله ، ولم تعد ترجو من ابنها أفضل مما هو عليه . وهيأت نفسها لقبول الأمر الواقع ، بل لقد كانت تذهب من آن لآخر بناء على إلحاح ابنها ، لترى مباريات الغبار التى كان ابنها وأفراد التيم يثيرونها فى أرض الطيبى .

واستمرت الحال على هذا المنوال حتى كان ذات يوم — وبدون سابق إنذار ولا مقدمات — إذ أنبأها ابنها .. أنه سيتوظف .

وفغرت الأم فاها من العجب ولم تصدق أذنيها بادئ الأمر .. واستعادته القول ، فأنبأها فى لهجة حاسمة مؤكدة أنه سيتوظف فى وظيفة محترمة ، كمسارى فى شركة الترام .

وظنت المرأة أن ابنها يمزح فقد كان من البلاهة أن تتصور أن أبا سريع يمكن أن يصبح انسانا نظاميا .

أبو سريع . يصبح كمساريا ؟ . غير معقول ولا جائز .

أبو سريع ، يرتدى البدلة الصفراء والطربوش ، بدلا من الفانلة المخططة وحذاء الكرة !.. لا يمكن !

أبو سريع ، يحمل حقيبة ودفتر تذاكر ، ويجمع من الركاب نقودا ؟ أبدا ..؟

ومع ذلك .. فما كادت تمضى بضعة أيام .. حتى أقبل أبو سريع من باب الحارة ، وقد سبقه صوت الزمارة يعلن عن قدومه ، ثم بدا أمامها يتبختر فى حلته الصفراء .!

وانطلقت أول زغرودة من فم المرأة . وأقبلت عليه تقبله وتحتضنه ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وهى تحمد الله على أن هداه أخيرا .. وأن حقق لها أمنيتها الأولى .. ودعت الله بحرارة أن يحقق لها الأمنية الثانية ، وأن تتم فرحتها بأبى سريع بزواجه ببنت الحلال .

وتساءل الجيران فى حيرة عن سر تلك المعجزة التى حلت بأبى سريع ، فجعلت من الضائع الصائع المهياص المتلاف — فى يوم وليلة — موظفا محترما ، وانسانا عاقلا مسئولا .

أجل إنها لا يمكن أن تكون أقل من معجزة تلك التى تجير صاحبنا على أن يقبل — بمحض اختياره — ترك أرض الطيبى وقهوة أبى الفضل ، إلى سلم الترام ومتاعبه وقيوده .

ولقد كان ما أصابه حقا معجزة ، لا من السماء بل من الأرض ، معجزة قد لفها الله فى ملاية لف ، ورج منها الصدر وهز منها الردف .

كانت معجزة « بأويه » ، تتشدق باللبانة وتطرقع من وراء البرقع ، وقد استقرت العروسة الذهبية على أنفها الدقيق ، وبدت العيون وفى طرفها حور من نوع قاتل فتاك .

كانت المعجزة هى : نجف .

نجف ولا أحد غير نجف ، إنها السبب فى كل ما حدث . أبصرها أبو سريع أول مرة ، وهو يجلس على المقهى فى (ترام ٥) المتحرك ما بين المدبح وغمره ، ثم أبصرها ثانى مرة فى (ترام ٥) أيضا ، وثالث ورابع وخامس مرة ، برضه فى (ترام ٥) ، بل إنه لم يبصرها قط فى غير (ترام ٥) ، إما ذاهبة إلى المدبح ، وإما عائدة من المدبح .

ومست « أبو سريع » من حبها جنة ، وأضحى صريع هواها وقتيل (ترام ٥) ، وزاد من جنونه ، أن « نجف » كانت تجيد ضروب الصد والإعراض . وأنها كانت تجلس فى الحريم حتى تقطع عليه كل طريق للوصول إليها .

ومرت الأيام بأبى سريع وهو مضنى جفاه المرقد ، صب أرقه الهوى ، لا يأمل فى وصول ، ولا ينعم بلقاء .

وأخيرا منَّ الله عليه بالفرج عندما اقترح عليه صاحبه « حنفى » سائق الترام

أن يعمل معه فى الشركة كمساريا ، وأفهمه أن الشركة سترحب به كلاعب كرة يمكن أن يفيد تيم الكرة بها ، وأنه يمكن أن يتوسط له لكى يعين فى (خط ٥) ، وبذلك تتاح له فرصة لقاء « نجف » والحديث معها يوميا .

وهكذا حدثت المعجزة واشتغل أبو سريع كمساريا ، وبدأ ركاب (ترام ٥) يشاهدون فى ترام أبو سريع مسرحا لأبدع ضروب الفكاهة والتسلية واشتهرت زمارة أبو سريع بأنها تقاسيم صبا ، فقد كان يجود فيها تجويدا رائعا ، وكان كثيرا ما يوقف الترام ليبدأ فى تشنيف آذان الركاب بأغنية نجف صائحا : « آه يا نجف ، آه يا نجف ، آه يا نجف ، حلو يا نجف » أو « يا لفتك فى الملايه حرمتنى أهلى ، امتى تدوب الملاية وتمشى على البهلى » .

وكان كثيرا ما يوقف الترام أيضا ، ليجرى وراء بائع عرقسوس ، ليحمل منه كوبا يبل به ريق « نجف » أو يعدو إلى بائع الجزر ليتحفها بشرشين جزر ، أو حمل ملانة ، أو خص .

كل هذا و « نجف » مستمرة فى صدها ممعنة فى إعراضها ، وأبو سريع صابر راض ، حتى كان ذات يوم حلت الكارثة ونقل أبو سريع وصاحبه حنفى من (خط ٥) عقب وشاية من أحد المفتشين .

وخرج أبو سريع ذات صباح من داره حزينا ليتسلم مع حنفى إحدى عربات (خط ٧) المتحرك بين غمره وروض الفرج وبدأ الترام سيره من غمره فى حزن واكتئاب حتى توقف أمام محطة « نجف » ونظرت « نجف » إلى نمرة الترام وإلى أبى سريع وهزت رأسها فى دهشة .

وقال أبو سريع :

ــ اتفضلى .

ــ لأ . أنا رايحه المدبح .

ــ دا ترماى ٧ ، اللى بيودى على روض الفرج .

ــ عشان عيونك نوديه المدبح ، ودين النبى ما هو رايح إلا المدبح .

وأحبت « نجف » بدافع خفى يدفعها إلى أن تركب مع « أبو سريع » حتى ولو ذهب بها إلى جهنم .

إنها لم تعد تستغنى عن « أبو سريع » ، لا تدرى لم ؟ قد يكون الحب !

وركبت « نجف » ، وانطلقت زمارة « أبو سريع » ، تتراقص وتتلوى وتتأوه .. وانطلق هو يصفق ويصيح بأنشودة : « آه يا نجف » ..

وفى مفترق الطرق صاح « أبو سريع » بحنفى قبل أن يطلق زمارته :

— على طول يا حنفى على المدبح عشان خاطر عيون نجف .

واندفع إلى عامل التحويلة فحول الخط إلى المدبح وانطلق الترام ٧ بركابه لأول مرة إلى المدبح بدلا من روض الفرج .

وضج الركاب فأفهمهم أبو سريع أنه مبسوط كده ، واللى مش عاجبه ينزل .

وعاد أبو سريع إلى أمه فى ذلك اليوم ، وهو يرقص عشرة من مدخل الحارة . وطلب منها أن تبارك له ، لأنه سيتزوج ، فقد رضيت به « نجف » وأنبأته أنها تحبه .

وانطلقت الزغرودة الثانية من فم المرأة فقد حقق الله كل أمانيها ، وهتفت والدموع تترقرق فى عينيها :

— الحمد لله ربنا حقق الحاجتين اللى كانت نفسى فيهما .

— حاجتين ؟ .

— أيوه الوظيفة والجواز .

وأطرق أبو سريع برهة ، ثم أجاب فى أسف :

— اسمعى يام ، ربنا خد واحده منهم .

— خد واحده ؟

— أيوه ، الوظيفة .. الشركة رفدتنى النهار ده علشان وديت ترماى ٧

المدبح عشان خاطر نجف .

وضربت المرأة بيدها على صدرها صائحة فى انزعاج ، ولكن انزعاجها على رفت أبو سريع لم يطل ، فقد أصلح الزواج حاله وعلمه المسئولية فتولى أمر دكانه ، وأضحى المعلم أبو سريع اللبان الشهير فى البغالة والأربع عشرة مديرية .

فى حارة السيدة

وهكذا حواء تأخذ من الجميع ولكنها لا تهب إلا لمن تحب .. حتى ولو كان زبالا فى خرابة .

ترى .. هل تختلف حواء حارة السيدة كثيرا عن حواء الزمالك ، والمعادى ، وجاردن سيتى ؟

الساعة السابعة مساء .. والضجيج على أشده على باب حارة السيدة ، وقد تزاحمت عربات الباعة أمام الحوانيت وتعالت الأصوات واختلطت نداءات الباعة بصيحات المارة .

وعلى ناصية الحارة دكان كتب على لافتته « على على على وولده على » ، ورغم أن اللافتة لا تنم صراحة على كنه الحانوت ، إلا أن الواجهة الزجاجية تنبىء عما خفى من أمر اللافتة ، وتكشف بوضوح عن نوع البضاعة التى يتجر فيها صاحب الحانوت .

أول ما يلفت النظر من زجاج الواجهة : إنسان يتحرك يمنة ويسرة بطريقة أوتوماتيكية سريعة منتظمة كأنه بندول الساعة .. وقد ينهمك فى العمل أو يكف عنه ، وقد يندفع فى الحديث أو يلوذ بالصمت ، وقد يفعل كل شىء .. أو لا يفعل شيئا أبدا ، ولكنه مع ذلك لا يكف عن الحركة ذات اليمين وذات اليسار .. حتى ليبدو أن هذه الحركة هى الوضع الطبيعى له ، وأنها لا علاقة لها ألبتة بما يأتيه من أعمال ، فهى كحالة الثبات عند سواه من الآدميين .

فإذا ضربنا صفحا عن حركة صاحبنا البندولية .. وأخذنا فى فحصه هو ..

وجدنا فيه مخلوقا سمين الجسد ..هرمى الشكل ، منتفخ البطن ، أبيض البشرة .. مشدود الجلد لامعه ، شديد الشبه بالطبلة .. يرتدى جلبابا بلديا ويضع فوقه فوطة كتلك التى يرتديها الطباخون ، ويضع فوق رأسه طاقية شبيكة بيضاء ، ويدس قدميه فى « بلغة » صفراء .

هذا عن الشكل ، أما عن الموضوع .. فنحن فى حيرة شديدة .. أى الرجلين هو ؟ أهو صاحب الحانوت على على على أم ولده على ؟

لنتتبعه فى عمله برهة .. علنا نصل إلى الحقيقة .. فنعرف من يكون !.

الرجل ما زال فى اهتزازه الدائم ، وقد رصت على « البنك الرخامى » الذى يقف خلفه قطع صغيرة من العجين فى حجم قبضة اليد ، وبجواره واجهة نحاسية لفرن بدت من فتحته بضع فطائر دست فيه ، ويمسك الرجل إحدى قطع العجين ، فيضغطها بين يديه .. ثم يطرق على الرخامة ويتناولها بأصابعه ، وفى لمح البصر تجده قد نشرها فى الهواء كأنها منديل محلاوى ، ثم يأخذ فى طى أطرافها وتطبيقها وهو يغمس أصابعه بين أونة وأخرى فى آنية ملأى بالسمن ويقطر منه فى جوف الفطيرة ثم يطوح بها إلى فوهة الفرن .

وهكذا يتضح لنا أن الرجل بلا أدنى شك فطاطرى ، ومع ذلك فقد بقى علينا أن نكشف اللغز ، ونحل العقدة ونعرف هل هذا الرجل هو نفسه صاحب المحل أم هو ولده على .

ويصيح أحد الصبية المتكأكئين على باب الحانوت :

ــ أربع فطاير بالسمن ، وخلى السكر لوحده !.

ويأخذ الصبى الفطاير ويغادر الحانوت دون أن يطالبه الرجل بالثمن .. لا هو ولا غيره .. ممن سبقوه .

وقد يثير الأمر دهشة الغريب عن الحانوت فيتراءى له أن صاحبنا يبيع فطايره شكك أو يوزعها مجانا ، ولكنه لا يكاد يتبع أحد الزبائن حتى يجده قد توقف أمام عجوز نحيل الجسد أشعث اللحية ، قد استقر متربعا على كرسى من الخوص

وتناول فى يمناه مبسم شيشة يكركع بها بين آونة وأخرى وينفخ من فيه حلقات الدخان كأنه مدخنة فرن ، ويسعل ويتنخم ويبصق ، ثم يمد يده إلى الزبون الواقف أمامه فيتناول منه ثمن الفطير .

ومن هذه العملية تستطيع أن تجزم أن هذا العجوز هو الكيس .. وأنه كذلك لا يمكن إلا أن يكون هو نفسه على على .. ويؤكد لنا هذه الحقيقة صيحة تنطلق من منتصف الشارع كأنها الرعد .. لو حاولنا تفسيرها لما وجدنا فيها سوى « سلامو عليكم يا حاج على » .

ويرد « الحاج على » التحية بصوت متحشرج متقطع .. فيطلق صاحب التحية صيحة أخرى متسائلة تحتوى على « أوزن رطلين ؟ » .

ويجيب الحاج على باقتضاب :

ـــ لأ ..

ـــ دا زى اللوز ..!

ـــ قلت لأ ..

ولكن صاحبنا لا ييأس ، ويعاود الإلحاح بطريقة مباشرة .. فيضع كفه على صفحة وجهه ويغمض عينيه ويرفع عقيرته بما يشبه الغناء مناديا : « والنقا لوز يا سيوى العرب » .. ثم يصمت لحظة ويخفض صوته هابطا إلى قرار الجواب متمما نداءه « البلح السيوى » ، ولا يصل النداء إلى « الحاج على » إذ يبدو منهمكا فى عد قروش أعطاها له أحد الزبائن .. فييأس منه صاحبنا ويلقى تحية أخرى أرق من الأولى وأنعم .

وتهبط التحية هذه المرة على « سنيه ورور » بائعة الفجل وقد تربعت على الرصيف بجوار « الحاج على » ، ووراء قفص رصت عليه حزم الفجل ، وبجوارها سلة ممتلئة بالليمون .

وتجيب « سنية » تحية بائع البلح قائلة بصوت ممطوط ممدود :

ـــ مسا الخير يا جمعه .. الوراور .

ولا يبدو فى صيحتها تلك أى فاصل بين تحيتها لجمعة وندائها على الفجل الوراور ، بل هى تشبكهما بعضهما ببعض كأنما تخشى أن تضيع منها لحظة دون أن تعلن عن بضاعتها .

ويدفع جمعة عربته تجاه الرصيف فيوقفها بجوار قفص سنية ، ويبدأ الدردشة معها .

وتلتفت إلى الحانوت ، فإذا الرجل البندولى المتأرجح يمينا ويسارا .. الغارق إلى كيعانه فى السمن البلدى ، والذى لم يعد لدينا شك بعد اكتشافنا « للحاج على » أنه لابد أن يكون هو نفسه ولده على ، وقد انتهى من لف بضع فطاير وناولها إلى أحد الزبائن وصاح مبلغا الحاج على :

— أربع فطاير دوبل ، واثنين مفرد .

وفجأة وبدون سابق إنذار يلوح لنا أن حدثا خطيرا يوشك على الوقوع .. إذ نبصر « سى على » قد كف فجأة عن الاهتزاز وتوقفت حركته البندولية ، واحمر وجهه وتجهم ، وتطاير الشرر من عينيه فنفذ خلال الواجهة الزجاجية ، وعبر اللافتة التى نقشت عليها « عز من قنع .. وذل من طمع » .. واستقر على « جمعه » وقد اتكأ على عربة البلح السيوى ولف ساقا على ساق .. متخذا وضعا من أبلغ أوضاع الغزل والبصبصة .

وتمر فترة صمت قصيرة يتطلع خلالها الزبائن إلى « سى على » دهشين مما حل به ، ويثبت هو فى مكانه وقد تكأكأت الأفكار متزاحمة فى ذهنه .

ماذا يفعل ؟!!

ينطلق من الحانوت فيضرب « جمعه » ضربة بالمحساس (القضيب الحديدى الذى يقلب به الحطب فى جوف الفرن) ترديه صريعا ؟!

لقد عاد مرة أخرى إلى مغازلة « سنية » .. رغم الإنذار النهائى الذى أعطاه له عندما التقى به يتبعها فى الحارة .

ثم « سنية » نفسها ..؟ ألم يحذرها مائة مرة ويأمرها أن تصده عنها ؟ ومع

ذلك فهى تبدو مقبلة عليه ، وهى ترد له الابتسامات وتجاوبه الضحكات .

والله ليقتلنها .. وليقتلنه .. وليقتلن أباه .. ثم ليقتلن نفسه .

أجل .. إن أباه هو المسئول الأول .. فقد طلب منه أن يزوجها له ، ولكنه رفض منبئا إياه بأنها مش قد المقام ، وأن على بن الحاج على على على الفطاطرى الأصيل الحسيب النسيب ... لا يمكن أن يهوى إلى درجة الزواج من بائعة فجل !!

إن هذا ما تذرع به أبوه !! ولقد كذب العجوز فيما تذرع به .. إن المسألة ليست مسألة حسب ولا نسب ، ولكنه رفض أن يزوجه بها لأنه يريدها لنفسه ، ولولا خوفه من « أم على » .. لما تردد لحظة فى زواجها .

وإلا فما معنى حبه الفجائى للفجل ، وشرائه يوميا بقرشين أو ثلاثة قروش فجلا يذهب به إلى « أم على » ويخبرها كذبا .. أن النبى عليه الصلاة والسلام قد قال : « إن خير الأكل ما جاور الفجل » !

إن كل هذه النمر والحركات من الحاج ما كانت لتخفى على الابن العاشق .. فكم من مرة ضبطه متلبسا بالحملقة فى صدرها البارز ، وساقيها الممتلئتين ، وردفيها المكتنزتين ، وهو كثيرا ما يطلب منها أن تناوله شيئا فلا تكاد تقترب منه حتى يتحسس يديها ، ويربت على ظهرها .. مدعيا أنها « بنت غلبانة » تستحق العطف ، ولا يدرى « على » لم يخص أبوه « سنية » من دون بقية خلق الله الغلابة بالتحسيس والطبطبة .

وهكذا لم يعد يشك فى سوء نية أبيه ، وفى كذب حججه ، وبدأ يرسم الخطط ويضع المشروعات التى تمكنه من أن يفوز بـ « سنية » رغم أنف أبيه ، حتى ظهر فى الميدان خصم ثالث .. هو جمعه .

ولم يكن « سى على » فى بادئ الأمر ، ليرى فى خصمه الجديد أى نوع من أنواع الخطورة .. بل لقد كان يأبى فيما بينه وبين نفسه أن يعترف به خصما ، فما كان يراه ندا له وما كان ليتواضع حتى يقارن فطاطرى محترم مثله ينعم عليه كل

من حوله بلقب « سى » بجربوع متجول مثل جمعه . يقضى نهاره يطوى الشوارع والحوارى وراء عربة بلح .. أو عربة بطاطة أو جميز أو ترمس .. رافعا عقيرته الحميرية بـ « والوزنه بنكله يا عسل » .. أو « طلعت اجيبه ترمس لقيته لوز » .

إى والله .. إن « سى على » ما توقع من « جمعه » الكلب خطرا رغم ما كان يراه من إقباله على « سنيه » ، ورغم ما كان يتحفها به من قراطيس بضاعته .

ومع ذلك فقد بدأ الخطر يلوح أخيرا .. فقد اتضح له أن سنيه من نوع نهم ، وأن إطعام الفم .. له تأثير عليها .. أى تأثير ، وأنها من النوع الذى يستطيع أن يصل الإنسان إلى قلبه عن طريق فمه ، وأن قراطيس جمعة الملأى بالبلح والجوافة كانت أكثر سحرا من نظراته المفعمة بالحب والوله .

ولذلك فقد وجب عليه أن يوقفه عند حده بأية وسيلة .

إن استعمال القوة مع مثل هذا الحيوان طريقة غير مجدية فهو بلاشك أقوى منه وسيرديه صريعا فى أى معركة بينهما .

وبدت على وجهه علامات الخيبة ، ولكنها لم تستمر سوى ثوان معدودات ، وسرعان ما حلت محلها فرحة ظاهرة .

ما الداعى إلى استعمال العنف ؟ لم لا يحاربه بنفس سلاحه ؟ لم لا ينفذ إلى قلبها من نفس الطريق .. طريق أطعم الفم يستحى القلب ؟ . إنه لاشك أقدر فى هذا الميدان وأمضى سلاحا وأكثر عتادا .

وهكذا استقر رأيه على أن يستعمل مع « جمعه » سلاح الفطير ، وأن يغزو قلب حبيبة القلب بفطيرة متقنة الصنع ، لم يسمع عن مثلها فى عالم الفطاطرية .

ونظر إلى « جمعه » وهو يمد يده بقرطاس البلح السيوى ، ثم نظر إلى « الحاج على » وهز رأسه وتمتم فى سخرية « خير الأكل ما جاور الفجل » .. ثم صمت برهة وأردف وهو يضغط على أسنانه « الصبر طيب » ، وعاود اهتزازه مرة ثانية .

وانصرف « جمعه » بعربته ، وبعد برهة نهض الحاج على متباطئا واتجه إلى « سنيه » .. ثم عاد إلى الحانوت وهو يحمل ما يقرب من عشر حزم فجل دفع بها إلى ابنه طالبا منه أن يحملها إلى البيت بعد أن يغلق الحانوت ، وأخبره أنه سينصرف الآن لأن لديه بضعة أعمال لابد من قضائها قبل أن يعود إلى الدار .

وانصرف « الحاج على » ، ولم تكد تمضى على انصرافه بضع دقائق حتى كان « سى على » قد صرف الزبائن وأغلق الحانوت ثم سار إلى « سنية » وقد حمل فى يده لفافة كبيرة دسها فى حجرها وهمس فى أذنها ببضع كلمات فأجابت « حاضر » وبدأ يتحرك مترنح الأعطاف وقد ملأه شعور بالانتصار .

لقد كسبت فطيرته المعركة .. إن « سنية » ستلقاه بعد بضع لحظات .. عند الخرابة المجاورة للأبوة .

ليهب لها « جمعه » كل بلحه ، وليشتر أبوه كل ما لديها من فجل .. فلن يضيره كل ذاك .

لقد كسب الجولة الأخيرة .

ووصل « سى على » إلى الخرابة ، وسار يتحسس طريقه فى الظلمة حتى بلغ حجرا بجوار سورها فاتخذ مجلسه عليه ، ومضت لحظة قبل أن يتغلب على اضطرابه ويتمالك أنفاسه ويعوّد عينيه ظلمة المكان .. ثم أخذ يدور ببصره حوله ، وينصت جيدا .

كانت الخرابة ساكنة موحشة ، لا يسمع فيها غير مواء القطط المتجولة حول أكوام القمامات ، ولا يبدو منها غير بريق أعينها عن بعد عندما تنعكس عليه أضواء مصابيح الحارة .

وكانت الخرابة تحد من ناحية بسور مهدم يطل على الحارة ومن النواحى الثلاث الأخرى بالجدر الخلفية للدور المحيطة بها ، وقد قامت فى الظلمة كأنها أشباح توشك أن تنقض وبدت من خلال نوافذها المطلة على المناور أضواء خافتة شاحبة .

وأحس « على » رهبة شديدة وود لو استطاع الفرار فقد كانت المغامرة شديدة الوطأة على أعصابه ، وكانت طبيعته اللينة الهادئة أجبن من أن تحتمل مثل هذه الخلوة الموحشة .

ولكنه لم يغادر مجلسه ، واستمر يجثم فوق الحجر ، وحاول أن يسرى عن نفسه مشجعا إياها بما ينتظرها من لقاء ممتع ، مستعيدا فى ذهنه منظر « سنية » بسيقانها الممتلئة ، وأفخاذها البضة ، وصدرها المكتنز ، والمنديل أبو أويه معصوب على أحد حاجبيها .

كل هذا سيضحى بين يديه بعد لحظات .

ولكن ماذا يستطيع أن يفعل بها ؟

ألا يخشى أن يضبطه أحد فى الخرابة وهو متلبس معها ؟

لا .. لا .

إن الطريق ساكن ، ولا أحد يفكر فى أن يطرق الخرابة فى هذه الساعة من الليل ، اللهم إلا مخلوقا واحدا ، وهو محروس الزبال .. الذى يأوى فى عشته المبنية من الصفائح فى ركن الخرابة .

ولكن محروس ليس هو المخلوق الوحيد الذى يخشى منه أحد فهو والقطط والكلاب سواء بسواء .

أجل .. إنه حيوان هائم ضال .. معتوه أبله . لا يكاد يحس ولا يبصر ولا يسمع ولا يفهم ، ومن الغباء أن يخشى منه على نفسه .

وهكذا اطمأن « سى على » ، وهدأت نفسه بعض الشيء وبدأ يتصور ماذا يمكن أن يفعله بـ « سنية » فى هذه الخلوة .

يحتضنها ويقبلها ؟

لا .. لا .. ليس هكذا مرة واحدة .

يجب أن يبدأ فى مناجاتها وتدليلها ، وشرح حبه ولوعته .

أتراها ستفهم ؟

لتفهم أو لا تفهم .. إنه يحس برغبة جارفة فى أن يفرغ ما بنفسه .

وبعد ذلك .. ماذا يفعل ؟

يبدأ بالتحسيس عليها .

أجل ! التحسيس .. فلشد ما يحس برغبة جارفة فى مس ذراعها وصدرها و .. و ..

وشيئا آخر يتوق إلى لمسه ، وهو باطن فخذها الذى يلوح له دائما من وراء الزجاج كلما حركت ساقها يمنة أو يسرة .

وبعد ؟!! ماذا يفعل بعد ذلك ؟

يبدأ فى تقبيلها واحتضانها .

ولكن أتراها تسلم له ؟ ولم لا !! ألم يعطها فطيرة .. لم يصنع مثلها لأحد فى حياته ؟

وبعد التقبيل والأحضان ؟!

ينام معها ؟. ولكن أين ؟

إن أرض الخرابة ملأى بالحجارة والزجاج المكسور ، ومن الجنون أن يحاول الرقود على أرضها .

فأين سينامان إذا ؟

ليته أحضر معه سجادة أو حصيرة .

وأخذ يقدح زناد فكره .. عله يجد مكانا يرقدان فيه سويا .

وأخيرا ، وجده .

إنه المأوى الوحيد الذى يستطيع استعماله .

حقيقة إنه لابد وأن يكون بالغا فى القذارة ، ولكن لاشك أن به فراشا ممهدا ، متواريا عن الأعين .

أجل .. ليس أمامه سوى عشة محروس .

إن الرجل يبدو أنه لم يأو بعد إلى عشته ، وحتى لو كان هناك فإنه يستطيع أن

يغمزه بنصف فرنك ليخلي له العشة ، ويقف له حارسا على باب الخرابة .

الحمد لله .. فرجت !

إن عليه أن يسحب « سنية » عندما تحضر ويقودها إلى عشة محروس وهناك يستطيع أن يفعل ما يشاء .

وما دامت العشة تسترها ، فلم لا ينزع عنها ملابسها ؟ »

أجل .. لم لا يجلسها أمامه عارية ملط ؟!.

وأحس بنشوة شديدة ، وبدأ يتصورها أمامه عارية وأخذ يفحص جسدها قطعة قطعة .

صدرها كيف سيبصره ؟ وبطنها ، وظهرها ، وفخذها ، حقا إنها ستكون ليلة حمراء ، ما كان يحلم بها قط .

ترى هل يخلع ملابسه هو أيضا ؟ لا . إنه يخجل فما بدا من قبل عاريا أمام أحد .

ولكن هل هناك مصباح فى العشة ، أو على الأقل شمعة ليبصر عليها محاسن « سنية » ؟

هل يفكر حيوان مثل محروس فى أن يضع فى عشته نورا !. لا يظن !!

على أية حال يجب أن ينهض للأطمئنان ولتجهيز العشة .

ولكن هبها حضرت الآن و لم تجده ؟ لا .. لا .. يجب أن يبقى فى موضعه .. لا يفارقه حتى تحضر .

إنها لابد آتية فى خلال دقائق .. فما يظنها تتأخر أكثر من ذلك .

إنه يسمع وقع أقدام تطرق أرض الحارة .

إنها هى .

أجل .. أجل .. لابد أنها قد أتت .. إنه يستطيع أن يميز وقع أقدامها .

وبعد برهة خيل إليه أنه يلمح فى الظلام شبحا يتحرك فنهض من مجلسه وأخذ يقترب منه رويدا رويدا ، وقد تملكه اضطراب شديد .

ووصل إلى الشبح ، ومد رقبته وحملق فيه جيدا ، ثم ندت منه صرخة دهش ... لقد كان أباه !!

ولم يكن لدى الاثنين فرصة لعتاب ، أو نقاش ، أو عراك ، فقد أبصر شبحا آخر يقترب .

إنه بلاشك سنية !!

ويح الفتاة الخبيثة .. لقد غررت بكليهما ، وأعطتهما موعدا واحدا ، ومنحتهما لقاء مشتركا .. يا للحرج .

ووصل الشبح .. فندت عن الرجلين وعن الشبح صرخة عجب مضاعفة .

لقد كان الشبح هو جمعه !!

ولم ينبس الثلاثة ببنت شفة ..

وغادر كل منهم الخرابة حتى بلا خفى حنين .

***

ولم يكن الثلاثة آخر من شاهدتهم الخرابة تلك الليلة . إذ لم يكد يخلو مسرحها منهم حتى بدت « سنية » بعد أن وثقت من ذهابهم .

وفى ركن من أركان الخرابة جلست « سنية » بجوار « محروس » الزبال ، رب الخرابة وساكنها ، وسلمت له الفطيرة ، والبلح ، وثمن الفجل ، ثم ارتمت فى أحضانه .

وهكذا حواء ، تأخذ من الجميع ، ولكنها لا تهب إلا لمن تحب ، حتى ولو كان زبالا فى خرابة .

ترى ، هل تختلف حواء « حارة السيدة » كثيرا عن حواء الزمالك ، والمعادى ، وجاردن سيتى ؟!!

فى زين العابدين

ما يكاد ينتهي من تأدية الواجب المقدس حتى يبدأ فى جس عضلاته ومراقبتها فى المرآة المشروخة التي نقلها ضمن العفش الذى أحضره من البلد لتأثيث الحجرة التى استأجرها فى زين العابدين منذ أن حضر إلى القاهرة للدراسة الثانوية .

دكش .. ومشكال هما بطلا القصة .. يتقاسمان البطولة فيها ، بالعدل والقسطاس ، ولو أخذنا كلا منهما على حدة ، لوجدنا منه مخلوقا عاديا لا نستطيع أن نخلق منه قصة أو نصنع حدوته ولكنهما على بعضهما يكونان مزيجا طريفا ، ويركبان مخلوطا يمكن أن يصنع منه عشرات القصص .

هما صديقان حميمان لا يكاد يفترق أحدهما عن الآخر لحظة ، يبدوان فى المدرسة كأنهما أخوان ، لا من حيث الشبه ، بل من حيث الوفاء والحب والإخلاص .

أقول « لا من حيث الشبه » بلهجة جازمة أكيدة فليس هناك أدنى شبه بينهما ، لا شكلا ولا موضوعا ، فهما مخلوقان متناقضان كل التناقض ، متباينان كل التباين ، ومع ذلك فقد كان بينهما من الانسجام والتلازم والصداقة ما جعلهما مضرب الأمثال ، وما جعل اسم أحدهما لا ينطق إلا مقرونا بالآخر ، كلوريل وهاردى ، أو مشكاح وريمة .

وكان أول ظهورهما على مسرحِ الحوادث والشهرة ، كطالبين فى سنة

ثالثة أول بمدرسة وادى النيل فى ميدان السيدة وأغلب الظن أن اسميهما الأصليين لم يكونا دكش ومشكال بل كانا اسمين عاديين مما يطلق على بقية خلق الله من التلاميذ مثل « محمد على أحمد » أو « إبراهيم زكى » . أو أى شىء من هذا القبيل . ولكن هذه الأسماء أهملت ونسيت وانقرضت على مر الأيام ، وحل محلها هذان الاسمان اللذان يمثلانهما أصدق تمثيل معنى ومبنى .

ويبدو لى أن من الخير ، قبل البداية فى القصة أن أبدأ بوصف كل منهما بدقة ، وأن أعرضهما عرضا أمينا مفصلا ، بل إنه ليخيل لى أن مجرد عرضهما كما هما ، قد يغنينى عن القصة نفسها ويوفر على مشقة الحبك والتأليف .

لنبدأ بـ « دُكش » بدال مضمومة وكاف ساكنة ؛ فنجده تماما كما توحى إلينا الكلمة جسد ضخم وعنق غليظ ووجه مكلبظ غليظ الشفتين ، أفلج الأسنان ، عريض الأنف ، كثيف الحواجب ، ثخين الجلد ، بادى المسام ، أشعث الشعر ، كبير الرأس فارغه .

أجل ؛ لم يكن هناك شك فى أنه فارغ الرأس ، خاوى الذهن ؛ أو لو فرض أن هناك شيئا فى رأسه ، فقد كان شيئا عاطلا متبلدا ، علاه الصدأ أو أصابه العطب ، و لم يعد هناك أمل فى أن يعاود العمل والتحرك .

وهكذا كان دكش ، بسطة فى الجسد ، وقلة فى الذهن ، بقدر ما أفرطت الطبيعة فى خلق بدنه ، وبخلت عليه فى تكوين عقله .

على أن هذا لم يضره فى شىء بل إنه لم يحس قط بأن فى الحياة ما يستدعى تحريك الذهن ، أو يوجب التفكير ، و لم يحاول مرة واحدة أن يرهق رأسه فى تعليل أمر ، بل كان يأخذ كل الأمور على علاتها ، بلا بحث ولا فحص ، لا يسأل عن سبب ، ولا يستقصى عن علة ، ولا يستبق نتيجة ، ولا يحل لغزا أو يفك عقدة ، بل يمر بالحوادث ، وهو مجرد مشاهد ، مغمض الذهن ، عاطل التفكير .

وهكذا خلت حياته من كل غاية ، و لم تعد له فيها أية رغبة ، إلا رغبة واحدة

هى تنمية ذلك الشىء الذى أغدقته الطبيعة عليه والاستزادة فى تضخيمه وتقويته . لقد أحس أن موهبته فى جسده ؛ فصمم على أن ينمى هذه الموهبة !
كان مؤنسه فى الحياة — غير مشكال — دمبلز ، وجلة حديد ، يقضى الساعات الطوال ، مختليا بهما ، يتبادلهما الواحد بعد الآخر ، ممعنا فى تحريكهما إلى مختلف الاتجاهات ، مئات المرات ، وهو مقطب الوجه عابسه ، كأنما هو مكلف تأدية واجب يتوقف عليه مصير البشر . فلا يكاد ينتهى من تأدية الواجب المقدس حتى يبدأ فى جس عضلاته ، ومراقبتها فى المرآة المشروخة التى نقلها ضمن العفش الذى أحضره من البلد لتأثيث الحجرة التى استأجرها فى « زين العابدين » منذ انتقاله إلى القاهرة للدراسة الثانوية .

ويمر الوقت بصاحبنا وهو يمتع بجس عضلاته واختبار المجانس والترابيس ، وقياس الأفانبرا وتلعيب الأذرع !

ولم تكن حياة « الدكش » لتزيد عن هذا ، نوم وأكل ، ولعب حديد ، وجس عضلات ، وما كانت له بغية قط أكثر من هذا ، بل ما حاول أن يفكر أن فى الحياة شيئا سوى هذا ! وكان قريرا راضيا مستريحا يضحك لأتفه نكتة ولأبسط سب ؛ كان — بالاختصار — جسدا بلا ذهن !

أما مشكال ، فقد كان على النقيض ذهنا بلا جسد ، أو جسدا نحيلا ضئيلا كعدمه .

وكانت تسميته « مشكال » أعرق كثيرا من تسمية « دكش » فقد كان نعتا خلعه عليه أبوه منذ نعومة أظفاره بعد أن أثبت جدارة فى جر الشكل وفى خلق المشاكل .

كان نبيها ، ما فى ذلك شك ؛ ولكن نباهته لم تتجه إلى خير قط ؛ فما حاول أن يستعمل ذكاءه فى صالح له أو لغيره وكان مثلا لإنسان حاضر الذهن ، ولكن فى رد النكتة ، وفى سب الناس والضحك عليهم ومنهم .

كان من يومه إنسانا لا يخجل ، يلقى بالنكتة ولو على نفسه ، أو على أبيه

وأمه ، يلقى بها حتى ولو عرف أنها ستؤدى به إلى التهلكة ، يلقى بها ورزقه — كما يقول — على الله .

ولا يذكر أبوه أنه استراح يوما من مشاكله ، ولا يذكر أنه عاد إلى الدار يوما غير مكسور ولا مبطوح ؛ فإذا عاد سليما ، فلا بد أن يكون قد خلف وراءه مبطوحا أو مكسورا .

لقد بدأ جلائل أعماله الشيطانية وهو ما يزال يحبو على أربع ، عندما سكب — بقصد أو بغير قصد ، الله أعلم — زجاجة الحبر فى عمامة أبيه ، وانتهى أبوه من ارتداء ملابسه ثم خطف العمامة ووضعها فوق رأسه ليغرق فى طوفان من الحبر ، ويظل طول يومه يدعك وجهه حتى سلخ جلده .

ولم يكد ، يشد حيله ، ويقف على ساقيه ، حتى أصابته هواية قذف الحاجات من الشباك على رؤوس المارة ليصيب عصفورين بحجر . فيفقد أهله ما خف وزنه وغلا ثمنه ، وفى نفس الوقت ، يبطح بها رؤوس المارة ، لقد كان آية فى الذكاء .. الذكاء الشيطانى .

ثم بدأ بعد ذلك فى إطلاق سراح حيوانات الدار .. فخرج ذات يوم ممتطيا صهوة ديك رومى — انهمكت أمه فى تسمينه أربعة أشهر ، لأجل ذبحه فى عاشوراء — وظل يتنزه به فى الحوارى ، وفى النهاية عاد من غيره .

وتوالت حوادثه بعد ذلك مع ما تبقى من الحاشية . فوضع مائة كتكوت فى قدرة ، فماتت خنقا ، ثم قذف أوزة من فوق السطوح فدق عنقها .

واستمرت مغامراته مع الدواجن حتى خلا منها السطح .

أما حوادث التوهان فحدث عنها ولا حرج . فله فى كل أسبوع يوم يتسلمه أبوه من قسم السيدة بعد أن تحفى قدماه فى البحث عنه ، وبعد أن تبكيه أمه من كل عين حفان .

وشغف فى إحدى فترات طفولته بإحضار وابور الحريقة وعربات الإسعاف فى حيهم بلا أدنى سبب . فقد كان إذا لم يجد شيئا يتسلى به ينطلق فى الحارة صارخا

مولولا معلنا بأعلى صوته أن حريقا شب فى وابور الطحين .. أو فى العربخانة ، أو أن سقف بيت « الحاج على » سقط ، أو أن « أم أحمد » وقعت من فوق السطوح ، وينطلق معه السذج من أهل الحى فى الصياح والصراخ حتى يتطوع عاقل من بينهم لطلب نجدة المطافئ أو الإسعاف وبعدها يختفى مشكال فلا تقع عليه عين ! .

أبعد كل هذا لا يسمى مشكالا ؟

ولقد بدأت عبقريته تتجلى عندما دخل مدرسة وادى النيل ، وأضحى طالبَ ثانوى ، وخاصة عندما التقى بـ « دكش » وبدأت أواصر الصداقة تتوثق بينهما .

كان مشكال دائم التورط فى المعارك ، لا تفتأ شقاوته تلقى به بين آن وآخر فى الخناقات ، ورغم أنه كان كثيرا ما يستطيع التغلب على خصومه بالتهديد والغلبة فقد كان من مزاياه أنه أكبر غلباوى عرفه شارع زين العابدين ومدرسة وادى النيل — إلا أنه فى بعض الأحيان تخذله الغلبة ، ولا تخدع خصومه .. فينتهى به الأمر إلى الدخول فعلا فى معركة .. فتكون النتيجة وبالا عليه .

وعلى هذا فقد وجد « مشكال » فى « دكش » أكبر عون له ، عون قوى مطواع فى جسده سطوة ، وفى ذهنه كلال . يستطيع أن يستعين به إذا ما أزفت الآزفة . ولم يفد فى رد غائلة الخصوم ذكاء ولا نبوغ ، وعندما تضحى الغلبة للقوة عندئذ يصبح استعمال « الدكش » مستحبا ومفيدا .

كان « دكش » بالنسبة لـ « مشكال » كأنه شومة ، تطيح برأس الخصوم دون أن تسأل عن السبب .

ومتى كان « دكش » يسأل عن السبب ، أى سبب لأى شىء ؟

كان يكفى أن يذهب مشكال ليقول لدكش ببساطة :

— دكش .

— فيه إيه ؟.

ــ النهارده حانضرب تالته رابع .

كان يكفى أن يدور بينهما هذا الحديث ، حتى ينتهى اليوم بضرب ثالثة رابع ــ أو على التحديد فتوات ثالثة رابع ــ علقة تظل المدرسة تتحدث بها طول العام .

لم يكن « دكش » يناقش « مشكالا » قط ، ولا كان يسأله لم يريد ضرب ثالثة رابع بالذات وماذا فعلوا به ، وماذا يريد منهم ، وما فائدته هو ؟. لم يكن يخطر بباله قط أن يسأل عن هذا . فقد كان فى ذلك إجهاد لذهنه وإرهاق لتفكيره . لقد كان أسهل عليه جدا ، أن يذهب لضرب ثالثة رابع .. ثم يرفت بعد ذلك أسبوعا ، من أن يرهق ذهنه فى البحث عن الإجابة عن كل هذه الأسئلة .

تلك كانت الفائدة التى يجنبها مشكال من دكش .

ترى ماذا كانت فائدة دكش من مشكال .؟

كان له فيه فوائد جمة ، أولها تلك الخناقات التى كان يسوقها إليه ، جاهزة ، ناضجة ، دون أن يتعب فى خلقها ، أو تحضيرها ، بل يندب فيها ، ليجرب فيها قوته ويمرن عضلاته .

كان دكش قويا ، وكان يحب الخناق ، ولكنه كان أجهل وأكسل من أن يثيره .. لقد كان أعجز من أن يخلق عداوة أو يتسبب فى معركة ، فكان يسره أن مشكالا يقدم هذا إليه بلا تعب ولا جهد .

أما الفائدة الثانية ، فسلامته من لسان مشكال ، واتقاؤه لقلة أدبه وسفالته ، وتشنيعه ، وضمانة لاحترامه بين الزملاء ، فلم يكن هناك أقدر من مشكال على إضاعة المركز والتهزيء .

أما الفائدة الثالثة ، فالضحك والتسلية التى كان يجنبها من وراء مشكال ؛ فقد كان مشكال ابن نكتة ، وكان دكش من ذوى الفشش العائمة الذين يضحكون لأقل سبب .

وهكذا توطدت الصداقة بين الطرفين ، واستمر مشكال يخلق المشاكل ، ودكش يتلقى مصائبها .

حدث أن تراءى لمشكال أن يعبث بمدرس العربية ، فربط جرسا صغيرا فى فتلة زر الطربوش من الداخل بحيث أضحى الجرس مختفيا داخل الطربوش ، وبحيث كانت أقل هزة من رأس مشكال كافية لرن الجرس .

وبدأ الشيج عجة (كما كانوا يطلقون عليه بلا أى سبب) شرحه للحال والبدل ، وبدأ مشكال يهز رأسه إعجابا بشرح الشيخ .. ويلتفت الشيخ محنقا إلى التلاميذ ، ويصيح مهددا :

ـــ انت يا واد انت ياللى بترن الجرس .. اسكت أحسن لك .

ويهز مشكال رأسه متأسفا على سفالة التلاميذ الذين يحاولون إضاعة الدرس وحرمانه من الفائدة التى سيجنيها من شرح الشيخ عجة ، وفى كل هزة أسف رنة جرس .

ويصيح الشيخ عنجة :

ـــ يا واد اسكت أحسن لك .

ويستمر مشكال فى هزة رأسه آسفا على عناد التلاميذ .

وينفجر الشيخ عجة :

ـــ انت يا واد يا مشكال ، قوم اقف ، مفيش حد يعمل أمور السفالة والشيطنة دى غيرك !.

وينفعل مشكال ويقف غاضبا ثم يفرد يديه أمامه حتى يرى الشيخ عجة أنهما فارغتان وأنه ليس بهما جرس ، ويقول الشيخ عجة فى لهجة المعتذر :

ـــ مش انت اللى بترن الجرس !

ولا يجيب مشكال بلسانه بل إنه يهز رأسه بشدة نافيا التهمة ، فينطلق رنين الجرس .

ويدهش الشيخ عجة ، ويتلفت بين التلاميذ باحثا ، ويقع بصره على دكش

وهو يبتسم فى بلاهة فيندفع فيه صارخا :

ــ مافيش غيرك انت يا حيوان يا حلوف ، اطلع بره أنا لازم اوريك .

ويخرج دكش ببساطة وفى سكون ، دون أن يناقش ، ودون أن يسأله عن السبب ، ليس هناك أى داع للتعب ، إن الخروج أكثر راحة .

واستمرت العلاقة بينهما .. يحصد الدكش ما يزرع مشكال ، حتى حل عام دراسى جديد والتقى الاثنان فى المندرة التى يقطن فيها دكش ، قبل الذهاب إلى المدرسة .

ووقف دكش يقوم بتمرينات الجلة التى تعود أن يقوم بها ، وهتف به مشكال فجأة وهو منهمك فى التمرين :

ــ وله يا دكش .. انت دفعت المصاريف ؟

ــ لسه .

ــ معاك كام ؟

ــ معايا عشره جنيه جايبهم من البلد .

ــ كويسين ، وأنا معايا خمسه يبقوا خمستاشر .

ــ وجمعتهم ليه ؟

ــ قلت لى ليه ، ادينى عقلك كويس ، حاكم انت غبى ما بتفهمش.. من أول مرة .

ــ قول .

ــ انت عجباك المدرسة ؟

ــ أبدا .

ــ يعنى مهم أوى انك تروح وتتعلم ؟

ــ أبدا . أبدا .

ــ خلاص .. فرجت .

ــ يعنى إيه ؟

ــ يعنى مش حانروح المدرسة .

ــ أمال حانعمل إيه ؟

ــ حانفتح قهوة .

ــ قهوة ؟. احنا نفتح قهوة ؟

ــ صعب ؟. فيها إيه دى . المعلم دقدق صاحب القهوة اللى ع ناصية درب البهلوان بيفلس وعاوز يبيع قهوته ، نديله الخمستاشر جنيه ، ونشترى منه القهوة ، مش احسن من المدرسة ؟

ــ ودى يلزمها إيه ؟

ــ ولا حاجه أبدا . إيدك على العشره جنيه ، وخلى الباقى على الله وعلى .

ولم يمض اليوم حتى كانا قد ابتاعا قهوة دقدق ورفعا اللافتة القديمة ووضعا مكانها لافتة جديدة كتب عليها « قهوة الأبطال لصاحبيها دكش ومشكال » .

ومرت الأيام وقد طلقا الدراسة والمدرسة ، واتخذا مكانهما فى القهوة : مشكال على الكيس ، ودكش يطوف بالزبائن .

واستمر مشكال يخرج من البيت صباحا على أنه ذاهب للمدرسة ثم يقضى طيلة يومه فى القهوة ويعود آخر النهار إلى البيت حتى علم أبوه فحلت الكارثة .

وضرب مشكال ضربا مبرحا وهدده أبوه بالطرد من البيت إن لم يرتدع ويعود إلى المدرسة .

وهكذا عاد مشكال وحده إلى المدرسة ، وكانت هذه المرة مدرسة الإسماعيلية حيث خجل أن يعود إلى وادى النيل تلميذا حقيرا .. بعد أن عرف الجميع أنه قد أصبح صاحب مقهى على سن ورمح .

وبقي دكش فى القهوة وحيدا . واستمر مشكال فى مشاكله بالمدرسة دون أن يتحمل أحد عنه العبء ، حتى كان ذات يوم طرده ناظر المدرسة ، وأنبأه بألا يعود إلا ومعه ولى أمره .

وسقط فى يد مشكال .. فقد كان من العسير عليه أن ينبىء أباه بأنه قد أثار مشاكل جديدة .. وأنهم لن يقبلوه إلا إذا ذهب معه .

وفكر مشكال برهة .. ثم خطر بباله فكرة .. وجد فيها خير حل لمشكلته .

إن دكش هو الذى يستطيع إنقاذه .. كما تعود إنقاذه دائما .. وذهب مشكال إلى دكش فى القهوة فى زين العابدين .. ورحب به دكش أيما ترحيب .. وصمت مشكال برهة ، ثم قال :

— دكش ..

— فيه إيه .. ؟

— عايزك تعمل ولى أمرى .

واستعصى على دكش فهم المسألة ، وبدا كأنه يريد أن يسأل عن السبب .. ولكنه .. لم يجد مبررا لإجهاد ذهنه فى التفكير أو السؤال .. ونهض لتوه مصطحبا مشكال .

وذهب مشكال إلى المدرسة وفى صحبته دكش .. وكان مشكال يحس أن المسألة فرجت .. فليس على دكش إلا أن يستمع لشكوى الناظر ، ثم ينصرف بسلام .

ودلف من باب المدرسة ، بعد أن أنبأ مشكال البواب بأن خاله يريد الدخول إلى البيه الناظر .

ودخل مشكال ودكش حجرة الناظر ، وقد بدا على مشكال الذل والمسكنة .. وسار وراء دكش الطويل الجسد العريض الأكتاف المنتفخ الأوداج .

وسلم دكش على الناظر وألقى عليه الناظر نظرة فاحصة متشككة وسأله :

— حضرتك ولى أمر الطالب ده ؟

— أيوه .. أنا خاله ..

وفكر الناظر برهة ، ثم هز رأسه فى أسف وقال :

— الولد ده سافل ومش متربى ...

ولم يجب دكش أو لم يعرف كيف يجيب ، ولم يرد أن يتعب نفسه فى التفكير والإجابة .

واستمر الناظر فى قوله :

ـــ أنا مش ممكن اقبله إلا إذا رقعته علقه بنفسك دلوقت علشان يتربى ، وعلشان يحرم .

وأحس مشكال بقشعريرة تسرى فى جسده ، ونظر إلى دكش نظرة استعطاف .

وتنهد دكش تنهيدة راحة فقد أحس كأنه كان يجتاز امتحانا عسيرا .. وأنه قد وجد فى الامتحان السؤال الذى يستطيع الإجابة عليه .

الحمد لله .. إن البيه الناظر لم يطلب منه أمرا عسيرا .. الحمد لله إنه لم يطلب منه أمرا يستدعى التفكير .

إن كل ما يطلب منه .. هو ضرب مشكال علقة .. لا .. بسيطة .. وهل هناك أبسط من ضرب مشكال .

وبلا أقل تفكير .. مد دكش يده .. فقبض على عنق مشكال .. وطرحه أرضا ...

وعينك ما تشوف الا النور !

لقد لهف مشكال علقة لم يذق مثلها فى حياته قط !

لقد كان دكش يضرب بمنتهى الإخلاص .. أولا لأنه يعرف أن مستقبل صاحبه يتوقف على هذه العلقة .. وثانيا لأنه أمضى خمس سنوات يضرب الناس من أجل مشكال .. أما فى هذه المرة فقد استطاع أن يضرب مشكال نفسه .. من أجل مشكال .

وعلا صراخ مشكال وهو يعوى كالكلب ، ويستغيث بحضرة الناظر .. ولم يتخلص من بين براثنه .. إلا بعد أن تعاون خمسة من الفراشين على أن يحولوا بينه وبين دكش .

ومنذ ذلك اليوم ، استقام مشكال ، وانصلح أمره ، ولم يحاول قط أن يستعين بدكش فى حل أمر من أموره .. قائلا : « عدو عاقل .. خير من صديق جاهل » .؟

فى الخليج المصرى

كان التنظيم فى هذه المرة هو سبب كارثة « عم شلاطة » ، فقد تقرر توسيع شارع الخليج المصرى ووصله بدرب الجماميز بهدم ما بينهما من دور .. وكان بيت العنتيل أحد هذه البيوت .

أعرفه منذ خمسة وعشرين عاما .. عندما كان يطوف بشارع السيدة وأزقتها .. دافعا أمامه عربته الصغيرة المحملة بالقباقيب .

وهكذا كان عمله فى ماضيه المجيد : بائع قباقيب متجول . وكان دائما ينتهى به المطاف إلى حجر بجوار « بيت العنتيل » بشارع الخليج ، حيث يستقر على الحجر ويأخذ فى إصلاح القباقيب ودق السيور .

ولست أدرى ما الذى دعا الرجل إلى أن يهجر مهنته المحترمة ، وهو الفنان الملهم ، الذى طالما تفنن فى صنع القباقيب ، وتركيب الجلاجل الملونة .. ورسم النقوش وحفرها .. والسمو بصناعة القباقيب إلى مستوى رفيع .

كل ما أعرفه هو أننا فوجئنا ذات يوم بـ « عم شلاطه » ، وقد تربع على دكة خشبية أمام بوابة « بيت العنتيل » وهو يحتسى القهوة من وعاء صنع من قشرة جوز الهند ، وأخذ يسبل عينيه فى كل رشفة وقد بدت عليه أبلغ آيات الهناء .

ولم نعلم بجلية الأمر إلا عندما وقفت أمامه « سيدة العرجاء » الخادمة تسأله أن يصلح قبقابها ، فرفع كتفيه وقلب شفتيه وأجابها بترفع وكبرياء :

ــ كان زمان وجبر .

ـــ ليه بقى ؟ حطوا على راسك ريشه ؟

ـــ خلاص يا ستى .. ربنا تاب علينا من القباقيب .. وأصحاب القباقيب .. بقينا من كبار الموظفين .

ـــ موظفين مين يا ادلعدى ؟ انت نسيت « القباقيب العمولة القباقيب » ؟

ـــ نسيتهم قوى ، أنا بقيت الحارس العام على أبواب بيت العنتيل .. رجل ذو مركز .. وذو دكة أتربع عليها وأنام وأشخر .. مالى أنا ومال اللف فى الحوارى ونبح الصوت ومناكفة الزبائن « يا عم شلاطه صلح لى السير ده » ، « يا عم شلاطه ادينى فرده » .. دول زبائن آخر زمن .. الله يرحم زمان .. أيام ما كانت الدنيا دنيا .. كنت ادور على ميضة السيدة ألم القباقيب اللى فيها ، واخدهم وش بالفارة ووش بالصنفرة وتانى يوم أبيعهم على أنهم جداد .. دلوقت خلاص بطلوا القباقيب ، ما بقاش غير البراطيش .. الحمد لله ربنا تاب علينا .

وهكذا علمنا أن « عم شلاطه » قد طلق صنعته ثلاثا ، وانتهى به الأمر إلى أن يعمل بوابا .. أو على حد قوله أصبح حارسا عاما لأبواب بيت العنتيل .

وبيت العنتيل هو أكبر بيوت الحى ، وأكثرها رحابة ، وأعرقها نسبا .. بيت من البيوت القديمة الضخمة ، ذات العمد والمشربيات والسراديب ، التى تحاط بهالة من الغموض والأسرار .. ويأبى المرجفون إلا أن يجعلوها مأوى للجن والعفاريت .

واستقر المقام بـ « عم شلاطه » فى البيت المسكون فى مندرة بالدور السفلى .. فقد كان البيت خاليا من السكان .. إذ رحل عنه آخر سكانه من أهل العنتيل لتشاؤمهم من البيت بعد توالى النكبات عليهم .. ووكلوا أمره إلى « عم شلاطه » معلنين عن رغبتهم فى إيجاره .

ومرت السنون دون أن يتقدم إلى البيت مستأجر .. و « عم شلاطه » قابع فى مندرته بالبيت .. ويبدو أن الرجل قد استمرأ المرعى واستخصب المرتع .. فقد أخذ يمعن فى ترويج الشائعات عن الجن الذى يسكن البيت .. ويروى عنهم

الأقاصيص المحبوكة الأطراف .. الجيدة السبك .

وهكذا تعاقبت الأعوام على البيت الخرب .. وهو مستمر فى خرابه ، لا يسكنه سوى عم شلاطه وأصحابه من الجن ، و لم يعد هناك أمل لأصحابه فى بيعه أو إيجاره أو سكناه .. وانتهى به الأمر إلى أن أضحى وقفا على عم شلاطه ، وبات كل منهما جزءا متمما للآخر .

ولقد وشك البيت ذات مرة أن يباع .. وكان مشتريه رجلا مثريا رغب فى ابتياعه لهدمه والانتفاع بأرضه ، لكى يشيد عليها عمارة كبيرة .. ولكن الرجل مات فى اليوم الذى كان ينوى أن يكتب العقد فيه .. وبقى البيت كما هو ، و لم يعد هناك أمل بعد هذا فى أن يقدم أحد على شرائه أو سكناه أو حتى الاقتراب منه .

وأصبح البيت محصنا ضد الدخلاء من سكان ومشترين ، و لم يعد أحد من أهل الحى يتصور قط أن هناك قوة تستطيع أن تبدل حال البيت أو تبعد عنه عم شلاطه .. حتى جاء يوم خيب ظننا جميعا ، وعلمنا أن البيت قد حلت نهايته .

كان التنظيم فى هذه المرة هو سبب كارثة عم شلاطه .. فقد تقرر توسيع شارع الخليج ووصله بدرب الجماميز بهدم ما بينهما من دور ، وكان بيت العنتيل أحد هذه البيوت .

و لم تستطع شائعات الجن أن توقف فعل التنظيم ، و لم تجد محاولات عم شلاطه فى منع الهدم نفعا .. وطلع علينا الصباح ذات يوم فإذا بالمعاول تقوم بواجبها فى إزالة بيت العنتيل ، الطويل العمر العريق النسب ، من على وجه الأرض ، وبعد أيام أضحى البيت الكبير أطلالا وأنقاضا ، وأضحى عم شلاطه على قارعة الطريق بلا مأوى ولا عمل .

و لم يحاول الرجل أن يعود مرة أخرى إلى صناعة القباقيب ، بعد أن تقدم به العمر ، فبات من العسير عليه أن يجول بعربته بين الأزقة والحارات ، كما كان يفعل فيما مضى .

وانتهى الأمر بصاحبنا إلى أن يستقر فى بقعة من الأرض الفضاء مكان البيت

المهدوم ، ويصنع لنفسه كوخا صغيرا وصندوقا لبيع الكازوزة من خشب الأنقاض .. واتخذ من الكوخ مأوى ومن صندوق الكازوزة متجرا .

ولم يحاول أحد أن يحرم الرجل مأواه ، أو يمنعه من الاستقرار حيث شاء .. فقد كان مخلوقا حلو الفكاهة .. لطيف المعشر .. ولقد جعله هدم البيت ، وبقاؤه بلا مأوى موضع عطف أهل الحى فأقبلوا على مساعدته .. وعرض عليه البعض إيواءه أو تشغيله ، ولكنه أبى أن يهجر موطنه .

وكثيرا ما كان يحلو لى أن أمر بالرجل وأقف عنده برهة لأتناول منه زجاجة كازوزة ، وأتحدث معه قليلا وأسمع منه آخر الأنباء والأقاصيص .

وذات يوم مررت به ، فإذا به قد جلس على حجر أمام الصندوق ، وانهمك فى نشر قطع خشبية ومسحها بالفارة .

وقلت متسائلا :

— دا إيه ده يا عم شلاطه ؟

— قبقاب .

— يموت الزمار وصباعه بيلعب .. برضك ما تسلاش القباقيب .

— أعمل إيه ؟ مجبور يا سيدى .. الله يلعن أبو اللى كان السبب .

وحاولت أن أسأله عن (اللى كان السبب) ولكنه هز رأسه وقلب شفتيه .

وفى اليوم التالى وجدته ما زال يدق بالقبقاب فسألته :

— لسه ماخلصتش ؟

— أعمل إيه لبنت الأروبة .. عايزاه بجلاجل .

وأغرقت فى الضحك .. وبدا لى أن عم شلاطه قد وقع فى غرام جديد .. وأخذت أرقبه وقد اختفى رأسه بين كتفيه واحدودب ظهره ، وأخذ يخرج المسامير من فمه واحدا بعد واحد فيدقها فى القبقاب .. وسألته ضاحكا :

— بتحب يا عم شلاطه ؟

— يا ريت .. يعنى هو أنا كبير على الحب والا وحش ؟

ـــ أستغفر الله !

و لم يثر عجبنا كثيرا أن يعود الرجل لصناعة قبقاب أو عمل جلاجل لسبب أو لغيره ، ولكن الذى أثار عجبنا حقا هو أن يستمر فى الدق ، والطرق ، وتحويل الأخشاب من كوم الأنقاض وقطعها ومسحها ، و لم يكن هناك شك فى أنه لا يصنع منها قباقيب ، فقد كان يقطعها ألواحا طويلة عريضة .

وبدأ سكان الدور المحيطة يشكون من الضجة التى يثيرها الرجل أثناء الليل .. وحاول بعضهم نصحه بالكف عن الطرقات التى يحدثها ، ولكنه لم يرتدع .. فقد كان يواصل الليل بالنهار فى عمل ذلك الشيء المجهول الذى أخذ فى صنعه .

وحيرنى ذلك الشيء ، وظننته فى بادئ الأمر أثاثا ينوى الرجل صنعه لكوخه ، ولكنى لم أستطع أن أجزم أى نوع يصنع ، وخاصة أن كوخ الرجل المتواضع لا يكاد يحتمل فى داخله أى أثاث مهما ضؤل .

وأخيرا وضح الأمر .. واستطعنا أن نعرف كنه ذلك الشيء الذى انهمك عم شلاطه فى صنعه ، والذى ركز فيه جهده ، وضيع فيه وقته .. ولقد كان حقا شيئا عجيبا .

كان ذلك الشيء هو آخر ما يخطر ببال إنسان ، وآخر ما يمكن أن يفيد منه الرجل ، أو ينتفع منه بشيء .. اللهم إلا إذا كان ينوى بيعه .. وهو ما لم يفعله .

لقد كان يصنع سلما .. وعندما أقول سلما ، لا أعنى بالطبع هذا السلم الخشبى المتحرك المكون من عرقين طويلين مثبتين بقطع مستعرضة كالذى يستعملونه فى الحوانيت وفى البيوت ، بل أعنى سلما خشبيا عريضا ثابتا متينا ، ذا درجات ودرابزين متقن الصنع ، مما يستعمل عادة فى الدور الكبيرة ولقد أثبت عم شلاطه فى صنعه أنه نجار ماهر .

أجل .. هذا هو ما كان الرجل منهمكا فى صنعه ، وهذا هو ما بدأ فى تركيبه .

أين ؟ .. على الأرض بجوار كوخه ، ملاصقا له .

لم ؟ ولمن ؟ من يدرى ؟

لقد أخذ « عم شلاطه » فى تركيب السلم ، مبتدئا من الأرض ، ومنتهيا إلى مكان ما فى الهواء .

لقد كان السلم ينتهى إلى لا شىء ، أو إلى السماء .

ودهشنا جميعا ، ولم يعد هناك من حديث لأهل الحى سوى سلم عم شلاطه ، وقال بعضهم إن شلاطه صنع السلم للصعود إلى الله ، وقال البعض الآخر إنه يصعد فيه ليشم الهواء أو للزحلقة على الدرابزين .

وهكذا أصبح السلم موضع النكات ، وأضحى الزوار يتوافدون عليه من الأحياء المجاورة ، من السيدة والحلمية وعابدين .

ولم يحاول عم شلاطة أن يحدث عنه أحدا .. بل كان يجلس أمام صندوق الكازوزة يرقب الناس فى صمت وكأن الأمر لا يعنيه .

وأخذت أتحرق شوقا إلى معرفة سر السلم ، وأحاول أن أستدرجه إلى الحديث عنه ، ولكنه كان يمعن فى صدى ، حتى مررت به ذات غسق فى يوم صيف ركدت ريحه واشتد حره ، وجلست بجواره أسامره كما تعودت ، وكنا وحيدين ، وقد خفت حركة المارة وخيم الصمت ، وران السكون ووجدتها فرصة لإعادة الكرة علىّ أفوز منه بما يطفىء غلتى .

قلت له :

— برضك يا عم شلاطة مش عايز تقول إيه حكاية السلم ؟!

— يا أخى أنا مش فاهم السلم دا تاعبكم فى إيه ؟ انتو شايلينه على اكتافكم ؟ واحد شايل دقنه والتانى تعبان ليه ؟

— بس عايزين نعرف يوصل لفين ؟

— ليه ؟ أنا قلت لحد منكم تعال اطلع عليه ؟

— لا . بس فايدته إيه ؟ معمول ليه ؟

ورأيت الرجل قد أطرق برأسه ، وساد الصمت برهة ثم رفع إلى عينيه وقال فى صوت متئد كأنما يوشك أن يفضى إلىّ بسر خطير :

ــ عايز تعرف عملت السلم ليه ؟

وأجبته بمنتهى اللهفة :

ــ طبعا ؟

وبدأ الرجل يقص قصته ، والرجل كما قلت محدث ماهر وقصاص ممتاز .

ولا أظن لدى الفراغ من الورق الذى يسمح بسرد قصته كما رواها . فإذا صرفنا النظر عن التفاصيل والتحابيش فإننى أستطيع أن ألخص القصة فى أن بيت العنتيل كانت تسكنه جنية تدعى سوسو العنتيل ، وهى زوجة المرحوم الطيب الذكر السيد شندى العنتيل .

وسوسو هذه كانت فى حياتها امرأة لعوبا .. مفرطة الجمال فياضة الأنوثة ، عاهرة فاجرة ، وقد أذاقت زوجها الأمرين ، وانتهى به الأمر إلى أن ضبط أحد عشاقها معها فى مخدعها ، ولكنها استطاعت أن تهربه من النافذة ، وحاولت أن تفر هى الأخرى ، ولكن زوجها لحق بها وأخذت تعدو منه فى أنحاء الدار حتى لحقها قرب الباب فأمسك بها ورفعها بين يديه وقذفها من أعلى السلم فهوت إلى بير السلم ودق عنقها ، و لم يكتف الرجل بهذا بل لحق بها إلى أسفل السلم وأمسك بعنقها وجزه بسكين فى يده .

ويهز عم شلاطه رأسه ويتمم قصته فى صوت مؤثر :

ــ وكانت الدنيا ضلمة ، والوقت نص الليل ، والهوا بيصفر ، وهبت الريح ففتحت درفة الشباك اللى على السلم ، وطلع القمر من بين السحاب فوقع نوره من الشباك على القاتل فى يده السكينة والجثة وهى كوم من اللحم غارق فى بحر من الدم .

و لم أستطع أن أكتم ضحكة انطلقت منى وقلت ساخرا :

ــ دى قديمه دى يا عم شلاطه . ما هى دى الحكايه اللى طول عمرنا بنسمعها عن العفريته اللى فى بيت العنتيل !

وأطرق عم شلاطه برأسه ثم قال فى صوت خفيض :

ــ حقيقى دى الحكاية اللى انتو عارفينها . لكن ماتعرفوش بعد كده حصل إيه !

ــ حصل إيه ؟

ــ أنا قعدت عشرين سنة فى بيت العنتيل ، كل شهر فى نفس الميعاد لما البدر يبقى فى تمامه أشوف العفريته وهى بتسقط من فوق السلم ، وبعدين تقول لى أنا فى عرضك خلص علي .. فأجيب السكينة وأروح مخلص عليها لغاية ما اتهد البيت وافتكرت خلاص أنها راحت .

وحمدت ربنا اللى ريحنى من تعب القلب ومن البلاوى اللى كنت باشوفها ، وقلت استريح من الدبح شويه واقضى بقية العمر مستريح بعد تعب عشرين سنة .. هى كانت حاجه بالساهل ؟ ده كان دبح ، وأنا راجل طول عمرى مصلى ومستقيم ، حقيقى البنت تستاهل الدبح ، وحقيقى أنها كانت ــ على رأى من قال ــ عفريته ، لكن أهو برضه دبح ، وسكينه بتحز فى رقبة ودم بيسيل ، وحكاية مالهاش آخر ، ماتنتهيش أبدا ، كل شهر عمال على بطال ، وأنا قلبى برضه ضعيف ، أصل البنت بينى وبينك كانت بنت ملعب ، وكان القمر يطلع عليها من الشباك وهى راقدة بقميص النوم تحت السلم ، حاجه تهبل ، جتة إيه ، وصدر إيه ، وبطن إيه ، ووراك إيه ، تقولش مهلبيه ، والا بلوظه ، حاجه كده طريه وناعمه وزى القشطه ، تتشفط وتتلهط ، دى كان عليها جوز درعَه زى كيزان العسل ، والا وسطها ، ياهوه ، تقول ملبن والا خص ، وعنيها يا خويه عليها غمزه تسطل فشر الحشيش ، المقصود ، اللهم اخزيك يا شيطان كانت بنت ملعب قوى ، وكانت أول ماتشوفنى تروح غمزه بعينها ومصرخه بدلع وتقول :

ــ عم شلاطه .

ــ عايزه إيه من عم شلاطه .

ــ خلص عليّ يا عم شلاطه .

ــ يا شيخه كفايه دبح بقى .

— اقصف رقبتي يا عم شلاطه .

— يا ستي ماتسيبينا بقى من الشغله دى .

— يوه .

وانا أصلي رقيق ما استحملش صراخ النسوان .. فكنت اروح ماسك السكينه وجازرها ، وعلى كده كتير ؟! عشرين سنه .

وما صدقت البيت اتهد وقلت استريح وأستكن فى العشة وصندوق الكازوزة وربنا يتوب على من الدبح والتقتيل .

وفات يومين والتالت وأنا مستريح فى العشه ، وفى اليوم الرابع صحيت فى نص الليل على صوت عجيب زى ما تكون حاجه بتتهد ، وبصيت لقيت شباك العشه مفتوح ونور القمر طالل منه . أتابينا فى نص الشهر . اتلفت حواليه مالقيتش حاجه ، رحت نايم تانى ، ولكن بعد شويه سمعت نفس الصوت بس على شويه وبقى حاجه زى النهنهة .

أقول لك الحق اتخضيت ، رحت قاعد نص قعده وصارخ بأعلى صوت :

— مين هناك ؟

فرد على صوت حريمى نواعمى :

— يوه .. ينيلك يا عم شلاطه ؟ مالك بتصرخ كده ليه زى المجانين ؟ خضيتني وسيبت ركبى ؟ . أنا سوسو .

— رجعت تانى ؟!! هو ربنا ماتابش علينا منك ؟

— اخص عليك يا عم شلاطه .. هو انت زهئت منى .

— أبدا زهئت ازاى .. هى دى حاجه تزهق ؟!!

— اخص عليك يا خاين .

— ليه بس يا ستى . خاين ليه ؟

— عشان نسيت اللى بتعمله كل مره .

— آه .. مش يعنى اخلص عليكى . حاضر من عنيه .

ــ لأ .. المره دى حاجه تانيه .

وبصيت لجتتها لقيتها مسلطحه على الأرض ، وكل فخد وفخذ فشر البلوظه .

حاجه تانيه ايه ياخويا ؟ اللهم اخزيك يا شيطان ، أنا رجل مؤمن ومصلى وماحبش المسخره .. شخطت فيها وقلت لها :

ــ حاجه تانيه إيه يا بت ؟

ــ يعني مانتش عارف ؟

ــ اللى انا عارفه أنك بنت خباصه وهلاسه وتستاهلى قصف رقبتك .

ــ ما هو دا اللى أنا عايزاه .

ــ عايزه ايه ؟!!

ــ قصف رقبتى .

ــ طب وانا مالى ماتقصفيها .

ــ أقصفها ازاى من غير سلم .. بعد ما تهدوا البيت وتكسروا السلم وتسيبونى كده محتاره مش لاقيه حاجه أنزل ارف من عليها تتقصف رقبتى .. هو دا برضه كان يصح ؟

ــ يا ستى وانا مالى .. ذنبى إيه أنا .. التنظيم هو اللى هد البيت .. أعمل لهم إيه ؟

ــ تنظيم مش تنظيم أنا ماليش دعوه .. أهو تطلع تنزل تجيب لى سلم من تحت طقاطيق الأرض .. ذنبى فى رقبتك .. انت المسؤول .

وفضلت تنهنه وتعيط وتلالى :

ــ أنا عايزه سلم ، وأنا عايزه سلم ، وأنا مالى هاتولى سلم .

ــ يا ستى اسكتى .. خلينى اتخمد .

مافيش فايده راسها وألف سيف إلا عايزه سلم تقصف بيه رقبتها .

تفتكر بعد كده اقدر ما اعملش السلم ؟

عرفت بأه ليه عملت السلم ؟ .. استريحت ؟

***

وتذكرت فجأة أن اليوم هو منتصف الشهر العربى . أى اكتمال البدر ، وأحسست برغمى برجفة تسرى فى جسدى ولكنى سرعان ما ضحكت من نفسى . إن كل ما يرويه الرجل لاشك خرافات مخبول .

وتلفت حولى أرقب السلم وأخذت أتصور وضع البيت قبل أن يهدم فلم أشك أن السلم الجديد وضع بالضبط مكان السلم القديم .

ونظرت أسفل السلم .. فإذا بى أرى آثار دماء داكنة متجمدة !!

وأحسست بركبتى ترتجف ووجدتنى أزدرد ريقى بصعوبة ونهضت من مكانى وودعت الرجل فى عجلة قبل أن ينتصف الليل .

ـــ أجل .. إن منظر الدماء قد قطع عندى كل شك ، وعدت إلى الدار وقضيت ليلة لا أراكم الله مثلها .. كلها أحلام بالجن والقتلى ، والمذبوحين ...

وفى الصباح مررت بعم شلاطه من بعيد فوجدته منهمكا فى ذبح بعض دجاجات حملتها إليه إحدى خادمات الدور المجاورة ، ووجدت الفراخ تتخبط فى دمائها أسفل السلم .

لعنة الله على .. كان يجب أن أذكر أن ذبح الدواجن كان ضمن الخدمات التى يؤديها عم شلاطه لأهل الحى .. حتى لا أفزع كل هذا الفزع من منظر الدماء المتجمدة فى أسفل السلم وأصدق خرافات الرجل .

فى الناصـرية

هنا مستوقد الناصرية .. خرابة متربة .. ذات هضاب ووهاد .. وسراديب وجحور .. وأرض ليست فيها قطعة مستوية ممهدة .. فهى أشبه بنموذج مصغر لجبل مقفر .. يقوم بين أطلال بائدة ورسوم حائلة .

جولتنا فى هذه القصة بمستوقد الناصرية !

ألا تعرفونه ؟!

ألم يسبق لكم الذهاب إليه ؟!

ولكنكم لاشك تعرفون ــ على الأقل ــ ما هو المستوقد .. ذلك الشيء الذى يضرب به المثل فى القذارة ، وهو بمعنى أوضح المستقر الأخير لزبالتكم وقاذوراتكم ونفاياتكم .

إنه مجمع الزبالين .. أو جهنم الحمراء فى أرضنا السعيدة .. أو ــ بتعبير أقل تواضعا ــ الفرن الذى تحرق فيه الزبالة .

والمستوقد عادة .. لا يقتصر على مجرد حرق الزبالة .. بل إن له فى بلدنا هذا منافع جمة .. يحصل عليها من الحرارة الناتجة من عملية الحريق .. أهمها : إنضاج قدور الفول المدمس ، وتسخين المياه لحمامات السوق ، واستعمال التراب المحروق الذى يسمى « قصرمل » فى عمل مونة للبناء .

وهكذا نستطيع أن نستنتج دون حاجة منا إلى إجهاد أذهاننا أنه فى كل مستوقد .. معمل فول .. وحمام .. ومصنع مونه .

والآن تعالوا بنا إلى المستوقد .

لنبدأ السير من ميدان السيدة .

قفوا فى الميدان .. والسيدة فى ظهركم .. ومراسينا على يمينكم .. والكومى على يساركم .

يمموا شطر الميسرة .. واتجهوا إلى الكومى ، وسيروا بجوار سور مدرسة السنية .. على الرصيف من فضلكم .

لا تريدون السير على الرصيف ؟!

— لم ؟!

لأن رائحة الصنان المتصاعدة من المباول المتناثرة على الرصيف تزكم أنوفكم .. لا بأس عليكم .. تحملوا .. فنحن ذاهبون إلى مستوقد .. لا إلى حفلة راقصة .

لندخل الآن فى شارع الناصرية .. تاركين على يسارنا المبتديان ، وشارع خيرت .. لا داعى للسرعة .. تمهلوا .. نحن فى نزهة .

قفوا بنا قليلا .. أمام هذه المقلة .. إنها شهر مقلة فى حى السيدة ، ودعونا نبتاع شيئا من الكناسة ، فهى أرخص كثيرا من شراء صنف بعينه .. وهى حاوية لجميع الأصناف الموجودة فى المقلة .

أجل !.. أجل !.. بقرش كناسة سيكفينا جميعا .. وستجدون فيه الكثير من الفول السودانى ، أو على الأقل بقاياه .. وفتافيته .

اطلبوا الزوادة من فضلكم .. وزوادة الزوادة .. إنها تقاليد لابد منها .. والرجل نفسه قد أدخلها فى حسابه ، فهو لم يعطنا كل حقنا .. لأنه واثق أننا سنستجدى بقيته .. إنه أشبه بالساسة الإنجليز .. أم هم الذين يشبهونه ؟!

والآن هيا بنا نتمم سيرنا .. متلكئين مقزقزين .. منشدين ما يحلو لنا من الأغانى .. ولتكن « سلم على » .

« لما جابلنى .. وسلم على .. يابوى يابوى » .

تمهلوا .. لقد وصلنا .

أين هو المستوقد ؟

إنه لا يبدو له أثر .

أعرف ذلك .

أعرف أنه بلا لافتة ، وبلا شيء يدل عليه .. ومع ذلك فإني أجزم أننا وصلنا .

هذا هو الشارع المتسع قليلا ، وهذا هو جامع الرماح ، وقد دخلت واجهته عن بقية الشارع ، وبدت أمامه رحبة متسعة .. وهذه هي حارة « درب البندق » .. وزقاق جامع الرماح .

أجل ! لقد وضح الأمر ، وانجلى الشك .

كيف لا .. وهذه هي « جزارة الإخلاص » .. وعم حسن الطرشجي الواقف على باب الحمام .

إن البابين متقاربان .. باب المستوقد ، وباب الحمام .. أو باب القذارة ، باب النظافة .. أو على الأصح باب القاذورات محملة فى عربات .. وباب القاذورات محملة على الأجساد .

دعونا ندخل فى الباب الأول .. أعنى باب المستوقد .

إنه يفضى بنا إلى معبر ضيق مترب مظلم ، فى داخل البيوت .. هيا بنا نعبره .

ثم قفوا بنا .

***

هنا مستوقد الناصرية .. خرابة متربة ، ذات هضاب ووهاد ، وسراديب وجحور ، وأرض ليست فيها قطعة مستوية ممهدة .. فهى أشبه بنموذج مصغر لجبل مقفر ، يقوم بين أطلال بائدة ، ورسوم حائلة .

وفى ركن من أركان الأرض الخربة ، وبين هضبتين من هضابها ، رصت القدور المتبعجة السوداء الملأى بالفول وقد وقف أصحابها يحكمون عليها الغطاء ، بعد أن خلطوا الفول ببعض العدس حتى يعطيه لونا ورائحة ..

ويتلفت أصحاب القدور حولهم فى قلق وانتظار كأنما يبحثون عن شىء ، ويظهر لهم فجأة هذا الشىء الذى يبحثون عنه ، ويصيح به أحدهم مستحثا :

ـــ يالله يا شحيبر .

ويخرج شحيبر من ثنيات الأرض كأنه شيطان أو جنى لا يكاد يبدو به شىء من الأدميين ، فهو أشبه بالجلد المقدد أو بقطع البسطرمة القديمة العفنة ، أو بفردة حذاء قديمة طال بها العهد بجوار العتقى حتى تحجر جلدها .. أو .. أو .. بأى شىء عدا الآدميين .

هيكل عظمى أسود أغبر .. لو ذبحناه لما وجدنا به سوى جلد وعظم .. وحتى الجلد نشك فى وجوده إذ يبدو لنا أن الجلد الأصلى قد تآكل ، وحلت محله طبقة سميكة سوداء من العرق والتراب والهباب .

وتقدم شحيبر .. رب المستوقد ، وحاكم الخرابة .. متثاقل الخطى .. وبدا وجهه غائر العينين ، بارز عظام الوجنتين ، حاد الأنف ، واسع الفم فاغره ، كأنه غراب يلهث ، أو كلب ظمآن ، قد وضع على رأسه لبدة جمدت عليها الأقذار حتى تشققت ، وغطى هيكله العظمى بقميص ممزق كشف عن ذراعين كالعصى ، وساقين كالجريد ، وقد حزم وسطه بسير من الجلد أسود عريض .

وعادت أصوات أصحاب القدور تستحثه « مد شويه يا شحيبر .. الله يخرب بيتك زى ما عطلتنا » .

ولم يمد شحيبر ، ولم يبد عليه أنه قد تأثر كثيرا من دعوتهم عليه بأن يخرب الله بيته .. إذ كان واثقا تمام الثقة أنه ليس هناك خراب يمكن أن يصيب بيته أو خرابته أكثر من الخراب الذى بها .

ووقف « شحيبر » يستلم القدور ويعدها ويكشف عليها واحدة واحدة ، حتى لا تكون إحداها مشروخة أو ناقصة .

وانتهى « شحيبر » من عملية الاستلام .. ثم قال بصوت أجش :

ـــ ثمان قدور فول ، وأربعه بليله .

وكان قوله هذا بمثابة أمر لأصحاب القدور بالانصراف . وهبط الرجال من الخرابة متفرقين فى الشارع ، وألقى « شحيبر » على القدور نظرة مترفقة وأخذ يربت عليها ويتحسسها فى رفق وكأن بينهما صلة وداد أو رابطة قربى .

كان « شحيبر » يحس أن القدور هى كل ما له فى الحياة ، هى مورد رزقه ، ومؤنس وحشته .. هى بنوه وخلانه فى دنيا حرمته البنين والخلان ، كان يقضى معها جل وقته ، وكان يعرفها قدرا قدرا . ولم يكن يشك فى أنها تعرفه وأنها تبادله وفاء بوفاء وحبا بحب .

وكان يسمى كلا منها باسمها الخاص فإحداها زكية والثانية بهية أما الأخرى المكسورة الحافة فهى أم السعد والرابعة هانم ، والخامسة والسادسة إلخ ...

وانحنى شحيبر على بهية ، ليرفعها على كتفه ويهبط بها إلى باطن الأرض حيث الجحر الذ تنضج فيه القدور .. عندما سمع صوتا يصيح به :

— شحيبر .

ورفع الرجل جسده من فوق القدر والتفت إلى ناحية الصوت الذى أتى من الشارع وأجاب بصوته الأجش :

— طيب .

ثم هبط من الخرابة إلى الشارع ، وصاح بالمنادى سائلا إياه :

— آخر نقله ؟

— أيوه .

— فرغها عندك .

وبدأ « سيد » يفرغ حمولته .

ولم يكد ينتهى من عملية التفريغ حتى صاح :

— حا .. شى يا بتاع الكلب .

ورفع فى يده سوطا ثم أهوى به على ظهر الحمار الذى شد إلى عربة الزبالة وسارت العربة تقرع بعجلاتها أرض الشارع وانطلق سيد يغنى بصوت مرتفع رنان :

يابو الطقية الشبيكـه مين شغلهـا لك
شغـلت بـالى إلهى ينشغـل بـــالك

وقف شحيبر برهة حائرا فيما يفعله ، أينزل القدور إلى الجحر أولا ، أم ينقل الزبالة إلى الفرن ، ثم استقر به الرأى على أن ينتهى من الزبالة والفرن ، ثم يتفرغ لنقل القدور ورصها فى الجحر ، وأمسك بأحد الغلقان وبدأ يحول أكوام القمامة قاذفا بها فى فجوة فى منتصف الخرابة ، وهذه الفجوة كائنة فى سقف الحجرة التى بها الفرن فتستقر الزبالة فى أسفلها ، ثم يهبط شحيبر إلى جحر مظلم ينتهى بفتحة الفرن الذى تتأجج فيه النيران فيقذف فى جوفه بالقمامة ليزيده اشتعالا ويزيد عرقه تصببا وتسطع على وجهه النيران الحمراء فيبدو كأنه من زبانية جهنم .

وانتهى أخيرا من نقل الزبالة وقذفها فى الفرن واتجه إلى القدور فرفع بهية وحملها على كتفه وسار بين هضاب الخرابة متجها إلى فتحة أخرى غير التى يهبط منها إلى الفرن ونزل فى جحر أطول من الآخر وأشد ظلمة ، وبدأ ينحدر فى داخله . فلما وصل إلى منتصفه كانت الظلمة قد تكاثفت حتى لم يعد يبصر طريقه فأنزل القدر عن كتفه وتحسس بيده مكانا فى جدار السرداب فمست يده مصباحا من الصفيح ، وأخرج من جيبه علبة ثقاب فأشعل المصباح ، وعاود الانحدار فى الجحر الضيق الملتوى حتى وصل فى النهاية إلى متسع يقع فى ظهر الفرن ، فتشع فيه الحرارة حتى تجعله أشبه بالجحيم .

وينزل شحيبر القدر ، ثم يعود أدراجه لإحضار بقية القـدور ويرصهـا متجاورة ، ثم يربت عليها ويتحسسها فى حنان ويتركها فى الجحر حتى ينضج ما بجوفها من فول وبليلة .

وعندما انتهى من عمله كان الليل أرخى سدوله ، والظلمة قد شاعت فى أنحاء الخرابة .. فأضحى كل ما بها أسود معتما إلا فتحات صغيرة بدت فى منتصفها وقد شع منها الضوء .

وكانت الفتحات تبدو غريبة وسط المستوقد الخرب المظلم ، أو على الأقل

تبدو غريبة للزائر الجاهل بالمكان ، ولكننا لو سألنا أهل زمان ، أو سألنا شحيبر ، لأنبأنا ببساطة .. أنها الفتحات الكائنة فى قبة الحمام .. الملاصق للمستوقد ، والذى يستمد حرارته من فرن المستوقد الذى تحرق فيه الزبالة .

وهكذا يتبين أن سطح المستوقد كائن فوق الحمام ، وأن المكان الذى يتوسط الخرابة هو سقف الحمام ، وأن الفتحات التى يشع منها الضوء هى قبة المغطس .

وجلس شحيبر بجوار القبة وقد أخرج من جيبه نصف سيجارة فأشعلها وأخذ يشد منها أنفاسا بطيئة طويلة ، وهو يحملق فى النجوم ، ثم يلقى نظرة سريعة على قبة الحمام وقد تعالت منه أصوات المستحمين والمكيساتية .

وقد يبدو غريبا ما وصفناه من قذارة الرجل ، رغم أن الحمام لا يبعد عنه بضع خطوات ، ورغم أن لولاه لما كان الحمام فهو الذى يهيىء له الوقود ، وهو الذى يسخن مياهه .

ولكن شحيبر كان يجد أن استحمام مثله ضرب من ضروب العبث ، ما فائدة أن يضيع الساعات فى إزالة الأتربة والقاذورات عن جسده ، ثم يعيدها إليه فى ثوان معدودات ينزل فيها إلى الفرن ، أو إلى جحر القدور ، أو لينقل فيها الزبالة . لا . لا . ليس هناك داع للاستحمام قط . إن جسده قد تعود الأقذار ، بل لقد أضحى هو نفسه مركبا من الأقذار ، ومن يدريه أنه لو استحم وأزال القاذورات ، ألا يبقى منه سوى كوم من العظام ، هذا إذا لم تكن الأقذار قد نفذت إلى عظامه ؟

وهكذا أقنع نفسه أن الاستحمام شىء خطير ، وأن المياه لابد أن تكون عدوا لدودا له ، واقتنع من الاستحمام بالجلوس بين آونة وأخرى لمراقبة المستحمين من فتحات القبة ، ومشاهدتهم يهبطون بأجسادهم إلى المغطس الذى تكاد مياهه تصل إلى درجة الغليان ، ثم يبصرهم وقد خرجوا من المغطس فاستلقوا على مضجع حجرى وأقبل عليهم المكيساتى وقد وضع فى يده كيسا جلديا ، وأخذ

يدلك جلدهم ويوسعه حكا وفركا ، ويخرج منه أكوام الأقذار المبرومة السوداء .

وتصيب شحير رجفة من ذلك المنظر . إذ يتخيل نفسه وقد تمدد مكان الرجل ويبصر بعين الوهم جسده وقد تحلل وذاب تحت كيس المكيساتى . فلا ينتهى من عملية التكييس حتى يكون قد انتهى هو ، ولم يبق منه شىء ، وتحول بفضل كيس المكيساتى إلى كوم من الأقذار المبرومة كتلك التى يراها تخرج من أجساد المستحمين .

ويبعد « شحير » عينيه فى فزع عن الفتحة التى يطل منها . ويدعو الله ألا يوسده هذا المضجع المروع البشع ، الذى لاشك أنه سيلقى فيه حتفه لو توسد مضجعه .

وفى تلك الليلة لم يحاول أن يطل على رحبة الحمام ، فقد كان يحس بشىء من التعب فضل معه الاستلقاء فى موضعه ، ولم تمض برهة حتى راح فى سبات عميق .

ولم يدر كم طال به النوم حتى استيقظ فجأة . جلس فى مكانه يفرك عينيه وتلفت حوله عله يعرف الوقت وبدا له أن الساعة قد جاوزت منتصف الليل فقد ران السكون على كل ما حوله ولم يبد فى نوافذ الدور أثر لضوء .

وأدهشه أن يجد فتحات الحما ما زالت مضيئة ، وأن يصل إلى أذنيه بعض أصوات كأنما هناك إنسان ما زال يستحم .. فما كان الحمام يفتح أبوابه للمستحمين حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وما تعود أن يرى الفتحات تضىء بعد منتصف الليل .

وتحرك شحير من مكانه وركع على ركبتيه وأطل بعينيه من إحدى الفتحات ليرى هذا المستحم العجيب فى جوف الليل ، من يدرى ؟ قد يكون سارقا ، فيستطيع أن يضبطه ، ويبلغ عنه عم إبراهيم الحمامى صاحب الحمام ..

وبهت شحير ، وكتم أنفاسه ، فقد وقع بصره على منظر أذهله .

قد أبصر أمام عينيه إنسانا قد هبط بجسده فى مياه المغطس ولم يبد منه سوى رأسه وكان الرأس : رأس امرأة !

هذه ولاشك زوجة المعلم إبراهيم ، أو ابنته أو إحدى قريباته قد انتهزت فرصة الليل ، فهبطت من الدار الكائنة بجوار الحمام ، لتنعم بخلوة هادئة .

ومضت فترة وشحيبر يحملق من الفتحة .. ينتظر البقية .. بقية المرأة ، وطال انتظاره وهو متصلب فى مكانه حتى بدأت المرأة تخرج بجسدها من المغطس رويدا رويداً .

وأخيرا وقفت فى منتصف الحمام ، عارية بلا أى ساتر ولا حجاب .

وابتلع شحيبر ريقه وأخذ يحدث نفسه مشدوها :

هذه لا يمكن أن تكون امرأة عم إبراهيم ، فإن من الحمق أن يتخيل أن امرأة عم إبراهيم لها مثل هذين الثديين المستديرين المتحجرين ، ولا مثل هذين الردفين المتماسكين .

من تكون إذا ؟!

لاشك أنها امرأة تسللت إلى الحمام لكى تستحم خلسة .

ويبدأ الشيطان يوسوس فى نفس الرجل ويغريه بالمرأة وييسر له أن يهبط إليها ، ولكنه أخذ يحذر نفسه قائلا :

ــ أنا أهبط إلى الحمام ؟ أجننت ! أنا أدخل الحمام ؟

وأجابه الشيطان :

ــ وماذا فى ذلك ، إنك لن تستحم .. إنك تستطيع أن توهمها أنك عم إبراهيم صاحب الحمام .. أو حتى تهددها بأنك ستشى بها .

ــ ولكن هبها طلبت منى أن أستحم معها ؟

ــ وماذا فى ذلك .. أستحم !

ــ أنا أستحم ، هذا معناه الموت .. لا .. لا .. لن أنزل إليها .

ــ أيها الغبى ، إذا كنت تخاف الاستحمام ، فلا ضرورة له ، قل لها إنك لن تستحم ؟!

وهكذا أقنع شحيبر نفسه بالنزول إلى الحمام ، وبألا يضيع من نفسه هذه الفرصة الذهبية ، وسرعان ما اتجه إلى الباب الخلفى للحمام الذى يطل على المستوقد ، فدفعه فى رفق وأخذ يهبط الدرج فى حذر وسكون ، ولم تمض لحظة حتى كان فى داخل الحمام ، أمام المرأة العارية وجها لوجه .

وفزعت المرأة فى بادىء الأمر ، ولكن شحيبر أخذ فى طمأنتها وتهدئتها . وبدأ يدخل معها فى دور ملاطفة ومغازلة وإعجاب . فاطمأنت المرأة إليه وسرى عنها .

وفجأة سألت السؤال الذى لم يكن يخشى سواه .. قائلة « ألا تنسوى الاستحمام » وحاول أن يخفى فزعه وأنبأها أنه قد استحم . فضحكت المرأة وأخبرته أنه لا يبدو عليه أنه قد استحم منذ مائة سنة ، وأصرت على أن يستحم معها .

ورفض شحيبر ، فعادت تصر ، وأمسكت به تريد أن تدفعه بثيابه إلى المغطس ، فعدا منها هاربا نحو الباب ، ولكنه وجد أمامه فجأة .. ما روعه .. وجعله يتسمر فى مكانه من فرط الذعر .

لقد أبصر أمامه المكيساتى وفى يده سلاحه الماضى : الكيس الجلد .

وأدرك شحيبر أن المسألة لابد أن تكون مؤامرة لاغتياله بالحموم والتكييس ، وصرخ صرخة مدوية ، وحاول أن يفر من الرجل ، ولكن الرجل أمسكه بشدة وطرحه أرضا ونزع عنه قميصه ، وظهر رجل آخر وحمله الرجلان من ساقيه وقدميه فقذفا به إلى المغطس .

وصرخ شحيبر وأحس بجسده يذوب فى الماء الساخن وبذل جهده حتى استطاع الخروج من المغطس .. فتناوله الرجلان وأضجعاه على المضجع المميت ، وبدأ المكيساتى عمليته المروعة ، وشحيبر يتلوى بين يديه ويصيح مولولا :

« آه يا شحيبر .. مت يا شحيبر .. يا خسارة قدر الفول والبليله حاتتيتم بعدك يا شحيبر » .

وأخذ شحيبر ينظر إلى كوم الأقذار التى تخرج من جسده وهو يعلو ويكبر ، ويرى جسده يتضاءل وينكمش .. وشيئا فشيئا أحس بأطرافه تتأكل وتنقرض ، وأنه يفنى قطعة قطعة ، فأغمض عينيه وصاح فى صوت يائس مبحـوح : « ارحمونى .. أنا فى عرضكم . تبت إلى الله » .

* * *

وفتح شحيبر عينيه وهو يقول « تبت إلى الله » ، وتلفت حوله وتحسس جسده وأعضاءه ، فإذا به ما زال سليما وإذا به ما زال فوق قبة الحمام لا أسفله ، وإذا بكل ما رآه لم يكن إلا حلما .

وقفز الرجل من مكانه فى فرحة شديدة وهبط إلى الجحر الذى رص فيه القدور ، وأخذ يحتضنها باكيا ، وهو يقول :

ـــ تبت إلى الله ، إذا كنت أبص لغيركم .. سامحينى يا زكيه .. وانت يا بهيه .. وانت يا ام السعد .

ومن ذلك اليوم ، لم يحاول شحيبر أن يقترب من فتحات الحمام ، خشية أن تتحقق الأحلام فيضيع على حد قوله « فى شربة ميه » .

فى المـبـتـديـان

وأخيرا استقر بى الرأى على خطة مثلى لم أشك فى أنها ستوصلنى إلى بغيتى .. وتركت الدار متجها إلى المدرسة كعادتى .. عابرا شارع الخليج ، ودلفت فى الحارة المفضية إلى جنينة رشيد والمسدودة بسلسلة مشدودة بين حجرين لمنع دخول العربات ، ثم اتجهت إلى المبتديان مارا بالقصر .

فى ليلة من ليالى رمضان .. انتفخت منى المعدة واسترخت الأطراف ، وتمددت على إحدى الأرائك كالمترنح الثمل .

وأحسست بالنوم يهاجمنى بشدة ولما تمض بضع دقائق على انتهائى من الإفطار ، وخشيت إن أنا استسلمت للنوم ، أن يثقل الأكل على معدتى فأصاب بعسر هضم وكابوس يقض مضجعى ويكتم أنفاسى .. فنهضت متثاقلا ، و لم أجد طريقة لطرد النوم سوى مغادرتى الدار :

و لم يكن لدى من الجهد ما يعيننى على ارتداء ملابسى أو النزول إلى البلد .. ورأيت أن خير ما أمضى به سهرتى هو أن أذهب إلى صاحب لى يقطن على مقربة منى ، فنضيع الوقت فى السمر أو فى لعب الطاولة .. ولا سيما وأن داره لا تكاد تخلو من شلة مرحة مسلية ، يترأسها دائما خال صاحبى ، شيخ هازل ماجن طروب مهذار .. يدعى محمود أفندى الباشكاتب أو كما تعودنا أن نناديه « الباشكا » .

وضعت الروب على كتفى ودسست قدمى فى شبشب وسرت أطرقع به حتى

بيت صاحبى .

وهناك وجدت الرفاق يتندرون بأحاديث الغرام ومغامرات العشق ، وسمعت أحدهم يروى كيف اضطر إلى أن يبيع الذرة المشوية حتى يستطيع أن يقف بعربته أمام بيت فتاة كان يعشقها فيتيح لنفسه أن يراها أطول مدة ممكنة دون أن يتشكك أحد فى أمره ، ويروى لنا آخر كيف اشتغل ساعى بريد ليوصل خطابا إلى عشيقته .

ونظرت إلى محمود أفندى فوجدته قد وضع ساقا على ساق وبدا سرواله الفانلة الطويل واصلا حتى قدميه ، وأخذ يهز قدمه هزات منتظمة وقد تدلى منظاره ذو الإطار الذهبى على أرنبة أنفه ، ودفع بطاقيته إلى الوراء حتى استقرت على مؤخرة رأسه ، واستندت عباءته على طرف كتفيه ، وتدلت بقيتها على الأرض وبدا من خلالها جلبابه الأبيض .

وكان الباشكا .. صديقا حميما لنا .. ولم يكن تفاوت السن بيننا وبينه ليقف عقبة فى سبيل صداقتنا .. ورفع الكلفة بيننا .. فقد كان صبى الروح .. شديد المر .. جم الفكاهة .

ورأيت الرجل يقلب شفتيه وهو يستمع إلى مغامرات الرفاق ثم يهز كتفيه ويقول فى سخرية :

— هذه كلها أشياء تافهة .. أين تذهب مغامراتكم بجانب مغامراتنا ، وأين شقاوتكم من شقاوتنا ، وعفرتتكم من عفرتتنا ؟!.

وكنا نعرف أنه كذاب كبير ، وأن ثلاثة أرباع أقاصيصه عن نفسه من نسج الخيال وبنات الوهم . ومع ذلك فقد كنا نتلهف على سماعها ، فقد كان الرجل قصاصا مجيدا ، وراوية متفننا ، وكانت أحاديثه تحملنا إلى أجواء شديدة الشبه بتلك التى تحملك إليها ألف ليلة وليلة .

وصمت الرجل برهة وقال له أحدنا يستحثه على الحديث :

— قص علينا إحدى مغامراتك الغرامية .. يا سيد باشكا .

وتنحنح الباشكا وهز رأسه وبدا كأنه يستجمع شوارد أفكاره ثم أخذ يقص علينا قصته قائلا :

ــ كان ذلك فى أيام الصبا ، عندما كانت الدنيا دنيا .. وعندما كنتم أنتم ما زلتم فى عالم الغيب ، وكنا نقطن فى جنينة لاظ فى حى السيدة ، وكنت أنا طالبا بالمدرسة الثانوية الملكية (الخديوى إسماعيل) وكنت وقتذاك رئيسا لفريق الكرة ، ورئيسا لفريق الجمباز (كان الرجل لاشك كاذبا فى دعواه فقد أنبأنى صاحبى « ابن أخته » أن والدته أخبرته إنه كان أخيب خلق الله) وكنت كذلك شهيرا بالوسامة والوجاهة ، وكنت أستطيع أن أوقع أية فتاة بمجرد إشارة من يدى ، ومع ذلك فقد كنت زاهدا فيهن مترفعا عنهن .

وتعودت وبعض أصحابى عند عودتنا من المدرسة أن نمر بقصر كبير ذى حديقة غناء يقع فى جنينة رشيد على ناصية شارع المبتديان .. وتعودنا أن نبصر أمامه فى بعض الأحيان عربة فخمة مطهمة شد إليها جواد أبيض عربى أصيل وكانت العربة من النوع المغلق الصغير ذى الباب الواحد ، وحدث ذات مرة ونحن نمر بباب السراى أن لمحنا امرأتين تهبطان فى الحديقة ، وقد اتشحتا بالحبرة السوداء ، والبرقع الأبيض الذى لا يظهر منه سوى عينين تتألقان .

وتكررت رؤيتنا للمرأتين واستطعت أن أميز أنهما امرأة وفتاة ، وبدأت أحس ببعض اللهفة على رؤية الفتاة والحديث معها ، وأخذت أتسكع بعد الخروج من المدرسة بين الدواوين والمبتديان حتى يحل موعد خروجها .

وبدأ الرفاق يسخرون منى ويتهمونني بالحب .. ولم يضايقنى بالطبع أن أتهم بالحب ، ولكن أثارنى منهم لهجتهم الساخرة وتشبيههم إياى بالشحاذ الذى أحب بنت السلطان ، ونصيحتهم لى .. بأن أشيل على قدى وبأن أمد قدمى على قد لحافى .

أثارتنى منهم هذه السخرية وأنا الملىء بالثقة والكبرياء ، وزادتنى تعلقا بالفتاة .. رغم أنى لم أكن أبصرت منها أكثر من شبح متشح بالسواد ، وعينين

تتألقان من خلال البرقع الأبيض ، ورغم أنى لو أبصرتها بين عشرات سواها لما أستطعت أن أميزها من بينهن .

وهكذا أخذت سخريتهم تشعل النيران فى صدرى .. حتى انتهى بى الأمر إلى أن أوهم نفسى أنى قد أضحيت صبا مولعا ، وأنه قد استبد بى داء الحب وأحرقتنى نيران الهوى .

وفى ذات يوم جلس الرفاق حولى يتسلون بالسخرية منى واستشطت غضبا ، ودفعنى الطيش والحمق إلى أن أقسم لهم أننى أستطيع — لو شئت — أن أنال من الفتاة ما أريد ، وأن الفتاة تحبنى ، وما من عقبة هناك تستطيع أن تقف بينى وبينها .

وضج الرفاق بالضحك ، وأبدى أحدهم استعدادا لأن يراهننى .. إذا أنا استطعت فقط أن أحدثها ، وأحسست بأن كبريائى قد جرحت وكرامتى قد أهينت ، فقبلت الرهان .

وذهبت إلى الدار فى ذلك اليوم وقد شرد منى الذهن ، واستبدت بى فكرة واحدة هى لقاء الفتاة .

وكنت أعلم أن رب القصر — والذى لم أشك فى أنه أبوها — أمير تركى هو الأمير برهان نور الدين ، وأخذت اعتصر الذهن علّه يدلنى على طريقة أدخل بها الدار .. لألقى ربته .

واستيقظت فى اليوم التالى وقد تملكتنى الحيرة واستبد بى الضيق ، وأخذت أقلب إحدى صحف الصباح فوقع بصرى فى إحدى صفحاتها على خبر استرعى التفاتى وأخذت أعيد قراءته مرارا وتكرارا .

كان الخبر ينبئ أن بعض مجوهرات ابنة الأمير التركى برهان نور الدين قد سرقت من القصر وأنهم يشكون فى أن بعض الخدم قد سرقها ويعدون كل من يرشد إلى السارق بجائزة مالية كبيرة .

وأحسست بفرحة بالغة ، وبدا لى أنى قد وجدت إلى غرضى منفذا ، وأن

المجوهرات الضائعة ستكون مطيتي إلى الفتاة ، وبدأت أفكر فى أفضل الطرق التى أتبعها .. وأخذت أضع الخطط وأحبك التدابير .

وأخيرا استقر بى الرأى على خطة مثلى لم أشك فى أنها ستوصلنى إلى بغيتى ، وتركت الدار متجها إلى المدرسة كعادتى عابرا شارع الخليج ودلفت فى الحارة المفضية إلى جنينة رشيد والمسدودة بسلسلة مشدودة بين حجرين لمنع دخول العربات ، ثم اتجهت إلى المبتديان مارا بالقصر ، ثم اتخذت طريقى فى شارع الدواوين حتى المدرسة ، ولكنى بدلا من الدخول إلى المدرسة دلفت إلى حجرة عم سعيد البواب القائمة على باب المدرسة وكان بينى وبينه ود مقيم فأعطيته بضعة قروش وسألته أن يعيرنى بعض ملابسه .

ولم تمض بضع دقائق حتى تسللت من المدرسة ، وقد ارتديت أحد قفاطين « عم سعيد » وعلت رأسى عمامة بيضاء وانتعلت فى قدمى مركوبا أحمر وأمسكت فى يدى مسبحة أحرك حباتها بين أصابعى ، وفى اليد الأخرى كيسا ملأته بالرمل والحجارة ووضعت فى جيبى كتشينه ابتعتها من حانوت أمام المدرسة .

وهكذا قصدت القصر كأنى أحد فقراء الهنود ..

ووقفت أمام الباب وقلت للحارس فى لهجة آمرة إننى أريد أن أقابل أحدا من أهل الدار فى أمر هام .

ووقفت أناقشه برهة ، وأفهمته أنى سأظهر سارق المجوهرات المفقودة وسأدلهم على مكانها ، ولكنه نظر إلى فى سخرية وأنبأنى أن أهل الدار قد خرجوا .. ثم سمعته يتمتم لنفسه قائلا : « بلا نصب بلا تدجيل » .

ولم أشك فى أن الرجل كاذب ، وأن أهل الدار ما زالوا بالدار وخاصة أنى سمعت صوتا نسائيا يصيح من الداخل : دعه يدخل يا عم إبراهيم .

وفسح لى الطريق فدلفت إلى الداخل ، وعبرت الحديقة متجها إلى مدخل القصر ، وصعدت بضع درجات رخامية ثم وقفت أمام الباب المتسع وقد تملكتنى

الحيرة والخشية .

ووصل إلى الصوت النسائى آتيا من شرفة فى أعلى المدخل آمرا إياى بقوله « اطلع » .

وعبرت الباب إلى صالة فخمة رحبة الأرجاء واتجهت إلى سلم فى نهايتها ، وصعدت إلى الطابق العلوى .

ووقفت أمام دهليز طويل أقيمت على جوانبه أعمدة رخامية ، وترددت برهة و لم أجسر على التقدم ، حتى عاد الصوت النسائى يأمرنى مرة أخرى « ادخل » واتجهت إلى مصدر الصوت الذى كان ينبعث من حجرة فى نهاية الدهليز ووقفت بباب الحجرة مشدوها مأخوذا .

من يصدق هذا ؟.. أنا لاشك حالم واهم ؟ فإن الواقع لا يمكن أن يغدق على الإنسان بمثل هذا الكرم ، وتلك الأريحية ؟

لقد وجدت نفسى فى مخدع نسائى تتضوع منه رائحة عطر ينفذ من الأنوف إلى القلوب ، ليسكر النفوس ويدير الرؤوس ، ووجدتها هى .. قد اتكأت على فراش فى وسط المضطجع !!

إى والله .. لقد وجدتها هى .. بلحمها ودمها .. لا طيف ولا شبح ولا خيال :

وجدتها هى لا بالحبرة ولا بالبرقع .. بل بقميص حريرى وردى .. قد انحسر عن كتفين كالمرمر .. وعنق كالعاج .. قميص قد أبدى من الفتنة والسحر أكثر مما ستر .

وتملكنى من رؤيتها نشوتان .. نشوة فتى فى مخدع أنثى شبه عارية ، ونشوة الانتصار الخارق والفوز المبين على الصحاب الهلافيت الذين لا يقدروننى حق قدرى .

ووجدت ذهنى الأحمق يشرد برغمى عما هو فيه من متعة أشبه بالأحلام ليعدو وراء الرفاق ويتلهف على وجودهم ليشهدوا بأعينهم ما قد بلغه العبد

الفقير .. وأخذت أتخيل أقوالهم الواحد بعد الآخر ، وتصورت ألفاظ التبجيل والاحترام التى سيخلعونها على .

ويبدو أن وقفتى أمام الفاتنة محملقا فيها عينى كالأبله قد طالت .. فقد وجدتها تهتف بى فى دلال وعجب كأنها تحاول أن توقظنى :

ــ هش .. انت يا سيدنا .

وأفقت من شرودى وأجبت مرتجفا :

ــ محسوبك يا هانم ...

ــ ما بالك هكذا مبهوتا مشدوها ؟

ــ لا مؤاخذة ، إنها نوبات سرحان تصيبنى من آن لآخر . عندما أكون تحت سلطان الوحى .

ــ وحى ؟!!

ــ أجل .. وحى الأسياد .. الذين يلهموننى المعرفة .

وبدا عليها شىء من الفزع وصاحت متسائلة :

ــ بسم الله الرحمن الرحيم .. أعليك أسياد ؟. أأنت مريوح ؟

ــ لا .. لا يا ست هانم .. إن الأسياد لا يركبوننى ، ولكنى أركبهم .. إنى أنا الذى على الأسياد ، وليسوا هم الذين على .. هم المريوحون منى .. ولست أنا مريوحا منهم .. إنى أستخدمهم فى معرفة ما أود معرفته .. إنهم فى الواقع بالنسبة لى .. ليسوا سوى خدم ، ولكنى أسميهم أسيادا من باب التجاوز ليس إلا .

ــ آه .. إذًا فأنت الذى تسيطر على الأسياد ؟

ــ بالطبع . إنى أستدعيهم وقتما أحب وهم لا يرفضون لى طلبا .. بل يجيبوننى إلى كل ما أريد .

ــ وكيف يجيبونك ؟

ــ بالرمل والودع والورق ، وكل ما يخطر لك على بال .

ــ مدهش !!

ــ وأستطيع كذلك أن أقرأ الكف والفنجان .

ــ يا سلام !!

ــ لا يستعصى على شىء فى عالم الغيب .. إنى أعلم ما تقدم وما تأخر !!

ــ أتستطيع أن تعرف من الذى سرق الجواهر ؟

ــ بل وأحضره مكبلا بالأغلال ، هذه مسألة بسيطة .

ــ إلى هذا الحد ؟

ــ بل وأكثر من ذلك .

ــ وما اسمك .. وكيف تعلمت كل هذا ؟

ــ خاشم مخموش مخماشيان .

وانطلقت منها قهقهة عالية ، ثم استعادت الاسم ثانية بقولها :

ــ خاشم إيه ؟

ــ محسوبك خاشم مخموش مخماشيان ، يضرب الرمل ويشوف الودع ، ونبين زين نبين .

ــ ولكن الاسم صعب جدا .. ألا تستطيع اختصاره ؟

ــ تستطيعين أن تنادينى كالأسياد .

ــ وكيف ينادونك ؟

ــ يدللونى .. بشوشو .. أو خشخش .. أو حمحم .. أو خشاخش أو خشخوش .. أو شمشم .. أو ..

ــ كفى .. كفى .. شوشو أفضل .

ــ أمرك يا هانم .

ــ ولكنك لم تقل لى كيف تعلمت كل هذا ؟

ــ من فضل ربى يا هانم .. إنها مهنة ورثناها أبا عن جد .. كل عائلتنا كذلك .. كانت جدتى رحمها الله تسرح فى الطرقات بالودع ، وكان جدى يفرش كيس الرمل بجوار سيدى الحبيبى . أما أبى فيفتح الكوتشينة بحارة الميضة .

ـــ وأمك ؟

ـــ الخائبة الوحيدة فى العائلة ، إنها تسرح بمشنة فول نابت .

وابتسمت ونظرت إلى بطرف عينيها وقالت لى هامسة .

ـــ اجلس يا شوشو .

وأحسست بجسدى يترنح من كلماتها الهامسة وبنظرتها الفاتنة ، وتربعت أمامها على الأرض ، وأخذت أبسمل وأسبح وقد أغمضت عينى ثم أخرجت الأوراق من جيبي ونشرتها بجوارى ووضعت الكيس جانبا وقلت متسائلا وأنا أهتز يمنة ويسرة :

ـــ تحت أمرك .. الأسياد فى خدمتك .. كيف تريدين أن أظهر السارق ؟. بالودع .. بالرمل .. بالورق .. ؟ اأمرى .

ـــ دعنا من السارق الآن .. هناك شيء أهم .. أريد أن تنبئنى بمستقبلى .. أريد أن تقرأ لى الفنجان .

ثم مدت يدها إلى بفنجان على منضدة بجوارها وأردفت قائلة :

ـــ قل .. ماذا ترى ؟

وأخذت أتأمل فى الفنجان وأفحص بعين خبير .. وحاولت أن أتبين به شيئا .. فلم أجد سوى نغبشة سوداء وبيضاء وبقايا بن راسبة فى القاع .

وبعد طول فحص وتدقيق بدأت أقول فى صوت خافت ملؤه الخطورة :

ـــ هذا كثير .. الطريق أمامك طويل معقد ، والحساد على جوانبه يضعون لك العقبات وينصبون لك الشراك .

ـــ يا ساتر يا رب .

ـــ وأرى أحدهم شديد الخطورة ، يحاول أن يمسك بك ليعوقك عن وصول هدفك ، وأنت ممعنة فى الجرى تحاولين التخلص منه .

ـــ وهل سأتخلص منه ؟

ـــ ستتخلصين منه وستبلغين هدفك بعد عناء وجهد .

ـــ الحمد لله .

ـــ وأمامك خير كثير سيأتيك عن طريق لا تتوقعينه ، وهناك سفر قريب ستعودين منه إن شاء الله بالسلامة .

وهكذا أخذت ألقى الأقوال التى يلقيها كل قارئ فنجان .. أقوالا عامة تنطبق على كل إنسان فى كل زمان ومكان .

وانتهيت من تلك الأقوال وهى تهز رأسها مؤمنة على ما أقول ، ثم صمتت برهة وأخذت أحدق فى عينيها ثم أعدت النظر فى الفنجان وقلت فى صوت أشبه بالهمس :

ـــ أرى أمامك فى نهاية الطريق عاشقا يتلهف عليك ، وأنت لاشك تتلهفين عليه ؟

وسمعتها تهمس :

ـــ صفه لى .

وبدأت أصف العاشق .. أو على الأصح أصف نفسى قطعة قطعة ، أسمر الوجه ، أسود العينين .. حالك الشعر .. وهكذا .. لم أترك شيئا بى إلا وصفته .

ونظرت إلى نظرة حالمة متمنية ، وهمست ضاحكة :

ـــ ألا ترى فى ذراعه سبحة ؟

وضحكت وقلت لها :

ـــ وفى قلبه لوعة وفى نفسه حرقة .

ثم نهضت إليها واقتربت منها فى رفق ، ومازلت أنظر فى الفنجان ، وسمعتها تسأل :

ـــ أتراه يقترب ؟!!

ـــ يقترب ويقترب ، ويحتويك بين ذراعيه ، ويضع على شفتيك شفتيه ، ويمزج أنفاسك بأنفاسه .

وساد الصمت ، وكيف كنت أستطيع النطق وقد قرنت القول بالفعل ، وأطبقت بشفتي على شفتيها ورحنا فى نشوة لم يكن يوقظنى منها إلا رغبتى فى أن يرانى أصحابى الساخرون .

وفجأة .. وجدت الباب يدفع بشدة .. وسمعت صوتا نسائيا يصيح بغضب جنونى :

ـــ كيف تستقبلين عشاقك فى مخدعى .. أيتها اللصة المجرمة .. لقد وضح الأمر ، لاشك أنك أنت التي سرقت المجوهرات وأعطيتها لعشيقك هذا .

وصمت الصوت لتتمالك صاحبته أنفاسها وعادت تهدر :

ـــ وهكذا لا نكاد نخرج حتى تتركى العمل والكنس والمسح وتستلقى فى الفراش وترتدى ثيابى ، وتستقبلى عشاقك .. وهكذا كنت سأظل مخدوعة فيك لولا عودتى المفاجئة .

ونظرت إلى الباب فوجدت الفتاة صاحبة الحبرة والبرقع الأبيض ، وأدركت أن كل ما حدث لم يكن إلا عبث خادمة ، وأدركت كذلك مبلغ حرج موقفى وأننى سأتهم بأنى عشيق الخادمة ، وأنى مشترك معها فى سرقة المجوهرات .

وأقبل من بالدار على صوت الصراخ .. ووقفت والخادمة نتبادل النظرات فى حيرة وخوف وقد أمسكت بالفنجان فى يدى وسمعتها تهمس سائلة :

ـــ ماذا تراه يفعل فى الفنجان ؟

وأجبتها فى أسى وحسرة وأنا أنظر فى الفنجان :

ـــ أراه سيذهب إلى القسم ويرن علقة ويبيت على الأسفلت .

وصمت « الباشكا » وأخذنا نحملق فيه منتظرين أن يتمم القصة ، ولكنه لم يتكلم وأخذ يهز ركبته فى سكون فقلنا نستحثه :

ـــ وبعدين !!؟

ـــ ولا قبلين .. ذهبت إلى القسم ، وبت على الأسفلت حتى حضر إلى أبى وعلم الحقيقة وتوسط فى إخراجى .

ونظرنا إلى ابن أخته نستفسر منه عن مدى ما فى القصة من حقيقة .

وهز ابن أخته رأسه وأجاب :

ـــ الشطر الأخير .. صحيح مائة فى المائة .. فإن والدتى طالما أخبرتنى أن له سوابق كثيرة فى الذهاب إلى القسم والمبيت على الأسفلت .. أما بقية القصة .. فالله بها أعلم .

فى سيدى العتريس

ويتحرك الرجل من باب البيت متجها إلى الحانوت .. فإذا علمنا أن البيت كائن فى شارع سلامة فى حى السيدة ، وأن الحانوت يقع بجوار سيدى العتريس استطعنا أن ندرك أن المسافة بين البيت والحانوت لا يمكن أن تتجاوز بحال من الأحوال أربعمائة ياردة .

« يا نحيف القوام ، التجافى حرام » .

هبط « السيد على » درجات السلم بخطواته المتثاقلة وهو يترنم بأغنيته الحبيبة إلى نفسه ، البغيضة إلى زوجته السمينة أم أحمد أو « أم لفندى » كما تطور الاسم أخيرا عندما أصبح ابنها أحمد موظفا فى الحكومة .

والسيد على ، هو الاسم المختصر لسلسلة أسماء يستطيع الإنسان معرفتها بوضوح فى اللافتة المعلقة على حانوت العطارة الذى يملكه صاحبنا بجوار سيدى العتريس ، وهى السيد على أحمد إسماعيل المهياص .

« المهياص » هو لاشك لقب العائلة الكريمة ، بدليل أن الرجل يأبى التنازل عنه ، بل يضعه موضع المفاخرة ، وهكذا نستطيع أن نجزم أن الجد الأول للسيد على كان مهياصا ، وأنه قد ورث عنه أبرز صفاته التي دعت الناس إلى تسميته بها وهى المهيصة ، وأن صاحبنا كان مهياصا ابن مهياص .

والرجل المهياص — حسبما أعرف — هو الهليهلى الضاحك العابث ، الماجن ، الذى لا يحمل هما ، ولا يثقل على نفسه بأحزان ولا أشجان .

وهكذا كان السيد على .. لا يذكر إنسان أنه قد رآه متجهم الوجه أو مقطب الجبين ، وما سمعه أحد يثور أو يغضب ، وما خرجت من فمه ألفاظ السباب إلا على سبيل المزاح والفكاهة .

ولا أظن هناك حياة سهلة هينة منتظمة لا تغيير فيها ولا تبديل كحياة السيد على ، ويكفى المرء لكى يكتب تاريخ حياة مثل هذا الرجل أن يصف منها يوما ، ثم يضربه فى عدد أيام حياته .

وهو يفاخر دائما بأن كائنا من كان — حتى ولا أم أحمد نفسها — لم يستطع أن يعكر صفو حياته ، أو يحول مجراها السهل المستقيم ، وهو يضبط مواعيده وحركاته وسكناته مع الشمس .. ويقول إن الشمس لا تختل ولا تتوقف ، يستيقظ مع شروقها وينهض متمهلا متباطئا لأنه لا يرى فى الحياة ما يستدعى العجلة ، وما تفعله فى يوم يمكن أن تفعله فى يومين ، بلا جهد ولا مشقة ، ويقول فى تبرير فلسفته :

— ولا تعد ولا تجرِ ، إن الحياة طويلة .. فلا تنهك نفسك بالعدو فيها ، فتصل إلى النهاية مبهور الأنفاس محطم القوى .. سر على مهل ، وتكلم على مهل ، وكل على مهل ، وافعل كل شىء على مهل .. يكفى أن تفعل فى حياتك نصف ما تفعل .. فلو أنك ستسير فى حياتك ألف ميل ، وتتكلم مليون كلمة سر نصفها وتكلم نصفها .. ليس هناك ما يجبرك على أن تفعلها كلها ، فلن تقدم فى نهاية حياتك كشفا بكمية ما فعلت ، ثم .. ما الذى نفعله فى حياتنا ؟ شر وخير وشرنا أكثر من خيرنا .. وأى شىء نأخذ منها شقاء وهناء .. وشقاؤنا أكثر من هنائنا .. وبم نخرج منها ؟ بلا شىء .. ونصف اللاشىء لاشىء ، وما دمنا كلنا سنتساوى فى الخروج منها . فلم اللهفة إذن . وعلام اللهفة !!

وهكذا أقنع السيد على نفسه بألا يتعجل قط . وأنه يكفيه أن يفعل فى حياته الطويلة نصف أو ربع ما كان يجب أن يفعله فيما لو تعجل . ويحصل منها على نصف السعادة ، ونصف الشقاء ويخرج منها فى النهاية باللاشىء الذى سيخرج

به كل إنسان .

وينهض الرجل من فراشه بعد أن يقضى فيه فترة عقب الاستيقاظ وهو مفتح العينين يفكر فى هدوء ، ويتجه إلى دورة المياه فيمضى بها ما يقرب من نصف الساعة يقضى حاجته ، ويتوضأ ، ويدندن ، بمنتهى الراحة والبطء ، ثم يمضى نصف ساعة أخرى فى الركوع ، والسجود ، والتمتمة .

وفى خلال تلك الآونة تستيقظ أم أحمد على صوت دندنة السيد على ، وضوضاء المعلم عبده بائع الفول وهو ينادى : « الفول والبليلة السخنة » وتتحامل على كتل الشحم المتراصة على جسدها حتى تصل إلى المطبخ ، وتوقظ « البت سنيه » وتسلمها القرش والحله لتبتاع الفول قبل أن ينصرف المعلم عبده ، ثم تأخذ هى فى عمل الشاى .

ويتم السيد على صلاته ، ثم يخلع عنه الجلباب والطاقية ويتناول القفطان من فوق المشجب فيسطحه على جسده ، ويشد وسطه بالحزام الكشمير ، ثم يرتدى الجورب فوق ساق السروال الصوفى الذى لا يخلعه صيف شتاء ، ويدس رجليه فى الحذاء الأستك الفاقع اللون ، ثم يضع العباءة على كتفيه والطربوش فوق رأسه .

وتنتهى بذلك عملية اللبس التى لا يكف خلالها عن الدندنة والانتقال من أغنية إلى أغنية من « يا نور العيون آنست » إلى « سبانى سهام العين » إلى « متع حياتك » ، ثم يتجه بعد ذلك إلى المنضدة . حيث يلقى التحية إلى امرأته :

— صباح الخير يا ست أم احمد.

ولا ينتظر هو إجابتها .. بل يأخذ موضعه أمام طبق الفول الذى يتصاعد منه البخار .. ثم يلقى فى وسطه بما يقرب من رطل زبدة .. ولا تمضى بضع دقائق حتى يكون الرغيف المقمر ، وطبق الفول ، ورطل الزبدة ، أثرا بعد عين .

ويلتفت السيد على بعد ذلك إلى برطمان ملىء بالعسل النحل ثم يزيل عنه الغطاء متسائلا :

— هل خلصت القراقيش يا أم أحمد ؟

وتهز أم أحمد رأسها علامة على أنها نفدت ، ويعود السيد على إلى التساؤل :

— والغريبة التي ابتعتها من الحاج صبح ؟

— خلصت ..

ويهز « السيد على » رأسه أسفا ثم يتوكل على الله ويتناول نصف رغيف آخر فيغمسه فى برطمان العسل ، ثم يطوح به فى جوفه ويطلق تكريعة إيذانا بانتهاء الطعام ، ويعقب على التكريعة بحمد الله ، وينظر إلى أم أحمد الصامتة المتربعة على إحدى الشلت تصنع لنفسها القهوة على السبرتو ويقول معلقا على التكريعة نيابة عنها :

— صحة وعافية .. خف تعوم ..!!

وينهض السيد على بعد ذلك فيتناول عصاه الثقيلة ، ثم يلقى تحية الوداع إلى أم أحمد .

— اقعدى بالعافيه يا أم احمد .

ثم يجيب على نفسه ، فهو واثق أن امرأته لن تكلف نفسها مشقة الرد عليه :

— يعافى بدنك ويرجعك بالسلامه .

ثم يهبط الدرج خطوة خطوة مترنما بأعلى صوته : « يا نحيف القوام التجافى حرام » .

وتتصعب أم أحمد وتهز رأسها فى أسف وتتمتم قائلة :

— ربنا يزيدك هيافه .. صدق من سماك « مهياص » .

ولا يكاد السيد على يصل الفناء حتى يتذكر أنه نسى شيئا — فهو لابد أن ينسى شيئا .. أى شىء — ويصيح بأعلى صوته :

— يا أم أحمد .. أم أحمد .. لقد نسيت الشال .. أرسليه مع البت سنية .

ويتحرك الرجل من باب البيت متجها إلى الحانوت .. فإذا علمنا أن البيت كائن فى شارع سلامة فى حى السيدة وأن الحانوت يقع بجوار سيدى العتريس

أن ندرك أن المسافة بين البيت والحانوت لا يمكن أن تتجاوز بحال من الأحوال أربعمائة ياردة ، ومع ذلك فالسيد على لا يقطعها فى أقل من نصف ساعة ، فهو أشبه فى حركته بالمستعجله يتوقف أمام كل حانوت ، وينثر التحيات والنكات ذات اليمين وذات الشمال .

ويصل الرجل إلى حانوته بسلام .. وهو لا يملك إلا أن يصل بسلام .. فليس فى طريقه ما يستطيع أن يعكر عليه صفو السلام .. وقد مضى عليه ما يقرب من عشرين عاما لا يتحرك فى يومه إلا هذا المشوار يقطعه مرة فى الذهاب ومرة فى العودة .. أما فيما عدا ذلك فهو فى حالة سكون تام .

وينهض بندق ـــ صبى السيد على ومعاونه فى الحانوت ـــ من فوق الرصيف ويستقبل معلمه بأبلغ آيات الترحيب ، والتحيات والتفاريح .. ويبدو لنا بوضوح أن الصبى يماثل معلمه كثيرا فى المهيصة وأنه يعوضه عما يفتقده فى أم أحمد .

ويتناول بندق مفتاح الحانوت من السيد على فيفتح الباب ثم يبدأ بإخراج لشوالات ورصها فى الخارج ، ثم يضع بينهما مقعد السيد على الشبيه المصطبة .. وينطلق فى إحضار الشيشة .

وتتناثر التحيات من السيد على إلى الحوانيت المجاورة وبالعكس ، ويصيح لخواجه « أستيك » صاحب الفرن الأفرنجى المواجه للسيد على :

ـــ صباح الخير يا خبيبى ، ميت خلاوه .

ـــ صباح العيش الفينو يا خواجه نجف .. صباح الكيك والشريك والفطير و عجوه والبوريك .. ميت فل .

ـــ ميت فل عليك يا خبيبى .. ازيك ؟

ـــ رضا .. ازيك انت ؟

ـــ الخمد لله .

ـــ مبسوط ؟

ـــ مبسوط كتير .

ـــ كده تعجبنى .. حد واخد منها حاجه .. يا خواجه الناجه كوا الناجه .

ـــ ان شاء الله يكون القراقيش عجبوك .

ـــ عجبونى وبس .. دانا كلت صوابعى وراهم ، يا سلام يا خواجه أستيك عليهم بالعسل النحل .. أحلى من شفايف المره الحلوه .. دقتهم ؟

ـــ القراقيش ؟

ـــ لأ .. شفايف المره الحلوه ؟

ـــ أنا مش بدوق غير مدام أستيك .

ـــ الله يكون فى عونك ، وهى دى شفايف دى . دى مقدده ، زى جلد الصرم .

ـــ أنا مش بشوف غيرها .

ـــ يا أخى ان شا الله تنطس فى عينك ، مابتشوفش البنت سنيه ؟

ـــ سنيه مين ؟

ـــ سنيه ملين .. يا ضلالى .. بتشوفها والا لا .

ـــ أيوه بنشوفها .

ـــ بتشوف شفايفها .

ـــ بتشوف شفايفها ، لكن مش بندوقها .

ـــ وبالنظر كده .. مش يعجبوك .. مش طعمين ؟.

ـــ يا سلام يا خاج على .. خاجه كويس كتير ، خاجه خلوه ، زى العسل .

ـــ ما هو دا اللى انا بقوله .. مش تقولى شفايف مدام أستيك .

ـــ دى ست طيبه .

ـــ إحنا قلنا حاجه ، مانا برضه عندى واحده زيها فى البيت ، لكن برضه الواحد لازم يشبرق نظره ، إن الله جميل يحب الجمال .. وحدوه .

ـــ لا إله إلا الله .

ـــ أيوه كده اتصلح . ابعت لى وقة قراقيش .. عندك فطير بعجوة ؟

ـــ عندى خاجه خلوه خالص .

ـــ ابعت عشره .. وحبشهم بشوية سميط على شوية أرغفة فينو .. يا الله كده اعمل لك همه .

وينتهى حديثه مع الخواجه أستيك ، فيميل بجسده ميلا خفيفا ليواجه المعلم أبو دومه الخضرى صائحا به :

ـــ نظره يا معلم .. مفيش صباح الخير ؟ احنا كنا نايمين فى حضن بعض والا ايه ؟

ويترك المعلم أبو دومة الزبائن الملتفة حوله ، ويواجه السيد على ضاحكا مصفقا بكلتا يديه صائحا فى مرح :

ـــ يا ميت صباح القشطه ، لا مؤاخذه يا معلم سيد .. الزبائن كانوا حاجبين نورك .

ثم أخذ يزيح الزبائن جانبا وهو مستمر فى صياحه :

ـــ اوعى يا جدع كده منك له .. خلونا نشوف القمر . يا أهلا وسهلا .

ـــ أهلا بيك ، ازاى الواد دومه ، مش اتصلح شويه على الدوا اللى اديتهولك امبارح ؟

ـــ اتصلح قوى ، الحمد لله ، والله كان فيه الشفا أحسن من ميت دكتور .

ـــ دكتور مين خليها على الله ، دى وصفه عارفها من تلاتين سنه . حاجه متخبش أبدا ، وازاى البت الصغيره ؟

ـــ بتبوس إيديك ، والله فرحت قوى بالحلق اللى بعته لها ، يلزمك إيه النهارده ؟

ـــ والله نفسى فى صينية تورلى ، وعايز تشكلها تشكيله على كيفك ، شوية فاصوليا ، على شوية كوسه ، على شوية بطاطس ، بس البطاطس بتاع امبارح كان وحش .

ـــ دا كان شوال وخلص . غشنا فيه ابن الأروبه حنفى . وعايز إيه كمان ؟

— أهو شوية كرفس على شوية جزر ، حبش بقى تحبيشه على كيفك ، هو انا ح اوصيك .

— خليها على الله .

وهكذا ينتهي من الخضرى ، ثم يميل بجسده إلى الاتجاه الآخر فيواجه محروس الجزار فيلمح صبيه وقد أخذ يعلق اللحوم فيصيح به :

— واد يا عكشه .. أمال فين المعلم ؟

ويحييه المعلم محروس صائحا من داخل الحانوت :

— صباح الفل يا حاج .

— صباح الدوش ، وبيت الكلاوى .. إنت مالك مستخبى النهارده كده عامل زى الست المزيره . اظهر وبان عليك الأمان .

وبرز المعلم محروس بجسده الضخم ووجهه الأبيض الأحمر ، وجلبابه الطويل الملوث بآثار الدماء وهو يهلل صائحا :

— أهلا وسهلا .. يا مرحبا .. لازمك إيه النهارده ؟

— عايزك تنقى لى حته من الموزه . حته ضانى مشفيه ، أحطها على صينية تورلى ، وعايز كام ريشه .. بس وضيهم على كيفك .

— حاجه تانيه ؟

— لا .. كفايه كده .

— أنا حابعتلك شوية ممبار وحتة مخ ، وبكره اعمل حسابك حاجهز لك شوية كوارع على كيفك .

— يا سلام عليك .. تعجبنى فى توضيباتك .

— أقل ما فيها يا حاج .. دانت خيرك علينا كلنا .. أأمر بس .

— عشت يا معلم .

ويحول الدفة بعد ذلك إلى اليمين قليلا فيغدق تحياته على الحاج معتوق تاجر الزبدة ويخبره أنه كان يوشك أن يأكل أصابعه وراء الزبدة عندما وضعها على الفول .

وهكذا لا تمضى بضع دقائق حتى يكون السيد على قد قضى حوائج الدار وهو جالس فى مكانه ومبسم الشيشة بين شفتيه يشد منها النفس تلو النفس وهى تكركر كأنما تجاوبه الضحكات .

ولا يشعر السيد على أنه محروم من شىء .. فهو يرى أحفاده الثلاثة كل يوم عند عودتهم من مدرسة محمد على ، وينعم بتدليلهم والحديث إليهم والضحك معهم ويمنح كلا منهم قرشا قبل أن ينصرف .. أما ولده أحمد ـــ أو أحمد أفندى بعد أن أصبح موظفا ـــ فهو يراه كل أسبوع عندما يحضر يوم الجمعة لتناول الغداء معه هو وزوجته وأولاده فى الدار .

ولاشك أن خير ما يكشف لنا عن سر ذلك الهدوء والنعيم الذى كان يشيع فى نفس « السيد على » ، هو ذلك الحديث الذى دار بينه وبين « الحاج معتوق » عندما كان الأخير يفضى إليه ذات مرة بهمومه ، ويشكو من مرارة الحياة .

قال السيد على وهو يهز رأسه وقد شاعت فى وجهه ابتسامة ملؤها الإيمان :

ـــ الحياة حلوة يا حاج معتوق .. إن المرارة فى أفواهنا ، ومن كانت المرارة فى فيه فإنه « يجد مرا به الماء الزلالا » الحياة سهلة لمن لا يركب الصعب .. مستقيمة لمن لا يعوج ولا يلتوى .. هينة لمن يخلص .. لينة لمن يؤمن .

خذنى مثلا يا حاج معتوق . لقد مضى على عشرون عاما وأنا جالس فى مقعدى .. لقد توقفت أنا ، ولكن الحياة لم تتوقف .. لقد سار كل شىء بهدوء فى مجراه الطبيعى .. كأحسن ما يكون .. تزوجت امرأة طيبة .. ليس فيها من عيب سوى أنها لا تضحك ولا تتكلم .. لا بأس عليها .. سأضحك أنا وسأتكلم .. أنا أنجبت منها ابنا حبيبا .. من خير الأبناء .. عيبه الوحيد هو شدة شبهه بأمه .. عبوس صامت .. لا عليه .. لقد ذهب إلى المدرسة ، ونجح وتخرج فى المدرسة ، وأخذ الشهادة ، وأضحى موظفا ، وتزوج ، وأنجب أطفالا .. كل هذا وأنا جالس هنا .. أضحك ، وآكل ، وأتحدث ، ولا أحمل هما . لقد أنجبت ابنا وأحفادا أحب إلى من نفسى .. ماذا كنت أستطيع أن أفعل أكثر من هذا ؟

إن الحياة حلوة يا حاج معتوق .. دعها تسير ، ودعها تكيف نفسها كما شاءت ، لا تعقدها فإنها بطبيعتها سهلة .

* * *

تلك هى فلسفة السيد على وذلك هو سر بشاشته وهدوء باله وطمأنينة نفسه .. هو يجلس ، ويترك الحياة تسير هينة لينة سهلة ، فى مجراها الطبيعى .

ولكن هل طبيعة الحياة حقا تجرى سهلة ؟! أم أن ذلك منها محض خدعة ومحض إغراء ؟

ترى ماذا حدث بعد ذلك لحياته السهلة المستقيمة ؟

عثرة بسيطة ، والتواء من التواءات الحياة .. لقد حادت الحياة فجأة عن طريقها المستقيم .. فأجبرته على أن يركب الصعب .

أجل .. لقد مات ابنه .. أو على حد تعبيره .. زلت قدمه فى معبر الحياة فهوى إلى الفراغ .

لا يهمنا كيف مات ، ولكن الذى يهمنا هو كيف أضحى السيد على بعد أن مات ولده الحبيب .

لقد ذعر فى بادئ الأمر كما يذعر إنسان يفاجأ بصرخة أو لطمة وهو يجلس فى هدوء ، ولكن لم تمض بضعة أيام حتى بدأ يتجلد ويتمالك ، واتخذ مجلسه فى الحانوت مرة أخرى محاولا الضحك والحديث .. كأن لم يحدث شىء .. أو كأنه نوى أن يرغم الحياة على أن تعود سهلة هينه .

وجلس إليه الحاج معتوق يعزيه ويطيب خاطره .

وضحك السيد على قائلا :

— كلنا لها .. إنى لم أتعب فى شىء .. لقد جلست هنا وتركت الحياة تجرى ، ولقد أخذه الذى وهبه لى .. أليس للمعطى الحق فى أن يسترد ما أعطى ؟

وهز الحاج معتوق رأسه متعجبا من قوة جلد الرجل . لقد كان يتحدث عن ابنه وحشاشة كبده كما يتحدث عن رغيف خبز أو قطعة نقود .

وهكذا لم يكف السيد على المهياص عن الضحك والمهيصة ، وبدا للناس أنه قد قهر الحياة ولوى عنانها لتعود إلى الطريق المستقيم .

وقد يكون الرجل استطاع ذلك حقا ، ولكن بأى ثمن ؟!!

إنه ابنه الوحيد .. ثمرة خمسة وثلاثين عاما من الجهاد الصامت .. ابنه الحبيب العزيز .. الطيب الحنون الكامل . الذى لم يزل لسانه بعبث مرة واحدة .. كيف يهون عليه أن يفقده فى غمضة عين ..؟

وزاد هزال الرجل يوما بعد يوم . ووهنت قواه ، وهو ما زال يضحك ويغنى .. حتى كف ذات يوم عن الضحك والغناء .

لسبب واحد :

هو أنه لم يكن يستطيع الضحك ولا الغناء ، ولا حتى الحياة !..

وشيعت جنازته بالبكاء والعويل .

وبدا البكاء والعويل نشازا فى جنازته ، وهو المهياص الذى لم تنبس شفتاه يوما بغير الضحك والغناء ، وسارت الجنازة من ميدان السيدة إلى مدافن الإمام .

وفى الطريق خف البكاء وخفت العويل ، وأخذت الجنازة فى الاقتراب من المدفن عندما لاحت على جانب الطريق — فى إحدى الدور القريبة من المدفن — أعلام خضر وعلائم زينة .. احتفالا بعرس .

ودقت الطبول .. وصدحت الموسيقى .. وانطلقت الزغاريد .

والنعش يهل على مدخل المدافن ويشرف على قبور الموتى ..!

وهكذا خرج المهياص من الحياة — كما عاش فيها دائما ، تحف به مواكب الضحك والسرور ، وبدا كأن الأحياء أبوا إلا أنه يشيعوه بالزغاريد أو كأن الموتى يستقبلونه بدق الطبول ونفخ المزامير .

ولو استطاع الرجل أن يزيح غطاء النعش لأطل برأسه على القوم وهتف بهم :

« دقوا الطبول ودقوا .

« إنها فرحة اللقاء .

« لقاء الغائب الميئوس من لقائه فى أرضكم الفانية ..!

« أيها البائس المحزون .. خل عنك .. ليس فى الحياة ما يستحق العناء .

« كلنا إلى التراب نصير .. أو إلى السماء نطير .. فأرح نفسك ، ودع الحياة تسير » .

يا أمة ضحكت

الإهـــداء

إلى الحمير الكبار ...

أهدى كتابى هذا ...

فمنهم قد استلهمت وحيه .. واستوحيت حكمته .

ليتهم يقبلونه .. ويقرأونه .. ويفهمونه .. ثم يستحون .. ويعقلون ويندمون على ما يفعلون ..

أيها الكتاب .. ألا هل بلغت ؟!

لا أظن .. فما من حمار منهم سيعترف بأنه حمار ..

واحسرتاه على الإهداء .. لقد ذهب هباء فى هباء .

« يوسف السباعى »

مقدمة

تعودت عندما أطبع كتابا أن أبدأ الكتاب من الملزمة الثانية . أعنى أن يبدأ أوله من الصفحة التاسعة تاركا الثمانى صفحات الأولى لعنوان الكتاب وللأهـداء والمقدمة ... وغير ذلك من « التحابيش » التى تعود الكتاب أن يرصعوا بها كتبهم كأقوال الشعراء وحكم الحكماء ، التى تمتُّ — أو قد لا تمتُّ — إلى كتابهم بصلة ... ولكنهم يضعونها لمجرد الوهم .

وفعلت بكتابى هذا ما تعودت أن أفعل .. وانتهى عبد السلام من جمع الكتاب وطبعه .. ولم يبق إلا الملزمة الأولى .. وبدأ إلحاحه على بأن أسعفه بالإهداء والمقدمة حتى ينتهى من الكتاب وينفض يده منه .

وأخذت أفكر فى الإهداء ..

ترى لمن أهديه ؟ ..

إلى أبى ؟..

انه يستحق منى أن أهدى إليه — لا كل كتاب — بل كل كلمة أكتبها .. فما أرانى إلا بقية منه .. أو تتمة له .. وما تحرك قلمى للكتابة إلا بفضله .. وما تأثرت فى حياتى بشىء كما تأثرت بكتابيه : الصور ، والسمر .

ولكنى سبق أن أهديت إليه كتابى الأول « أطياف » وأخشى أن يمل منى كثرة الإهداء .

إلى من إذا أهديه ؟.

إلى أحد كبار الكتاب ؟.. ولكنى أخشى أن أتهم بالتملق ...

وأخيرا فتح الله بالمُهْدَى إليه .. وأرشدنى إلى صاحب الفضل الأول على فى هذا الكتاب وأنا شخص لا أنكر الفضل على أصحابه .. فقد سبق لى أن أهديت كتاب نائب عزرائيل .. إلى عزرائيل .. فلم لا أهدى كتابى هذا .. إلى الحمير الكبار ؟!

وانتهيت من الإهداء .. وبقيت المقدمة .. وعاد عبد السلام يستحثنى .. وجلست لأكتب .. فإذا بى أصاب بعسر تفكير .. وإذا الذهن والقلم قد أضربا عن الكتابة .

وعبثا حاولت أن أكتب المقدمة .

وجلست أفكر فى حل المسألة .. فخطر لى خاطر .. لم أشك فى أنه سيخرجنى من ورطتى .. بل ويمكننى من إصابة عصفورين بحجر .

لم لا أطلب إلى أحد كبار الكتاب أن يقدم لى الكتاب ، فأستفيد من تزيين الكتاب باسمه .. وأستفيد من بعض كلمات المديح التى لاشك سيخلعها على وأخيرا يوفر على مشكلة التقديم .

وبدأت أستعرض الكتاب .. لأنتقى منهم واحدا .

وقفز إلى ذهنى اسم « توفيق الحكيم » .. فهو أحبهم إلى نفسى وأقربهم إلى قلبى .. وقلت : إن الرجل كما يبدو من كتابته .. لطيف ذكى ، كريم ، خفيف الدم .. وهو لاشك سيقدم لى الكتاب عن طيب خاطر .

ولم تكن لى به معرفة شخصية . فذهبت إلى صديق لى وله .. وأنبأته بما أريد .. فهز رأسه فى أسف وأخبرنى أنى مخدوع فى صاحبنا ، وحذرنى — وهو صديق له — أن أذهب إليه أو أطلب منه شيئا .

وظننت الصديق على خصام مع الكاتب الكبير ، فذهبت إلى آخر لم أشك فى أن العلاقة بينهما على خير ما يرام .. فأجابنى الصديق بأن كاتبنا الكبير لا يتحرك إلا بالنقود .. وأننى إذا أعطيته مائة جنيه فإنه لاشك سيرحب بكتابة التقديم .

وضحكت .. وقلت للصديق : إنه لو كان لدى مائة جنيه لوفرت على نفسى

مشقة الكتابة .

وفكرت بعد ذلك فى « المازنى » .. وهو أكرم الكتاب ، وأدمثهم خلقا ، وأكثرهم تواضعا .. وعلاقتى به على خير ما يرام .. ولكنى لم أشك فى أن الرجل مشغول .. وأنه لن يجد من وقته متسعا لقراءة الكتاب .. وأنه قد يقدم الكتاب — مجاملة لى — دون أن يقرأه .

وفكرت فى « العقاد » .. فخشيت أن يشتمنى فى مقدمة كتابى . وفى « طه حسين » فخشيت أن يحتاج لجزء أول يكتب فيه المقدمة .. على أن يكون كتابى الجزء الثانى أو لا يكون بالمرة ...

وفكرت فى « عباس حافظ » .. وهو أكثر الكتاب صلة بى .. فقد كان صنو أبى .. ولكنى خشيت — من فرط حبه لأبى وإخلاصه له — أن يكتب المقدمة عن أبى وليست عنى ولا عن كتابى .. فأضيع أنا بين الخلين الوفيين .

وفكرت فى « زكى مبارك » .. وهو صديق أبى أيضا ، ولكنى لم أشك فى أنه سيكتب المقدمة لا عن أبى ، ولا عن الكتاب .. بل عن نفسه .

وأحسست فى النهاية بيأس شديد .. ونظرت إلى قلمى وقلت :

« عيب .. اختشى . اكتب أحسن لك .. فما حك جلدك مثل ظفرك ..

ما لك ولكبار الكتاب تستعين بهم على تقديم ما كتبت .. لو كان فيما كتبت خير .. فما بك من حاجة إلى من يقدم لك .. ولو كان به سخف .. فماذا تجديك القشرة البراقة .. تكسو بها اللباب الأجوف » .

* * *

ولكن ما بالنا قد شغلنا حين المقدمة فيما لا علاقة له بالمقدمة أو الكتاب .

أيها القارئ .. عذرا .. فما عاد هناك مكان لكتابة شىء ، فإليك الكتاب .. اقرأه .. واكتب أنت ما شئت من تقديم .

والسلام عليكم ورحمة الله .

« يوسف السباعى »

يا أمة ضحكت

أما الجهل المركب ... فمصابه ثقيل ... فهو جهل أولئك الذين لا يظنون بنفوسهم جهلا ... أولئك القادرون المسيطرون المترفعون ... المتكبرون ... الذين يكسون أنفسهم طلاء زائفا من الفهم والذكاء ... ويبهرون غيرهم بمظهرهم الكاذب الخادع فيتولون أمر سواهم ، ويتحكمون فى مصاير غيرهم ... والجهل فى باطنهم متأصل متحكم .

أبطال قصتنا تسعة !!

الوقت قبيل الغسق .. وقد وقف أبطالنا صفا واحدا فى وسط الميدان .

لم يكن الميدان ميدان معركة .. بل كان ميدان المذبح وقد اصطف أبطالنا : تسعة حمير .

السكون سائد .. والجميع منهمكون انهماكا تاما فى الشرب وقد مدوا أعناقهم وغمروا أفواههم فى الحوض .. وأخذوا يعبون المياه فى لذة وتنعم .. وقد لوثت بقايا الطعام فى أفواههم مياه الحوض فعكرتها وطفت على سطحها بقايا التبن والنخالة .

وحول الحوض تناثرت أعواد البرسيم وكثرت أكوام الروث .. ووقف بضعة رجال متكئين على عرباتهم الكارو يتبادلون رواية النكات ويشد بعضهم أنفاسا من جوزة فى يده .

وبمنأى من القوم جلس رجل على حافة الحوض فى صمت وسكون .. وقد

بدا عليه الهدوء وشرد ببصره فى مياه الحوض . وبدا به شبه كبير بزملائه التسعة .. لا ينقصه سوى أن يدفع بفمه فى المياه وينزع عنه ذلك الطرطور الأحمر الذى يزين به رأسه ويركع على أطرافه الأربعة .

كنت أقطن فى ذلك الوقت شارع زين العابدين .. وتعودت أن أراقب هذا المنظر فى كل مغرب وأنا أجلس فى مكمنى على القهوة الواقعة على ناصية الميدان .. ولقد طال عهدى به حتى ألفته .. ولم يعد يستغرق منى أقل تفكير .. أو يسترعى منى أى التفات .. اللهم إلا شيئا واحدا .. هو الذى ظل يسبب لى بعض التساؤل من حين لآخر ، وهو : ماذا يبيع الرجل ذو الطرطور الأحمر ؟

لقد كنت أبصر به دائما وقد وضع على حماره خرجين فارغين .. وخطر لى أن الرجل تاجر واسع الرزق ، يجبر بضاعته فى نهاية يومه ، فلا يبقى منها شىء . ولكن تصادف أن لقيته فى أوقات مختلفة من النهار فوجدته كما هو بخرجيه الفارغين يسير بحماره صامتا لا يصدر منه أى نداء يستدل منه على نوع بضاعته .

وكان الرجل غريب المنظر ، كبير الأذنين ، مستطيل الوجه ، بارز عظام الوجنتين ، عريض الفكين ، واسع الفم .

حاولت كثيرا أن أراه بعين الوهم وقد علق فى وجهه — البشلك — ووضع فى فمه اللجام .. فلم أجد فى ذلك غرابة ، فقد كان الرجل من فرط الشبه بالحمير .. يوحى إلى الناظر إليه بأن الغرابة هى فى أن يسير الرجل على قدميه فقط .. وفى ألا يكون له حوافر بدل الأظافر ، وفى أن ينطلق فى الطرقات وحيدا لا يقوده إنسان .

وجلست أرقب الحمير التسعة وقد انتهوا من رى ظمئهم وبدأوا يعبثون بشفاههم فى الماء ويتشاغلون بالمشاغبة بالأفواه والأرجل ، وأحس صاحبنا الجالس على الحوض أن حماره قد انتهى من الشرب ، وأن وضعه فمه فى الماء ليس إلا من باب اللهو وتضييع الوقت .

وجذب الرجل حماره من حبل فى عنقه قائلا :

— لا وقت عندنا .. للعبث الليلة ..

ولم يبد الحمار أقل مقاومة بل كف عن العبث فى الماء ، وتبع صاحبه صاغرا .. ورفع الرجل صوته بالتحية وصاح مودعا : السلام عليكم .

ولم تكن تحية الرجل موجهة إلى الرجال .. ولا أجابه عنها الرجال فقد ألقاها إلى التسعة الحمير ، ورفع الحمير رؤوسهم عن الحوض .. ثم خفضوها ثانية كأنهم يجيبون على الرجل تحيته . وسار الرجل يتبعه حماره متجها إلى الشارع المؤدى إلى جبل الجيوشي حيث تقوم فى نهايته بضعة عشش تجاور « الأماين » التى يحرق فيها الجير . ومر الرجل فى طريقه بالرصيف الذى أجلس عليه أمام القهوة . وأحسست بدافع قوى يدفعنى إلى أن أستطلع ما خفى من أمر الرجل ، وأن أحاول معرفة ما يبيع . فلم يكد يقترب منى حتى صحت به :

— تفضل ...

ورفع الرجل رأسه إلى فى بطء وبلادة وقال فى هدوء :

— عشت ...

وواصل السير فى طريقه ، دون أن يحاول التوقف . فعدت ألح عليه :

— والله تتفضل ...

وتباطأ الرجل فى سيره حتى توقف . فقد أثرت فيه كلمة « والله » وعاد يكرر اعتذاره :

— عشت ، يا سيدى ، عشت .. سامحنى الليلة فإنى على موعد هام .. لنؤجل الدعوة إلى فرصة أخرى .. غدا إن شاء الله .

وكنت قد نهضت من مقعدى واقتربت منه ومددت يدى أشد على يده محييا .

ولم يخف الرجل تعجبه من هذا الإقبال منى عليه .. ورأيته يعاود السير فى طريقه .. وكنت قد صممت فى نفسى على أن أكشف أمره ، ولم يكن لدى ما يشغلنى ..

ووجدت الرجل مبعث تسلية فسرت بجواره . وحدثته متسائلا :

— أى موعد يا ترى هذا الذى يشغلك عنا الليلة ؟!.

— حلقة ذكر مع بعض الإخوان .

— ما شاء الله .. أتذهب إلى حلقة الذكر يوميا ؟!.

— كل يوم خميس .

— أين ؟

— فى سيدى الماوردى .

وأكسبت صوتى رنة الاحترام والخشية ، وقلت :

— عليه رحمة الله ورضوانه ... هل يمكننى مرافقتك إلى الحلقة حتى تحل على بعض البركات ؟

— بالطبع يمكنك .. وخاصة أن حلقة الليلة حلقة حافلة جامعة بمناسبة المولد .. مولد سيدك الماوردى .

ولم يعجبنى من الرجل أن يفرض على سيادة الماوردى .. ولكنى لم أملك سوى مداراته فقلت له :

— كل سنة وأنت طيب .

وبدأت أتجه إلى الغرض الذى أبغى الوصول إليه ، فأردفت قائلا :

— الظاهر أنك تاجر ماهر يا عم ..؟

— محسوبك أبو جهل .

— أبو جهل !؟

ونظر إلى الرجل منكرا على دهشتى ، وعاد يكرر :

— أجل ! أبو جهل .. أية غرابة فى ذلك !..

— أبدا .. أبدا لا غرابة ألبتة فى ذلك .. كنت أقول إنه يبدو أنك تاجر ماهر ، وأن تجارتك رابحة !..

— هى فعلا كذلك .

— إن لك زبائنك الذين يعرفونك ويقبلون عليك .. فما رأيتك تتعب

نفسك بالنداء على بضاعتك كما يفعل سواك من الباعة !

— إن كل الناس زبائنى .. وكلهم يقبلون على .. ما حاجتى إلى أن أتعب نفسى بالصياح وهم يعرفوننى خير معرفة .. ويحتاجون إلى أشد الحاجة ..

كل هذا ولم أعرف من الخبيث بعد ماذا يبيع ولا استطعت الوصول إلى غرضى وهو معرفة نوع بضاعته .

ونظرت إلى الرجل ، ثم إلى الحمار ، ثم إلى الخرجين الفارغين وقلت متضاحكا :

— الظاهر أننى رجل جاهل .. فما عرفتك بعد .. وما عرفت بضاعتك وما شعرت بحاجتى إليها .

— إنك كذلك .. أغلب الظن أن بضاعتى متوافرة عندك .. ولكن أؤكد لك أن المزيد منها سيصلح حالك .

ودهشت من الرجل الحمار الذى وافقنى ببساطة على أنى رجل جاهل ، بدلا من أن يقول : العفو يا سيدى .. أنت سيد العارفين .. إن بضاعتى هى .. كذا .

وقلت له فى تهكم ظاهر :

— وما هى بضاعتك يا عم أبو جهل ؟

— جهل !!

— جهل ؟!!. بضاعتك هى الجهل ؟.. أنت تبيع الجهل ؟.

— ماذا يدعوك إلى الدهشة .. أبو جهل يبيع الجهل ويحمله فى خرجين فارغين فوق حمار .. أية غرابة فى ذلك ؟ أنا رجل صريح . مكشوف .. أم ترى لابد من النفاق والمواربة ، فأسمى نفسى الشيخ عبد العليم ، وأضع بضاعتى فى الصحائف والكتب .

ونظرت إلى الرجل نظرة نافذة مستكشفة ، وقلت لنفسى : هذا الرجل لابد أن يكون أحد اثنين : إما ماكر يتخابث على ويحاول أن يجعل منى موضع هزء

وسخرية ، وإما أبله مجنون يعتقد فعلا أنه يبيع الجهل .. وسواء أكان الرجل هذا أم ذلك فإنى لم أستطع أن أمنع نفسى من السير معه أو مجاراته فى الحديث . فقد وجدت به طرافة وتسلية ، وعدت أقول له مستدرجا إياه فى النقاش :

— ولكن لمن تبيع الجهل ؟

— قلت لك : كل الناس زبائنى ، وكلهم يقبلون على .

— ولكنى كنت أظن أن لدى الناس من الجهل ما يكفيهم .. وما يجعلهم فى غير حاجة إلى بضاعتك .

— وإنهم لكذلك .. ولكنهم لا يشبعون من الجهل أبدا . هم طماعون يريدون دائما أن يزدادوا جهلا فوق جهل .

— لابد أن خير أسواقك التى تصرف فيها بضاعتك كائنة بين الرعاع وحثالة الشعب !

— إن خير زبائنى هم فعلا حثالة الشعب .. ولكنى لا أظنك تقصد بحثالة الشعب.. ما أعنيه أنا بحثالة الشعب ، فنحن مشتركان لفظا ، ومختلفان معنى ، ماذا تعنى بحثالة الشعب ؟

— أولئك الجهال الأميون الذين يرتعون فى الجهالة .

— ما زلنا متفقين فى الألفاظ .. قل ماذا تعنى بالجهال الأميين الذين يرتعون فى الجهالة .. فسر أكثر .

— أعنى أولئك الفقراء الذين لا يملكون أجر تعليمهم ، والذين ..

— كفى . أنت جاهل . لقد كنت أعرف أن هذا ما تعنيه . لا .. لا إننى لم أعن بحثالة القوم أولئك الذين تعنيهم .. بل أعنى النقيض .. إن حثالة القوم عندنا هم الطرف الآخر .. الطرف الأغر .. الطرف العظيم الغنى .. الذى يرتع فى بحبوحة من العيش والنعيم .. والجهالة والأمية .

— أنا الجاهل يا أبا جهل ؟.. الجهل والأمية لا يوجدان إلا حيث يوجد الفقر .. إن أسواقك الرائجة هى « سيدى زينهم » و « عشش الترجمان » وفى

القرى والأرياف .

ـــ لا .. لا .. الجهل يا سيدى الذى تتحدث عنه هو أبسط أنواع الجهل .. وتلك الأمية هى أخف أنواع الأمية . إنى أقصد بالجهل : الجهل المركب .. وأعنى بالأمية .. الأمية المركزة .. أمية الروح وأمية الذهن .. أنا أدرى منك بأنواع الجهل .. فتلك هى تجارتى وبضاعتى التى ورثتها من الآباء والأجداد .. إن الجهل مقسم لدينا نحن تجار الجهل ثلاثة درجات : الجهل البسيط .. والجهل المركب .. ومنتهى الجهل !

وأحسست من حديث الرجل أنه أعمق مما أتصور ، وأن الرجل لابد أن يكون جاهلا حكيما ، أو حكيما جاهلا .

وكنا قد وصلنا فى تلك اللحظة إلى دار الرجل .. وهى كوخ قد بنى من الطين والصفائح الفارغة ، علته سقيفة من جريد النخل .. وتوقفنا عند باب الكوخ .

وكرهت أن أفارق الرجل .. وأن نقطع حبل الحديث الشائق الذى دار بيننا فأحرم من آرائه العجيبة عن الجهل والجهال .

ونظر الرجل إلى ثم دفع الباب بقدمه ، وقال لى :

ـــ تفضل يا سيدى .

ـــ أنا لا أريد مضايقتك .. ويخيل إلى أن الأفضل أن أتركك الآن وأعود إليك بعد برهة لنذهب سويا إلى « حلقة الذكر » .

ـــ تفضل يا سيدى .. فلست أرى معنى لقولك إن وجودك يضايقنى اللهم إلا إذا كنت تأنف من دخولك جحرى .

وكان قوله كافيا لكى يزج بى معه إلى داخل العش دون أى مناقشة أو اعتراض ، فما كنت بالشخص الذى يأنف ويتكبر .

دلفت مع الرجل إلى الداخل ، فوجدت المكان قد شملته ظلمة معتمة .. وبعد برهة تعودت عينى الظلمة .. وأشعل الرجل مصباح غاز فبدد الظلمة تماما .. واستطعت أن أميز كل ما حولى ..

كان المكان عبارة عن حجرة ضيقة فرشت أرضها بالحصير ، ووضع فى أركانها زير ملىء بالمياه . ورأيت الحائط وقد غطى بلافتات مليئة بالحكم والأمثال ، وفى أسفل الحائط كوم من الكتب المكدسة ذات الورق الأصفر ، وصندوق خشبى مغلق .. وفى ركن من أركان الحجرة وضع مشجب عليه جلباب وفوطة .

وسألنى الرجل الجلوس ، ولم يكن هناك ما أجلس عليه ، فتربعت على الأرض ، وفتح الرجل الصندوق الخشبى وأخرج منه وابور سبيرتو ، وكنكة ، وعلبة صفيح صغيرة ، وفنجانين وفرشاة كبيرة . ولم أشك فى أن ما أخرجه الرجل هو عدة القهوة ، ولكن الفرشاة الكبيرة حيرتنى بعض الشىء .

ودفع الرجل إلى بما أخرجه من الصندوق . عدا الفرشاة التى احتفظ بها لنفسه ، وقال لى شبه آمر :

— اصنع لى ولك فنجانين من القهوة .

ولم يكن هناك مجال للرفض خاصة وأنه يسألنى أن أصنع له هو فنجانا من القهوة ، وتركنى فى الحجرة وخطا نحو الباب ولمحته فى الخارج يربت على ظهر حماره ويحدثه قائلا :

— لدينا اليوم ضيف يا زكى ما رأيك فيه ؟..

وصمت الرجل برهة كمن يتلقى من الحمار ردا .

ثم رأيت أساريره تنبسط وفرك يديه فى سرور وقال للحمار :

— تماما .. لم أكن أشك فى أنه سيعجبك كما أعجبنى .. أجل .. أجل .. إنه كما تقول : حمار كبير .

ورفعت بصرى إلى الرجل الذى يوجه إلى السباب ببساطة كأنه يمتدحنى ، ولكن وجدته منهمكا فى الحديث مع الحمار فلم يسعنى إلا التجاوز عن حديثه والتشاغل فى صنع القهوة .

ورفع الرجل الخرج : خرج الجهل ، من فوق ظهر الحمار ووضحت لى عند

ذاك فائدة الفرشاة التى أخرجها من الصندوق فقد رأيته يقبل على الحمار فيدلك جسده جيدا بالفرشاة ويزيل منه الأتربة والقاذورات ، وكان لا يفتأ يوجه إليه الحديث بين آونة وأخرى .

قال الرجل للحمار :

ـــ اليوم مولد سيدك الماوردى .. ولا أظن بك كثير رغبة فى الذهاب معه .. سأذهب بك الآن إلى الزريبة لتبيت مع أصحابك . لا تنس أن تبلغهم تحياتى . وقل لنبيه إن الحدوة التى طلبها منى سأحضرها له فى الغد . أما فهيم فإنى لم أستطع بعد أن أعثر له على الجلاجل .. قل له انتظر بضعة أيام .

وصمت الرجل برهة أخذ ينفض خلالها الفرشاة مما علق بها من الأتربة ، ثم عاود التدليك وأردف قائلا :

ـــ سيرافقنى صاحبنا إلى حلقة الذكر ، ثم إلى المولد .. الظاهر أنه شديد الجهل بالجهل وفنونه .. سألقنه اليوم بعض دروس فى الجهل مجانا لوجه الله .. إذ يبدو لى أنه رجل طيب وقد ينفعنا فى يوم من الأيام .. فعندما أموت لاشك أنكم ستكونون فى حاجة إلى زعيم يتولى أمركم . من يدرى ربما يصلح صاحبنا ليكون خليفتى !

وأقول الحق أنى شعرت فى قول الرجل بشىء من الكبرياء .. وسرنى أن أرشح خليفة لزعيم .. أى زعيم ، ولو كان زعيما للحمير .

وكنت قد انتهيت من صنع القهوة ، وأفرغت لنفسى فنجانا ، وللرجل فنجانا ، وصحت به أعلنه أن القهوة جاهزة ، وكان قد انتهى من تدليك حماره ، فأقبل على يشاطرنى القهوة .

وانتهينا من شرب القهوة ، وقام الرجل إلى الصندوق فأخرج منه شالا تلفع به وقال لى :

ـــ هيا بنا .. سنمر على الزريبة فنترك زكى ، ثم نذهب بعد ذلك إلى الجامع .

ولم تكن الزريبة تبعد قليلا عن كوخ الرجل .. ووجدتها زريبة لتربيـــة

الخنازير ، بها جناح لنزول الحمير .

وكان على بابها حارس حياه أبو جهل ، وسلم له الحمار قائلا :

— خذ بالك منه جيدا يا عيد . لقد أطعمته وسقيته ، وإذا كان عندك بعض التين فأعطه يتسلى .

ثم وجه القول للحمار قائلا :

— زكى ، إياك والشقاوة ، إذا رفسك فهيم فلا ترد عليه وسأعرف كيف أؤدبه .

وفى الطريق عدنا إلى حديثنا عن الجهل ، فقلت له متسائلا :

— لقد قلت لى إن أنواع الجهل ثلاثة : بسيط ، ومركب ، ومنتهى الجهل ، فماذا كنت تعنى بذلك ؟

ورفع الرجل طرطوره الأحمر وهوى به على رأسه برهة ، ثم بدأ يشرح قائلا :

— الجهل البسيط ، يا سيدى ، هو أسهل أنواع الجهل وأخفها ضررا ؛ وهو جهل لا يتجاوز ضرره صاحبه ولا يتعداه إلا إلى نطاق ضيق حوله .. هو جهل أولئك السذج البسطاء .. جهل يسهل إزالته والتخلص منه .

أما الجهل المركب .. فمصابه ثقيل .. فهو جهل أولئك الذين لا يظنون بنفوسهم جهلاءأولئك القادرون المسيطرون المترفعون ، المتكبرون ، الذين يكسون أنفسهم طلاء زائفا من الفهم والذكاء ، ويبهرون غيرهم بمظهرهم الكاذب الخداع فيتولون أمر سواهم ويتحكمون فى مصاير غيرهم ، والجهل فى باطنهم متأصل متحكم .. أجل إن أصحاب الجهل المركب هم أول المسئولين عن الجهل البسيط ، فهم يجدون منه غشاوة تعلو أبصار الناس لتحجب عنهم جهلهم المركب .. الجهل المركب يا سيدى هو جهل الحكام وأولى الأمر المتخبطين فى ظلمات الجهالة .. الذين يتعدى ضرر جهلهم أنفسهم إلى الآلاف بل الملايين غيرهم .. لعلك عرفت الجهل المركب. إنه أصل الجهل البسيط .. وهو أصل كل داء وكل علة .

وفهمت ما يعنى الرجل وهززت رأسى موافقا .. فما سمعت قولا أحكم من هذا القول .

وساد بيننا الصمت برهة ، ثم قاطعته متسائلا :

— ومنتهى الجهل ماذا يكون ؟!

— منتهى الجهل يا سيدى هو ذلك الشىء الناتج عن منتهى العلم .

— تقصد أن منتهى العلم ينتج عنه منتهى الجهل ؟.. أى أن منتهى العلم ومنتهى الجهل متساويان ؟

— بالضبط .

— لا .. لا .. يا أبا جهل .. إلى هنا .. ولا أوافقك . إن قولك هذا هو منتهى التخريف .

— أشكرك .. ألم أقل لك إنك ما زلت جاهلا بأصول الجهل ، سأضرب لك مثلا أعلمك به منتهى الجهل . هل تسمع عن القنبلة الذرية ؟

— بالطبع ..

— ما رأيك فى مخترعها ؟.

— منتهى العلم .

— هل تعرف الكسكسى ؟

ولم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك .. وأجهدت رأسى فى أن أجد وجها للشبه بين القنبلة الذرية والكسكسى فلم أستطع ، وأجبت الرجل ضاحكا :

— طبعا أعرف الكسكسى .

— ما رأيك فيمن يصنع حلة كسكسى ويتركها يومين حتى تتسمم ثم يبيعها للناس فيقتلهم زرافات ووحدانا .

— منتهى الجهل !

— ما رأيك فيمن يحمل ميكروب الكوليرا فيصيب به بلدة بأكملها ويبيد سكانها ؟

ـ منتهى الجهل !

ـ ألا ترى أن نتيجة منتهى العلم تتساوى مع نتيجة منتهى الجهل ، وهى الإبادة والفناء .. هل تعرف أن منتهى العلم قد أضحى هو نفسه منتهى الجهل .

هل تعلم أن أقدر الناس فى هذا العالم وأعظمهم شأنا أولئك الذين يترأسون الدول ويتحكمون فى مصاير البشر هم أشد الناس جهلا بحقائق الأمور .. وهل هناك أكثر جهلا من أولئك الذين يلقون بأنفسهم وببلادهم إلى التهلكة بزعمهم أنهم يقودونهم إلى سلام دائم وعالم أفضل .

ألا يدرك هؤلاء الحمقى أنهم عندما يصلون فعلا إلى ذلك العالم الأفضل الذى يبغون تحقيقه بطريقتهم لن يكون قد بقى من البشر من يعيش فيه ؟

ألا ترى معى أن منتهى العلم قد تساوى مع منتهى الجهل ؟

وكنا قد وصلنا فى تلك اللحظة إلى جامع الماوردى .. أو على الأصح زاوية الماوردى .. فخلع الرجل نعليه ، وحذوت حذوه .

ثم دلفنا إلى داخل الجامع ، وكان المكان حول الجامع قد غص بعربات الباعة المتجولين ، وتناثرت المراجيح هنا وهناك ، ودقت الطبول والزمور وعلقت الزينات .

وانحشرت وصاحبى بين صفوف المصلين الذين ضاقت بهم الزاوية .. وأخذنا نركع ونسجد ونسبح ونتمتم .

وانتهينا من الصلاة ، ومضت فترة غير وجيزة كان الجمع يستعد خلالها للذكر .. وأخيرا وقفنا واصطففنا فى حلقة ، ورأيت واحدا من الجمع تبدو عليه مظاهر الرياسة قد بدأ يغمض عينيه ، ويجعد وجهه ، ويهز جسده ذات اليمين وذات اليسار ، ثم يصيح منشدا بصوت أخذ يعلو رويدا رويدا حتى صار صراخا .

واستطعت أن أتبين من أقواله المدغمة أنه ينشد بعض أناشيد الذكر . وصمت الرجل ، ثم رأيت القوم قد أغمضوا عيونهم ، وبدأوا يترنحون ذات اليمين وذات

اليسار ، منشدين فى صوت مبحوح :

— الله حى .. الله حى .

وأغمضت أنا الآخر عينى وأخذت أقلدهم .. وكنت أفتح عينى من آن لآخر لأرمقهم وقد اشتدت بهم الحماسة وتهدجت أصواتهم ونظرت إلى صاحبى فوجدته لا يقل عنهم حماسة ، وقد جعد وجهه الحمارى ، وأغمض عينيه ، وانهمك انهماكا تاما فى الذكر ، وأحسست بالاحترام الذى تركه حديث الرجل وفلسفته فى نفسى يتطاير ويتبدد ، وأنا أراه على تلك الحال من الترنح والصياح ، وقلت فى نفسى : كدت أخدع فيك يا أبا جهل .

ولكنى رأيت الرجل فجأة يمسك بيدى فيجذبها .

ونظرت إليه فوجدته قد كف عن الذكر ووقف منتصب القامة ، يشير بعينيه فى سخرية إلى القوم المغمضى الأعين ، المبحوحى الأصوات ، وقد تصبب من وجوههم العرق ، وكادوا يسقطون إعياء ، وسمعت الرجل يهمس فى أذنى :

— انظر !.

— ماذا ؟.

— هذا هو الجهل البسيط ، كل منهم لا يعدو أن يكون « تور الله فى برسيمه » ما معنى هذا التهريج والترنح والصياح . ماذا يفيدون من هذه المسخرة . وماذا يفيد الله ؟ أترى لو صرفوا جهودهم ووقتهم فيما يفيد أنفسهم أو يفيد سواهم ، ألا يكون ذلك أكثر ثوابا وأجزل نفعا ؟ ترى أى الجمعين أفضل : هذا الجمع من الآدميين الصائحين الهازلين المخابيل أم ذاك الجمع من الحمير الراقدين فى زريبتهم حامدين الله على نعمه .

ترى أى الطريقتين أفضل فى حمد الله وذكره : طريقة الحمير الهادئة الصامتة ، أم طريقة الآدميين المخبولة المجنونة ؟

ونظرت إلى القوم المخابيل الذين لا يحسون بشىء من حولهم ، وتصورت فى ذهنى منظر الحمير راقدين فى زريبتهم ، مستريحين هادئين ، وهمست فى أذن صاحبى:

— إن الحمير أفضل بالطبع !.

— تصور لو أن بعض الناس ممن صنعت فيهم معروفا حاولوا حمدك وذكر فضلك بأن تكأكأوا أسفل نافذتك وأخذوا يضجون بالصياح الساعات الطوال على هذا المنوال ترى ماذا كان يصيبك ؟

وصمت الرجل برهة ثم أنعم البصر فى القوم التائهين الصائحين ، وهز رأسه فى أسف قائلا :

— أيها الجهال .. اتقوا الله !! ما علينا .. هذا هو أبسط أنواع الجهل .. فضرره كما قلت محدود .. هيا انهمك فى الذكر ، وإلا أحس بنا القوم .

... وعدت أترنح يمينا ويسارا صائحا بأعلى صوتى :

— الله حى .. الله حى .

وأخيرا انتهى الذكر ، وخرجت وصاحبى أبا جهل ، كأننا خارجون من « ماتش كرة » من فرط ما أصابنا من جهد وأخذنا نجول فى المولد الصاخب الضاج ، وأشار الرجل إلى الجماهير المحتشدة الصارخة وقال :

— نوع آخر من الجهل البسيط .

وهززت رأسى موافقا ، وقلت له متسائلا :

— أريد أن أشهد شيئا من الجهل المركب .

— مستحيل .. الجهل المركب دائما مستتر ، إنه يحجب دائما خلف ستار من المعرفة والذكاء ؛ إن موطنه الأصلى لاظوغلى وما حوله ، هذه هى المنطقة الموبوءة بالجهل المركب ، ولكنك لا تستطيع أن تشاهد مظاهره بسهولة كما شاهدت مظاهر الجهل البسيط ، فأصحابه ليسوا بمثل هذه البساطة والسذاجة حتى يظهروا جهلهم جليا واضحا .. فهم يحاولون جهدهم إخفاءه ، ومع ذلك فهو يظهر فى نتائج أعمالهم ، ويحيق ضرره بهم قبل غيرهم .

ألا ترى كيف يتعاقبون على كراسى الحكم ، فلا تكاد تمر بهم الأيام حتى يفضحهم جهلهم المركب ، جهلهم الذى يحصر أذهانهم فى دائرة ضيقة ؛

فتراهم إما أن يفعلوا الخطأ أو لا يفعلوا شيئا أبدا ؛ وهل هناك أشد دلالة على هذا الجهل المركب من تلك الطريقة التى يحاولون بها صد خطر الشيوعية .

هم يعلمون أن الوقود الذى تشتعل منه نيران الشيوعية هو : الحرمان ، والفقر ، والجهل .. ويعلمون أنهم سيذهبون أول طعم لتلك النيران ، وأن الكثير الذى يملكونه سيذهب كله هباء ، ومع ذلك ! فلا يحاولون أن يضحوا ببعضه حتى لا تجد النيران ما يهيىء لها السريان ، هم لا يفعلون شيئا من هذا .. بل يقبضون على فلان المكوجى ، وفلان مبيض النحاس ، ويفتشون بيت هذا وبيت ذاك ، ويشغلون المحاكم بالقضايا التى لا تنتهى إلى شىء أو إلى تبرئة كل من قبضوا عليهم .

هذا يا سيدى هو مثل للجهل المركب الذى سيؤدى بهم وبالبلد إلى التهلكة .

وصمت الرجل ، وكنا قد ابتعدنا عن المولد عائدين فى طريقنا إلى دورنا ، وعندما وصلنا إلى الميدان وهممنا بالافتراق سألنى الرجل أن أصطحبه إلى الزريبة حتى أشاهد اجتماع مجلس الحمير ، أو كما يسميه : مجلس العلماء ، لأنه قرر أن يعقده حتى يجد حلا لهذه الحال التى تسير إليها البلد .

و لم أرفض الدعوة بالطبع فما شاهدت فى حياتى مجلسا للحمير ، و لم أشك فى أن المجلس سيكون على شىء من الطرافة .

ووصلنا إلى الزيبة ودلفنا من الباب متجهين إلى جناح الحمير ، ووجدناهم مستلقين فى هدوء وراحة ، وألقى عليهم صاحبى التحية فهزوا رؤوسهم رادين على تحيته .

وطلب منى الرجل أن أكون فى المجلس مجرد « كبسى » .

وسألته عما يعنى ، فقال ضاحكا :

— مجرد مستمع كمندوب اليمن السيد الكبسى .

ووقفت ساكنا ، وبدأ النقاش فى مجلس الحمير ، ومرت فترة طويلة وأعضاء المجلس محتدون حتى ساد السكون أخيرا وبدا أنهم قد انتهوا إلى أمر ؛ ونظر إلى

زعيمهم أبو جهل وقال لى :

ــــ اتفقنا .

ــــ علام ؟

ــــ لقد قرر المجلس ــــ مجلس العلماء ــــ القبض على مجلس الوزراء ، ومجلسى النواب والشيوخ بتهمة الشيوعية والتآمر على قلب نظام الحكم لأنهم أشد أنصار الشيوعية والعاملين على انتشارها فى هذا البلد .

وصمت أبو جهل برهة ثم أردف قائلا :

ــــ وكذلك وافق المجلس على اقتراح تقدم به أحد الأعضاء .

ــــ وما هو ؟

ــــ إقامة تمثالين فى أكبر ميادين القاهرة للزعيمين اللذين لن تجد الشيوعية موطئا لها ما داما فى مصر .

وأصابتنى دهشة إذ لم يكن لدى أية فكرة عن هذين الزعيمين ، وقلت متسائلا :

ــــ ومن هما ؟

ــــ الحلوجى وأبو ظريفة : زعيم الطعمية وزعيم الفول .

أجل . ما دام فى مصر طعمية وما دام فيها فول فلن يضام فيها إنسان .. الطعمية والفول يتساوى أمامهما جميع المصريين .

وهنا نهق حمار فسمعت أبا جهل يهز رأسه ويقول بهدوء :

ــــ صدقت .

ودفعنى حب الاستطلاع إلى أن أستفسر عما يقوله الحمار فأجابنى أبو جهل : إنه يقول : يا أمة ضحكت من جهلها الأمم .

نابغة الميضة

وظهرت نتيجة الانتخابات ... فكانت فوزا ساحقا للعقب .
وهكذا فاز العقب ... لا مبادئ ولا مواهب ... ولا كفاءات ولا عبقريات ... ولا علم ولا شيء أبدا ... سوى النقود .
فليحيي العقب .. وليحيي قانون الانتخابات .

لست أدرى ما صنع الله بحارة الميضة فى أيامنا هذه ... فقد مضى على ما يقرب من الخمسة عشر عاما لم تطأ قدماى أرضها ولا طاف برأسى ذكرها ، حتى أحسست بها اليوم تدفع ذاكرتى دفعا .. لمجرد صورة عابرة مرت بعينى .. فحملتنى إلى الوراء خمسة عشر عاما ، ونقلتنى من أحد أركان « شبرد » فهوت بى إلى حارة الميضة . وما أدراك ما حارة الميضة !!

***

« الصلاة خير من النوم » .. بهذا القول هتف الشيخ محمد طرطور وقد علا مئذنة جامع السيدة .. رافعا كفه على صفحة وجهه .. مغلقا عينيه ، وقد علت وجهه تجاعيد الإنهاك من الصياح ، وبدا كأن ما فى جوفه من قلب ، ورئتين ، وأحشاء وأمعاء ، على وشك أن تخرج من فمه مع صيحته ، من فرط ما كان يجهد نفسه فى الصراخ .. فقد كان يرغب فى إيقاظ أهل الحى .. حتى يقوموا لأداء فريضتهم ، ويكون بذلك قد أدى واجبه .

ومع ذلك فما سمعه أحد .. فقد استغرق القوم فى سبات عميق ، وحتى القلائل الذين وصل إليهم صوته .. لم يصعب عليهم إلا أن يقنعوا أنفسهم بأن النوم خير من الصلاة وبأن دفء الفراش واسترخاء النوم ، خير ألف مرة من ركعتين وسجدتين ، وماء بارد يثلج الأطراف .. فأغمضوا عيونهم وعادوا إلى سباتهم .

وهكذا شمل الحى سكون الفجر العميق ، ولم يبد على الدور الساكنة أن المؤذن قد عنى أهلها بصياحه وصراخه . اللهم إلا ناحية بدت فيها علامات اليقظة والحياة ، ودل ما فيها من همهمة ونحنحة ، وتمخط على أن أهلها من أهل الله ، وأنهم قد طرحوا النوم عن أجفانهم ، ونووا أن يؤدوا الفرض ويعطوا ما لله لله .

هؤلاء هم أهل حارة الميضة القائمة عند الباب الخلفى لجامع السيدة ، والتى تطل عليها ميضة الجامع ، والحارة فى حد ذاتها لا تستحق أن يكون لها أهل ، فهى لا تعدو المائة متر طولا والعشرة عرضا ، يقوم الجامع على أحد جوانبها وتقوم بضعة حوانيت على الجانب الآخر ، وعلى ذلك فلا محل هناك لساكن ينزل بأرجائها ، ومع ذلك فهى عامرة بالسكان غنية بالأهل .

وماذا يضير أهلها ألا تأويهم فيها حجرات ؟ وفى قارعتها لهم خير مأوى وخير ملاذ ، وما حاجتهم إلى الدور فيها والمنازل ، وفى أرصفتها أطيب منزل ، وأرحب دار .. أليس فى قناعتهم من حارة الميضة بأرائك من طوب وأسفلت ؟! ضمان لهم فى الجنة بأرائك من سندس وإستبرق ؟!.

ومع ذلك فلم تكن الحارة تخلو من بضع مصاطب تقوم على أطنابها ، وترتفع عن الأرض بضعة أقدام ، لتتخذ دورا لأولياء الله الثابتين ، ولست أعنى بالثابتين ، الثابتين على دينهم — فأولياء الله هؤلاء لا يشغل الدين من رؤوسهم كثيرا ولا قليلا — ولكنى أعنى الثابتين فى أماكنهم ، أو فى مصاطبهم .. فهى محل عملهم ونومهم ، وأكلهم وشربهم ، وقد دعانى إلى تسميتهم بالثابتين أن أميزهم

عن سواهم من أهل الحارة من أولياء الله المتحركين .. الذين يجوبون الأرض ويضربون فى أطنابها نهارا ، ثم تأويهم الحارة ليلا ، بعد أن يعودوا إليها محملين بخيرات الله .

كان أول أهل الحارة استيقاظا هى الشيخ محمد ، ولا تظنوا أن قولى هى نوع من السهو أو الخطأ ، فإنى أقصد بـ « هى » ، هى فعلا ، فقد كانت امرأة . أما اسمها الشيخ محمد ، فما ذنبى واسمها هكذا .. وما من فرد من أهل الحارة إلا ويناديها كذلك ؟!

استيقظت الشيخ محمد ، وإن لم يبد عليها شيء من مظاهر اليقظة .. فهى فى سباتها ويقظتها سواء ، وارتعش جفناها قليلا ، ثم فتحا عن عينين خابيتين ليس فيهما بياض بل صفرة مشوبة بحمرة ، ومضت فترة طويلة قبل أن تستطيع التحامل على يديها والجلوس على المصطبة ، وغطت رأسها وجسدها السمين المترهل بالدثار المكون من آلاف الرقع المشدودة إلى بعضها ، والتى قد صبغتها الأقذار بطبقة قاتمة جعلتها تبدو كأنها قطعة واحدة ، ثم مدت يدها تتحسس الحمصة الموضوعة فى ركبتها الغليظة ، والتى وضعها لها الشيخ عتريس بعد أن شق ركبتها بمشرط ودفن فيها الحمصة ، منبئا إياها أنها ستسحب جميع الأمراض التى فى جسدها .

وأحست المرأة بمكان الحمصة متقيحاً ملتهباً ، ولكنها طمأنت نفسها متمتمة « يضع سره فى أصغر حمصة » .

ثم بدا أهل الحارة يستيقظون تباعا ، فنهض الشيخ أحمد (رجل فى هذه المرة) ، وكان يرقد أسفل المصطبة .. ثم تحسس سيفه الذى كان دائما يضعه تحت رأسه . فلما اطمأن عليه ، دس قدميه فى مداسه ، وألقى تحية مقتضبة على كوم اللحم المغطى بالدثار ، وأخذ سيفه بيمينه واتجه إلى باب المصطبة .

والشيخ أحمد من أهل الجهاد لا يغادره سيفه الخشبى ، ولا أوسمته التى يرصها فوق صدر قفطانه الرث ، وكم له من جولات وصولات ؛ فى « حوارى البغالة »

وبين « عشش الماوردى » ؛ يعدو والغلمان وراءه يجاوبونه على صيحاته بصوت واحد : « الله حى » ، وهو فى عدوه يقف من آن لآخر فيلوح بسيفه ذات اليمين وذات اليسار فينطرح الصبية أرضا ؛ فيعود الرجل إلى سيره تعلو وجهه علامات الانشراح وهو يتمتم : « نصر من الله وفتح قريب » .

ويقال إن الرجل كان فى سابق عهده من طلبة الأزهر المتحمسين ومن قواد الثورة ، وأنه قد أصابته لوثة فأضحى يجاهد بالطريقة التى تحلو له ؛ ماذا يضيره فى ذلك وطريقته فى الجهاد لا تكاد تختلف كثيرا عن سواه فى هذا البلد ؟!! وهو فى نطاق مداركه يعتقد أنه يجاهد ، وهم فى نطاق مداركهم يعتقدون أنهم يجاهدون ، والبلد لا يكاد يستفيد منه إلا بقدر ما يستفيد منهم .

ويعود الشيخ أحمد فى نهاية يومه ، قرير العين ناعم البال ؛ ليلقى بجسده الواهن من فرط الكر ، والفر . أسفل مصطبة صاحبته الشيخ محمد ، وليناولها بعض ما أحسن به عليه أهل البر من أرغفة وقروش .

وتكأكأ على باب الميضة بقية أهل الحارة من أولياء الله الذين وهبوا من البله والعته والعجز ، ما يهيئ لهم كل مسببات الولاية ، فدلفوا إلى الداخل ، وجلسوا القرفصاء صفا أمام الحنفيات ، وتصاعدت فى الجو أصوات المضمضة والتمخط ، نشازا متنافرة ؛ ثم بدأوا يتسربون إلى داخل المسجد .

يا للإنسان العجيب ؛ أكلما سمى به الله ورفعه ، تسامى على الله وترافع ؟! أكلما ذكره الله ، نسى هو الله ؟!!

نظرة منا إلى أولئك المصطفين فى المسجد يركعون ويسجدون ويذكرون الله !! وإحصاء منا لمراكزهم فى الحياة ولما وهبه الله لهم ، يصيبنا بدهشة وعجب ؛ جلهم من الفقراء والمساكين ؛ جلهم ممن نسميهم الطبقة الدنيا ، حتى هذا الأفندى الموظف فى وزارة الأوقاف الذى أطلق لحيته ، لا يعدو أن يكون بين زملائه الموظفين مجنونا أو معتوها .

هذه حال فى دنيانا يجب أن نمعن الفكر فيها ، وظاهرة عجيبة تحتاج إلى بحث

وتمحيص وتحتاج إلى أن تعالج بجرأة ؛ ضعف التقوى ، وتخلخل الإيمان ، كلما سما الإنسان فى الحياة واكتمل ؛ هل هو نقص فى مسببات الإيمان ، أم هو التواء فى تفكير الإنسان ؟ أنا نفسى أؤمن بقلبى أكثر مما أؤمن بعقلى ، فكلما أمعن بى الفكر ، رأيت نفسى أكاد أضل ، وإذا تركت نفسى لإحساس قلبى ازداد بى الإيمان وازددت إحساسا بالله .

وانتهت الصلاة ، وعاد من عاد وبقى فى المسجد من بقى ، كل ذلك وواحد من أهل الحارة لم يغادر مضجعه ، ولم يتحرك من مكمنه ، بل استمر يغط فى نومه ، وقد انكمش وتكور ،حتى لامست ذقنه ركبته ، ولم يزعجه من أهل الحارة ضجيج ولا صياح ؛ بل استمر فى غطيطه حتى تنفس الصبح وملأ الحارة الضياء .

وبدأت الحوانيت تفتح أبوابها تباعا ، وازداد الضجيج والحركة ، فتقلب الجسد المنطوى ، ثم تمطى وتثاءب ، ونهض من مرقده جالسا القرفصاء ، وهو يدعك عينيه بيمينه ويهرش رأسه وظهره بيساره ، ثم بدأ يفتح عينيه الحمراوين المنتفختين شيئا فشيئا ، فوقع بصره على الصبى « كتكوت » صبى المعلم عليش صاحب حانوت « الفول والطعمية » ، أو كما كتب على لافتته « المطعم الوطنى الوحيد » ، ترى من الذى سرق من الآخر لقبه ، مطعم الفول ، أم الزعماء ؟!

وبعد أن أتم الرجل دعك عينيه وهرش جسده وتثاءب مرة أخرى ، ألقى على الصبى التحية :

— صباح الخير يا كتكوت .

— صباح الخير يا عم إبراهيم .

— حضر لى شقة وطعمية .

— لم ندق الطعمية بعد .

ودلف الصبى إلى الداخل وألقى بمركبات الطعمية من فول وبصل وخضر إلى الحجر الموضوع فى ركن الحانوت والذى قد علته القاذورات والأوساخ ، ثم

وضع القضيب الحديدى الثقيل فى الحجر ، وأخذ يلفه ساحقا مخلوط الطعمية حتى أضحى عجينة طرية ، وبعد لحظات أقبل المعلم « عليش » بلاسته وجلبابه مشمرا عن ساعديه ، وبصق بصقتين وقال : « يا فتاح يا عليم » ؛ ثم بدأ فى قلى الطعمية فى بقايا الزيت الأسود الباقية فى الطاسة من ليلة أمس .

كل هذا والرجل الجالس القرفصاء لم يتحرك بعد ، وكل ما فعله هو أن مد يده فدفعها فى صندوق خشبى بجوار الحائط ثم أخرجها ؛ وقد أمسكت بين أصابعها بعض الدخان ، ثم أخرج من أحد جيوبه ورقة سجائر وأخذ فى لف السيجارة وتدخينها .

كان الرجل هو إبراهيم العقب ويكاد الرجل يكون أسلم أهل الحارة جسدا وعقلا ، فليس به من عاهة ، ولا بله ، ولا خبل ؛ ولذا فلم يدخلوه فى زمرة أولياء الله ، لا الساكنين منهم ولا المتحركين ، بل هو يعتبر بينهم من رجال الأعمال ، وإن كان لا يغادر مكانه ليل نهار ؛ ولكنه مع ذلك فى عمل دائب وشغل مستمر ؛ وهو يدير إدارة واسعة من مكانه فى حارة الميضة .. وعندما نقول بإدارته الواسعة .. لا نقولها من باب التهكم أو السخرية بل نعنى حقا أنها واسعة .. وأن لها فروعا فى جميع شوارع القاهرة ، ودروبها ، وباراتها ، ومنتدياتها .. وله موظفون يتسلمون من بعضهم النوبتجية ليل نهار .

وأكاد أجزم أن القارئ سيظننى أنوى أن أجعل من الرجل بعد ذلك رئيسا للمتسولين أو النشالين أو من شابههم ، ولكن حاشاى أن أكون هازلا فإن الرجل كان رجل عمل حقا ، وكان صاحب تجارة : تجارة مشروعة يبيع فيها ويشترى .

كان الرجل هو زعيم « لمامى السبارس » .. فما من جامع أو جامعة لأعقاب السجائر إلا وهو يشتغل تحت إمرته أى يعد موظفا عنده ، وحتى لو لم يكن موظفا عنده فإنه يتناول منه أجره فهو عميل لديه وبضاعته مصيرها إليه . وكان عمل الرجل ينحصر فى تسريح جامعى الأعقاب نظير أجر محدود على ألا يقل ما يجمعونه عن عدد معين من الأعقاب ، فإن زاد عن ذلك فمليم لكل خمسين

عقب ، أما الذين يعملون لحسابهم فيحاسبهم على عدد ما يجمعونه من أعقاب .

وقد قسم القاهرة إلى مناطق ، والمناطق إلى أقسام ، والأقسام إلى شعب ، وليس لأحد أن يعتدى على مكان قسم الآخر الذى خصص له ، وعين لذلك مفتشين ليمروا على المناطق والأقسام حتى يتأكدوا من سير الحال على ما يرام .

أما مقر الرجل أو الإدارة فليست أكثر من صندوقين كبيرين وعدة قصعات ، صندوق تجمع فيه الأعقاب وصندوق يوضع فيه الدخان الفرط . أما القصعات فلتفريط الدخان . وبالإضافة إلى ذلك صندوق صغير توضع فيه السجائر التى يلفها ويبيعها بالجملة أولا بأول .

والعقب يعتبر من أثرياء حارة الميضة المحسودين ، فما من أحد يخدع بمظهره الرث وثيابه البالية .. بل يكاد أهل الحارة يجزمون بأن الرجل قد جمع من تجارته عشرات الجنيهات .. إن لم تكن مئات .. ولكنه حريص بخيل .. يجمد النقود ويضعها فى نطاق لفه حول بطنه .. وقد يكون هذا هو سر نومه متكورا ، لاصقا ركبتيه فى ذقنه .. مخفيا بذلك بطنه وما حولها من كنز ثمين .

ورفع العقب رأسه ونعق صائحا متعجلا فطوره :

ـــ قليت الطعمية يا كتكوت ؟

وأجابه صوت المعلم عليش :

ـــ صباح الخير يا عقب .. كيف ما أصبحت .

ـــ معدن .. ابعت لى شقه وطعميه .

ـــ سلطة لبن .. أو قوطه .

ـــ زى ما يعجبك .

وبعد برهة أقبل الصبى يحمل إلى الرجل طعامه ووقف ينتظر الثمن .. ودفع العقب يده فى صندوق السجاير الصفيح فأخرج منه خمس سيجارات وأعطاها الصبى ، ونظر الصبى إلى الرجل متجهما وسأله :

ـــ خمسه ؟!!

وأجابه الرجل دون أن يرفع إليه بصره :

ـــ أعقاب بحارى .. يابن القديمه . إذا لم يعجبوك اتركهم وخد سبعه سمسون .

ـــ بحارى نظيف ؟.. غير مخلوط ؟!!

ـــ نظيف مائة فى المائة .. ليس عندنا خلط .

ـــ إذاً هات سيجارة لقد وضعت لك طعميتين زياده .

ومد الرجل يده فى إحدى القصعات وأعطى الصبى منها عقبين .. ولكن الصبى قذف بهما إلى القصعة ، وقال غاضبا فى شىء من الأنفة والكبرياء :

ـــ قالوا لك إنى برمرم ؟

و لم يسع الرجل بعد ذلك إلا أن يخرج للصبى الأرستقراطى سيجارة كاملة ، وأعطاها له مغيظا قائلا :

ـــ خذ .. خساره فى جسدك النحس .

وهنا انطلقت فى الجو صيحة رنانة من المعلم عليش ينادى فيها الصبى ، فدس السيجارة فى جيبه وأسرع إليه .

و لم يكد الرجل يغرس أسنانه الطويلة السوداء فى رغيف الخبز حتى سمع صوتا رفيعا يقول :

ـــ بسم الله .. يا معلم .

و لم يرفع الرجل رأسه ، و لم تبطل حركة فكيه .. بل قال وهو يزدرد لقمة كبيرة :

ـــ اتفضل .

ـــ أتريد الدود الآن ؟

ـــ بأربعين .

ـــ قلنا بخمسين .

ـــ أربعين فقط .

ـــ لنجعلهم خمسة وأربعين ، والله هذا لأجل خاطرك .

ـــ قلت أربعين .

ـــ إنجليزى ؟

ـــ النصف والنصف .

ـــ سأحضره لك الآن ، أجاهز أنت ؟

جرت هذه المناقشة ، والعقب لم يرفع عينيه .. ولم يكف عن المضغ ، ولاشك أن المناقشة تحتاج لشيء من الشرح حتى تقرب إلى الأفهام .

كان الطرف الثانى فى المناقشة هو الأوسطى جاد ، وإذا أردنا الاسم الكامل فهو : راجى عفو القهار الغفور الأوسطى جاد عبد الصبور صاحب صالون الحلاقة والصبغة العجيبة ، والدود الطبى .

وكان العقب قد شعر منذ يومين بصداع يشعل رأسه ، وقد استشار الشيخ محمد ، فأحالته على الشيخ عتريس الذى حاول أن يضع له حمصة ، ولكن الرجل رفض عندما رأى ما فعلته الحمصة بركبة الشيخ محمد ، ولم يجد بدا من أن يلجأ إلى الأوسطى جاد ـــ وهو أعلم أهل الحارة بعلم الطب ـــ وإن كان قد منعه عنه فى بدء الأمر ما يعلمه من شدة طمعه ، وأنه لا يوزع الاستشارة بالمجان ، ولكن اشتداد الصداع ، وخوفه من الحمصة ، اضطره إلى أن يلجأ إليه أخيرا .

وقد حدثت كل هذه الاستشارات ، والرجل قابع فى مكانه ، فأهل الحارة لا ينتقل بعضهم إلى بعض ، بل يستعملون حناجرهم وألسنتهم كوسيلة وحيدة للاتصال الداخلى .

وأشار عليه الأوسطى جاد باستعمال الدود ، لمص الدم الفاسد الذى يسبب له هذا الصداع وأنبأه أن لديه « حتتين » هدية ، يفوقان الثعابين حجما وقوة ، وبدأ فى التفاهم على السعر ، وطلب الرجل ثمنا للدود ستين ، (ستين سيجارة طبعا » ، ولكن العقب أصر على ألا يدفع أكثر من أربعين ، وصمم على احتمال الصداع ، حتى أتاه الرجل يعرض عليه القبول فى الصباح .

ولم تمض هنيهة حتى أقبل الأسطى جاد بالدود ، وبدأت عملية مص الدماء .. ولم يكف العقب خلال عملية المص عن تأدية عمله .. بل استمر يقابل زبائنه وعملاءه .. ويعد الأعقاب ، ويفصل الأصناف الممتازة منها على حدة ، وبين آونة وأخرى يجيب على الإخوان المتسائلين : سلامتك .. كفى الله الشر . بقوله : « الله يسلمك ويبقيك » وهو يعلم أن المتسائل لا يقصد بقوله أكثر من « يا ليتها كانت القاضية » ، ويعلم كذلك أنه لا يعنى بإجابته أكثر من « العقبى لكم » .

وانتهى اليوم ، وبدأت الحركة حول العقب تخف رويدا رويدا ، ولم يبق بجواره سوى صبية المختار دقدق الذى يطلقه طول اليوم للتجسس والتجول ، حتى يأتيه بأخبار الشغل أولا بأول .

وبدأ الاثنان فى العد ، عد أرباح اليوم .. ثم انطلق دقدق لتجميد « الفكة » وتحويلها إلى ورقة كبيرة يسهل على العقب حملها فى منطقته ، وعاد الصبى بعد هنيهة فتركه الرجل أمام صناديق البضاعة ودلف إلى الميضة لقضاء حاجة .. ولإخفاء النقود ، وكانت هذه هى المرة الوحيدة فى خلال اليوم الذى يدخل فيها العقب إلى الجامع . فما كان ليهتم بما يقوله عنه أهل الحارة من أنه كافر زنديق .

وانتهت صلاة العشاء ، وبدأت الحوانيت تغلق ، وأخذ السكون يسود الحارة ، وتكور جسد العقب ، وأغلق عينيه ، واضطجع أولياء الله المعاتيه فى مراقدهم إلا واحدا أقبل يقرع أرض الحارة بسيفه الخشبى ويصيح بأعلى صوته : « وحدوه » لقد كان الشيخ أحمد عائدا من جهاده .

* * *

هذا يوم عابر من حياة عم إبراهيم العقب فى حارة الميضة ، منذ خمسة عشر عاما ؛ ولست أبغى أن أتبع حياته بعد ذلك يوما يوما ، رغم ما فى حياته من عبر وتسلية ، ولكنى سأقفز بذهنى قفزة طويلة أقطع بها من حياته عشر سنين ، وهى مدة لو تعلمون طويلة فى حياة إنسان .. وإن كان الذهن يستطيع قطعها الآن فى لمحة عين .

لن نحاول أن نبحث عنه فى حارة الميضة ، فقد خلا منه مكانه .. لن نحاول أن نتبع أحدا من أهل الميضة ، فقد اختفوا جميعا من أفق حياته ، اللهم إلا دقدق الذى ما زال تابعه الأمين .

ولكن دعونا نجرى فى أعقابه حتى نجده .. جالسا فى مكتبه فى الناصرية .. وقد طرأ على مظهره تحول كبير فاختفت الطاقية السوداء المطينة من فوق رأسه وحلت محلها عمامة مهيبة ، بيضاء حمراء ، خلعت عليه رونقا وبهاء ، وقفطان حريرى وجبة من الجوخ الثمين ، وبدا الرجل فى جملته وقورا مهيبا ، عليه مظاهر النعمة والثراء واضحة جلية .

ويدخل عليه دقدق أفندى ليعرض عليه حساب اليوم .

وبدأ فى قراءة التفاصيل والرجل مصغ فى انتباه شديد .

كان الرجل قد أخذ تعهد الكرتة فى الجيش الإنجليزى و « الكرتة » هى الزبالة وبقايا أطعمة الثكنات ، فقد بدأ يهجر مكانه فى حارة الميضة منذ أن بدأت الحرب .. وبدأ كذلك يخرج النقود المتجمعة من نطاقه .

ولم تكن الزبالة تعنى زبالة حقا ، فقد كانت بفضل الأوراق التى يدفعها دقدق فى يد الطباخين أو الصاجن الإنجليزى ، تجعل الزبالة تحوى كنوزا من علب الأطعمة المحفوظة ، والسجاير ، والبطاطين ، والأسلحة .. وكل ما يخطر على بال من خيرات جيوش الحلفاء .

وهكذا تحول العقب من تاجر سبارس إلى تاجر زبالة ، لا يهم الرجل وضاعة المظهر أو تفاهة الاسم ، ما دام اللقب يدر عليه مالا وفيرا ، وما دام رصيده من النقود يقفز إلى أعلى بخطوات سراع .

وينتهى دقدق من سرد الحساب ، ويصمت ، وتبدو عليه علامات القلق كأنه يود أن يسرد إلى معلمه شيئا ، ولكنه يخشى العاقبة ، ولم يخف ذلك على العقب فسأله فى قلق :

— مالك ؟

ـــ لاشيء ، فقط كنت أريد أن أقول ..

ـــ تقول ماذا ؟

وتردد دقدق برهة ثم تشجع وقال :

ـــ كنت أود أن أقول لك : إنه من الخير أن تحاول الظهور فى المجتمع ، حتى يتحدث عنك الناس .

ورفع العب حاجبيه فى دهشة متسائلا :

ـــ وكيف ؟

ـــ تبرع فى المشروعات الخيرية فيكتبون اسمك فى الجرائد ، وبذا يشتهر أمرك .

وفكر الرجل وبدا عليه الاقتناع فقال :

ـــ عندك مائة وخمسون قرشا الباقية من حساب الأمس ، يمكننا أن نتبرع منها .

ـــ مائة وخمسون قرشا !! حيلك ، حيلك ! يجب أن تعمل حسابك على الأقل على أربعمائة ، خمسمائة جنيه .

وبدا على الرجل انزعاج شديد ، ونظر إلى دقدق نظرته إلى لص أو مجنون ، ولكن الفتى لم ييأس ، وأخذ يحاول إقناعه بأن الغرض من التبرع ليس وجه الخير ، ولكنه وجه الشهرة والظهور ، فستدر عليه هذه الشهرة بعد ذلك ربحا وفيرا .

وبدأ اسم إبراهيم العقب يظهر بعد ذلك على صفحات الأهرام : مائة جنيه للعلمين ، مائتين لمشروع البر ، ثلثمائة لمشروع الحفاء ، وهكذا ..

ثم بدأ اسمه يقترن بكلمة الوجيه ، ولم تكن تلك التبرعات لتؤثر على ماليته ، فقد أخذت تتدفق عليه النقود بلا حساب ، من التعهدات ، ومن السوق السوداء ، ومن كل حدب وصوب ، يرزق من يشاء بغير حساب ، ولقد كان هو « من يشاء » .

ولنترك الوجيه إبراهيم العقب تاجر السبارس والزبالة منهمكا فى تجارته وأمواله ، وتبرعاته ، ولنقفز بعد ذلك قفزة بسيطة ، سنتين فقط لنبحث عنه ، فنجده ما زال أمام مكتبه بالناصرية بوقاره ، وهيبته ، وعمته ، وجبته ، ونجد أمامه « دقدق » وقد بدا عليه كمن نوى أمرا جللا ، وقال دقدق :

— ألا تنوى أن تدخل الانتخابات ؟

— انتخابات !! أنا أدخل انتخابات !! أجننت !!

— ولم ؟

— أنا لا أعرف فك الخط ، فكيف تريدنى أن أجازف بدخول الانتخابات !

— يا معلم ، المسألة لا تحتاج لفك الخط ، أنت تاجر مشهور ، واسمك كالطبل .

— هل تريد أن أنضم لحزب من الأحزاب ؟

— أبدا ، ادخل مستقل .

— ولكنهم لن يساعدونا .

— الفلوس تساعدك . توكل على الله ، وعلى محسوبك .

وبعد يومين لم يكن هناك جدار فى حى السيدة لم تلصق عليه اللافتات .

« انتخبوا المرشح المستقل، إبراهيم العقب ، لكى تحصلوا على الغذاء والكساء . انتخبوا إبراهيم العقب » .

ولأول مرة دخل إبراهيم العقب جامع السيدة للصلاة ، وليس لوضع النقود فى منطقته ، بدأ طوافه فى نواحى السيدة وطاف فيما طاف بحارة الميضة ، ولم يكن يخشى من طوافه شيئا ، فقد باد أهل الميضة وعفت آثارهم ، وصعد معظم أولياء الله إلى الله ، إلا الشيخ أحمد بسيفه ، فقد كان ما يزال فى جهاده وقد اندمج مع الهتافين وراء العقب .

وجاء يوم الانتخاب ؛ وكان دقدق قد أحكم عمله خير إحكام ، فقد استأجر اللوريات لنقل الناخبين إلى لجنة الانتخابات ، وقد قسم الحى إلى مناطق

وأقسام وشعب ، تماما كما كان يفعل فى قديم الزمان . وكان دقدق أحرص من أن يعتمد على ذمة الناخبين وعلى وعودهم ، فاتبع لضمان أصواتهم طريقة مثلى .

وقف أمام لجنة الانتخاب ومعه رزم من الأوراق المالية ذات الخمسة والعشرين ، والخمسين والمائة قرش ، وكان قد قسم الناخبين إلى ثلاث درجات : أولى ، وثانية ، وثالثة ، فالدرجة الأولى جنيه ، والثانية خمسون قرشا ، والثالثة خمسة وعشرون .

وكان دقدق يمزق الورقة النقدية نصفين يعطى الناخب نصفها عند دخوله ، ولا يعطيه النصف الثانى إلا بعد خروجه وبعد التأكد من أنه منح صوته العقب .

وظهرت نتيجة الانتخابات ، فكانت فوزا ساحقا « للعقب » .

وهكذا فاز العقب .. لا مبادئ ، ولا مواهب ، ولا كفاءات ، ولا عبقريات ، ولا علم ، ولا شىء أبدا ، سوى النقود .

فليحيى العقب ، وليحيى قانون الانتخابات ..

ترى ما الذى دفع بكل تلك الذكريات فى رأسى .. وما تلك الصورة التى مرت بعينى .. فأيقظت ذهنى وأهاجت به ذلك الماضى الهاجع الراقد .

كنت أجلس اليوم فى شبرد مع صاحب لى .. فرأيت صاحبى قد نهض فجأة وتقدم إلى شيخ مهيب فسلم عليه باحترام شديد ، وسلم على شخص يسير بجواره ، وتحدث معه برهة ، ثم عاد إلى وقال فى شىء من التفاخر :

— هذا إبراهيم بك العقب .. عضو مجلس النواب ... ألا تعرفه ؟!

— أعرفه .

ولم أقل أكثر من ذلك .. ووجدتنى أنظر إلى الرجل وقد اتخذ مكانه بتؤدة وعظمة على إحدى الأرائك ، وجلس بجواره ذلك الشخص (دقدق أفندى طبعا) ، وأخذت أرقب الرجل بطرف عينى ، فرأيته يخرج من جيبه علبة دخان ، فيخرج منها بأصابعه بعض الدخان ، ويأخذ فى لف السيجارة .

وإلى هنا ، ولم يكن فى الأمر شىء غير طبيعى ، فكثير من كبار القوم يفضلون

لف السجاير بأنفسهم .

وانتهى الرجل من تدخين سيجارته ، و لم يبق منها إلا عقب صغير رأيته يطفئه فى الطقطوقة ، ولكنه بدلا من أن يلقى به فيها . رأيته يتلفت حوله ، ثم وجدت يده تتسلل بالعقب إلى جيبه .

و لم يره أحد ، سواى ، ودقدق ، الذى بدا عليه كثير من الامتعاض ، ولكنه سلم أمره لله .

ووجدتنى أهتف دون أن أدرى :

— برافو .. نابغة الميضة !!

ميمون الجبل

لقد ضقت ذرعا يا ميمون لأنه قد مضى أربعة أعوام وأنت تفعل « سلام أسيادك » فما بالكم بأسيادك أنفسهم الذين مضى عليهم ستون عاما وهم لا يفعلون سوى « سلام أسيادهم » . ما بالك بالأسياد الذين يتولون أمورنا ويتبدلون علينا الواحد بعد الآخر فلا يفعل كل منهم سوى « سلام أسياده » فلابد لكل منهم من أسياد يؤدى لهم التحية ، ويتلقى منهم الوحى والإلهام .

ميمونُ الجبل يلعب ، ودق الرجل دقتين على الدف فى يده ، وبدأ القرد يعرض على جمهرة الصبية ألاعيبه وحركاته .

كانت تلك آخر جولات ميمون والعنزة وصاحبهما فقد انتهى اليوم أو كاد ، وبدأ الثلاثة يولون وجوههم شطر الدار ، أو على الأصح ، شطر الجحر الذى يتهيأ لهم فيه المضجع والمأوى .

وسار ميمون مطاطىء الرأس ، بادى الوهن ، وقد شرد منه الذهن ، وتاه الفكر : لقد بدأ المسكين يمل حياته ، وتملكته السآمة من طول العيش على وتيرة واحدة .. ضيق فى ضيق ، وملل فى ملل .. نفس المشوار يقطعه كل يوم حتى تكل قدماه ، ونفس الحركات التى يفعلها فى كل وقفة .. هى هى ، لا تجديد ولا ابتكار ، ومع ذلك فما زالت تضحك هؤلاء الحمقى الذين يلتفون حوله ، ما أغباهم وما أضيق عقولهم !! ماذا يضحكهم من تلك الحركات التى يحاول هو تقليدهم فيها ؟ إنه ما رأى مخلوقا يضحك على نفسه ومن نفسه ، كابن آدم يدعى

بعد ذلك أنه انحدر من سلالة القرود ، والله إن القرود لبريئة منه ، ومن سخفه وغباوته . وقد يكون العكس هو الصحيح ، والمعقول ، فلاشك أنه إذا كان هناك أية صلة بين الإنسان والقرد ، فإن القرد هو الذى انحدر من سلالة الإنسان ، وإن ابن آدم ، قد تطور وارتقى فصار قردا .

وتوقف الثلاثة على الإفريز برهة ريثما تمر العربات فيستطيعون عبور الشارع إلى الناحية الأخرى .. ورفع ميمون رأسه ناظرا إلى عجلات العربات المتدفقة كالسيل ، المنطلقة كالريح ، وهز رأسه فى دهشة ، وسأل نفسه : فيم انطلاقهم بمثل هذه السرعة ، وعلام تلك العجلة والاندفاع ؟!

ما ضرهم لو اتأدوا وتمهلوا ، وأراحوا واستراحوا . ما ضرهم لو فعلوا فى يومهم نصف ما يفعلون ، وأخذوا من فعلهم نصف ما يأخذون ، وخرجوا من حياتهم بنصف ما يخرجون .

ماذا تراهم يفعلون فى يومهم ؟. شر وخير ، وشرهم أكثر من خيرهم . ماذا تراهم يأخذون من أفعالهم ؟. ألم ولذة ، وآلامهم أكثر من لذاتهم .

بماذا تراهم يخرجون من حياتهم بلا شىء ، وبنصف اللاشىء ، لا شىء ، فعلام إذًا اللهفة ، و لم التعجل ؟!

وانتهز الثلاثة فرصة خلو الطريق من العربات لحظة ، فانطلقوا إلى الجانب الآخر ، وعبروا شارع الملكة نازلى من الجانب الأقرب إلى العباسية إلى الجانب الأقرب لمستشفى الدمرداش ، وساروا على الإفريز المجاور للمستشفى متجهين إلى عشش الترجمان .

ودلفوا إلى الحى ، فقوبلوا بتحيات متناثرة من هنا وهناك ، وأخذ عبس يرد التحية بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن ميمون وزنوبة .

و لم يتجه عبس إلى البيت رأسا ، بل عرج على منتدى الحى ، ومجمع السمار ، الذى يحوى بين جوانبه : قهوة ، ومطعما ، وصندوق غازوزة ، ومحل فاكهة : قصب وجزر وبرتقال أخضر ، وملانة ، وخص فى الشتاء ، وسرت شمام ،

وعجور فى الصيف .

أقول إن المنتدى جمع بين جوانبه ، والواقع أن كلمة جوانبه ليست إلا من باب الاستعارة ، فالمكان لا جوانب له ، بل قائم فى العراء ، والأصل فيه هو صندوق الغازوزة الأخضر الخشبى الكائن على ناصية قطعة أرض فضاء مليئة بالقمامات .

وقد امتد الصندوق الخشبى ، ونما ، وتفرع ، فوضعت بجواره أربعة أعمدة من الخشب تحمل سقيفة من الخيش ، وسدت جوانب المربع بعض قطع الصاج المعوج ، ثم وضع فى أحد أركانه موقد لعمل القهوة والشاى ، ولإيقاد جمر الجوز ، ووضع فى قصعة مليئة بالماء القذر خليط من الكوبات والفناجين .

هذا هو جناح القهوة ، أما جناح المطعم فنجده فى الركن المقابل الأقرب إلى الطريق ، وهو وابور غاز داخل صفيحة فتحت فى أحد جنباتها فتحة تتسع لإدخال الوابور ، ووضع فوقها الفول المدمس ، وبجوارها وابور آخر وضعت فوقة طاسة مليئة بالزيت الوسخ الذى عامت على سطحه قطع الطعمية وقد أخذت تطشطش ويتناثر منها رذاذ الزيت .

وبجوار الوابور قصعة وضع فيها بصل أخضر ، وكرات وليمون ، وقصعة أخرى حوت أطباقا سوداء وبضعة أرغفة .

فإذا تركنا جناح المطعم ، واتجهنا إلى جناح الفاكهة والحلوى ، وجدنا قفصا مقلوبا وضعت عليه قطع القصب وقد قسمت إلى قسمين ، قسم ذو عقلتين ، وقسم ذو ثلاث عقل ، وبجواره قفص رص عليه البرتقال الأخضر الصغير ، هذا هو قسم الفاكهة . أما قسم الحلوى فقد تجمع كله فى قصعة حوت بعضا من نبوت الغفير ، وبراغيت الست ، وخلف القصعة والقفصين جلست الست نفسها صاحبة البراغيت ، وهى أم حنفى مديرة قسم الفاكهة والحلوى ، وهى امرأة ذات وجه ، من الخطأ أن يسمى وجها ، وجه تآمر عليه الجدرى والقبح ، ففعلا به ما فعلت عوامل التعرية بالآثار الغابرة وأخرجته عن صفته كوجه .

أما بقية الأقسام فيديرها الجرمون — صاحب المحل — بمساعدة صبيه زقلط ،

والاثنان أشبه بإبليس وصبيه ، فى الشر والخبث واللؤم والأذى .

وجلس « عبس » على حجر أمام صندوق الغازوزة وطلب جوزة ، وأطلق العنان لميمون وزنوبة (العنزة) ، وقبع ميمون فى مكانه ، فقد كان فى حالة تعب وقرف ، أما زنوبة فقد انطلقت إلى كوم من القمامة تعبث فيه بأنفها .

وألقى « عبس » التحية لأم حنفى :

ـــ مساء الخير يا أم حنفى .

ـــ اسعد مساك يا بنى ، كيف الحال ؟

ـــ رضا .

ـــ وميمون ؟

ونظر إليها ميمون بطرف عينيه ، متألما من قبحها ، ولم يكلف نفسه مشقة الالتفات إليها ، ورد عبس بالنيابة عن ميمون :

ـــ والله متعب بعض الشىء ، لست أدرى ما به ؟

ـــ أعط له حقنة شيح .

وكتم ميمون غيظه من بلاهة المرأة ، ومن حشرها نفسها فى كل ما لا تفهمه ، حتى الطب ، وسكت على مضض .

وانتهى عبس من شد حاجته من الأنفاس ، وقام يدندن : « جوزه من الهند ومركب عليها غاب » . ومد يده فسحب السلسلة التى ربط بها ميمون ، ثم نادى على زنوبة واتجه بهما إلى البيت .

كان البيت لا يزيد على حجرة من الطين ، ما زال ميمون يذكر كيف شيدها عبس ، وكيف خمر الطين فى حفرة ، وأخذ يقطع منه بيديه كتلا يلفها بالقش ويسميها جالوص ثم يضع الجالوص فوق الجالوص ، حتى أقام الجدران الأربعة ولم يرتفع بها حتى تصل إلى علو هامته ، بل نزل بأرض الحجرة من الداخل حتى يوفر على نفسه مشقة الارتفاع بالجدران ، وأصبحت الغرفة أشبه بقبر حفر فى الأرض ، وأخيرا وضع عليها سقفا من سعف النخيل .

هذه هى الدار من حيث البناء . أما من حيث الأثاث ، فقد كان كل ما فيها من لون الأرض والجدارن : حصير فرش فى أحد الأركان وكوم من الأغطية السوداء الممزقة ، ووسادة من القطن المسلح ، فقد كانت من فرط صلابتها كأنما قد خلط بقطنها كمية لا بأس بها من الزلط والحديد والأسمنت .

وفى ركن الغرفة وضع صندوق حوى كل ما يملكه من أمتعة ، وخرق بالية . وعلى أحد الجدران علق رف وضع عليه مصباح غاز بلا زجاجة .

ودلف الثلاثة إلى الحجرة ، فقد كانت مأوى لهم جميعا . وكانت روح الديمقراطية تسرى فى الحجرة بأجلى معانيها ، لا فرق بين إنسان وقرد وعنز . شركاء فى المرقد والمأكل والملبس .

وألقى عبس من فوق كتفه بالخرج الذى حوى أدوات الشغل ، ووضع الرق على الرف ، ثم تربع فوق الحصيرة ، وأخرج من أحد جيوبه صندوق المعسل وبدأ فى لف سيجارة ، وتمددت زنوبة على الأرض ، وأغمضت عينيها فى شبه إغفاءة ، وجلس ميمون على مؤخرته وأخذ يحك بيمناه رأسه موجها إلى عبس نظرات حانقة ساخطة .

ولم يغب عن عبس معنى تلك النظرات ، وأدرك أن فى جوف ميمون ثورة مكبوتة ، فقال له ، وهو يلصق ورقة السيجارة بطرف لسانه :

— ما بك ؟

ولم يكن هناك أسهل من التفاهم بين ميمون وصاحبه ، وبينهما وبين العنز ، فقد اصطلح الثلاثة على لغة للتفاهم هى خليط من حديث الإنسان ، ومأمأة العنز ، ولهجة القردة . ونظر ميمون إلى صاحبه فى غير اكتراث ، وأجابه فى يأس :

— لا شىء ...

— إذا فما بالك تتململ كأنه عليك البيضة ؟!

ولم يجب ميمون ، بل انطلقت من صدره زفرة حارة ، وعاد عبس يتساءل :

ـــ قل . ما بك ؟

ـــ أيرضيك هذا الحال ؟

ـــ ما له هذا الحال ؟. أى شيء لا يرضيك فيه ؟. عطشان ؟ جعان ؟ ناقص نوم ؟. احمد ربنا « وبوس إيدك وش وضهر » . لا شغله ولا مشغله ، اللهم إلا هذه الحركات التافهة التى لا تكلفك جهدا ولا مشقة : « سلام أسيادك » ، « عجين الفلاحة » ، « نوم السكران » . ، أهذا كل ما يتعبك ؟

ـــ أجل هذا كل ما يتعبنى .. هذه التفاهة .. وهذا الروتين .. أربع سنوات وأنا ألف بك الدروب والحارات . أربع سنوات .. أى ألف وخمسمائة يوم بمعدل خمسين مرة فى اليوم ، فلو حسبت أعمالى لاتضح لك أننى أتيت ثلاثين ألف « سلام أسيادك » وثلاثين ألف « عجين الفلاحة » .. وثلاثين ألف من كل هذه السخافات التى لا يستطيع عقلك الضيق أن يبتكر سواها .. ترى متى تكف عن هذا الجمود .. وتخرج عن ذلك الركود .. ؟ .. متى يتفتق ذهنك المظلم عن أشياء غير هذه التفاهات ؟.. أتظن أننا سنقضى العمر لا نفعل أكثر من : سلام أسيادنا .. وعجين الفلاحة ؟

وأشعل عبس سيجارته من المصباح الغازى . ثم نظر إلى ميمون ورفع حاجبيه الكثيفين وتساءل فى دهشة :

ـــ ماذا تريد أن تفعل إذا ؟ قرد وقرداتى !! ما تريد منهما أن يفعلا أيها الأبله ؟... يشكلان الوزارة ؟.. يؤلفان حزبا ؟.. قرد وقرداتى !! ماذا يمكن لهما أن يفعلا أكثر من : سلام أسيادك .. وعجين الفلاحة ؟.

ونظر إليه ميمون وأجابه فى لهجة مليئة بالسخرية والازدراء :

ـــ ألا يمكن أن يفعلا سوى ذلك ؟.. أهذا كل ما فى وسعهما ؟

وضاق الرجل ذرعا فصرخ فيه :

ـــ أجل ... هذا كل ما فى وسعهما ... منذ أن وعيت على هذه الحياة ... وأنا أعرف أن القرداتى والقرد ، لا عمل لهما إلا أن يسحب أولهما الآخر ويأمره بأن

يفعل : سلام أسياده ، وعجين الفلاحة .. وليس على القرد إلا السمع والطاعة ، ما رأيت قردا يتأفف من عمله كما تتأفف ...

ـــ أنا لا أتأفف .. أنا أريد ثورة على هذه التقاليد البالية ، والأوضاع القديمة . كل شيء سائر فى طريق التطور والتقدم إلا نحن .. العربات الكارو ، والسوارس ، قد تطورت إلى سيارات وطائرات .. والسينما الصامتة قد نطقت ، والسيوف قد تطورت إلى دبابات وطائرات وقنابل ذرية ؛ كل شيء قد تغير وتبدل إلا نحن ، ما زلنا نفعل سلام أسيادنا .. لم نتقدم قيد أنملة !!

وصمت عبس ؛ وأخذ يحك رأسه بيده مفكرا ، ثم قال بعد برهة :

ـــ ولكن لم تقارننا بتلك الأشياء التى لا صلة لنا بها : السوارس ، والطائرات ، والقنبلة الذرية ؛ ما لنا ولهذا ؛ لم لا تقارننا بأشباهنا ونظائرنا .. لم لا تقارننا بهذ البلد الذى نحن جزء منه .

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ أعنى أن كل شيء فيه لم يتقدم قيد أنملة ؛ لقد ضقت ذرعا إذ مضى عليك أربع سنوات وأنت لا تفعل سوى عجين الفلاحة ؛ فما بالك بالفلاحة نفسها التى مضى عليها عشرات الأعوام وهى لا تجد ذلك العجين الذى تقلدها فى عجنه .. ما بالك بالفلاح الذى قضى مئات الأعوام وهو لا يجد لشربه سوى الماء العكر المخلوط بكل ما فى جعبة عزرائيل من أمراض وجراثيم ؛ لا يدقون له طلمبات المياه النظيفة إلا عند كل وباء ؟. ما بالك بالفلاح الذى مضت عليه مئات الأعوام يضرب الأرض بفأسه لينبت منها ثمرا شهيا يطعمه لأولئك الراقدين فى فراشهم ، الرافلين فى الخز والديباج ، الذين تبدو على وجوههم نضرة النعيم ، الذين لا يفعلون شيئا سوى المضغ ، لا شيء أكثر من تحريك الأسنان ، لمضغ الثمار ومضغ الأموال ؛ والمسكين الذى كد وشقى ، ما زال محنى الظهر ، يضرب الأرض بفأسه ، أنهكه العرى والجوع والمرض ، ينتظر أن يلقى له السادة بعض الفتات ، أو بعض النوى وبعض القشور ؛ ولكنهم يأبونها عليه . ويقولون له :

اصبر وانتظر ؛ نحن جادون من أجلك . ومن أجل رفاهيتك ؛ ألا ترى اللجان التى نعقدها ؛ والجهد الذى نبذله ؟

لقد ضقت ذرعا يا ميمون لأنه مضى أربعة أعوام وأنت تفعل « سلام أسيادك »فما بالك بأسيادك أنفسهم الذين مضى عليهم ستون عاما ، وهم لا يفعلون سوى « سلام أسيادهم » ؛ ما بالك بالأسياد الذين يتولون أمورنا ويتبادلون علينا ؛ الواحد بعد الآخر ؛ فلا يفعل كل منهم سوى « سلام أسياده » ؟ فلابد لكل منهم أسياد يؤدى لهم التحية ويأتمر بأمرهم ، ويتلقى منهم الوحى والإلهام ... ما بالك بالخطب التى يتلونها منذ عشرين عاما كالبيغاوات ، يكرر كل منهم ما قاله سلفه ، حتى والله ليخيل إلى أن كلا منهم يتلو ما كتب دون أن يفهم له معنى ، فهو يتلوه لمجرد التلاوة ، إذ يعتبر أن واجبه قد انتهى عند حد التلاوة ، ولا أكثر من هذا .

لقد ضقت ذرعا يا ميمون لأنك قد مضى عليك أربعة أعوام ، وأنت لا تفعل سوى « نوم السكارى » ، فما بالك بمجلس « النوام » الذى مضى عليه أكثر من عشرين عاما وهو يغط فى نومه ، يتبادل عليه « النوام » الذين يجعجعون فى خارجه ، فلا يكاد يحتويهم المجلس ، حتى ينزل عليهم — كما يقولون — سهم الله ! ونرى الأحرار الذين نووا أن يحرروا العبيد قد أضحوا عبيدا وننصت إليهم علنّا نسمع منهم صوتا ، فلا نسمع إلا الشخير والزفير !! ويظلون يجاهدون فى نومهم ، حتى يوقظهم صوت سقوط السادة ، فيخرجون فى أذيالهم ؛ ليدخل غيرهم ويستمتع بالنومة ؛ والأربعين جنيها ؛ وأبونيه السكة الحديد ، وقضاء الحاجة عند السادة .

أترانا يا ميمون خيرا من هؤلاء ؛ وهؤلاء ؟

أأصابك الملل من أربعة أعوام ؛ كيف إذاً بأصحابنا الذين مضى عليهم ستون عاما وهم يقولون : إنهم سيجلون عنا ، وعن أراضينا ؛ ومع ذلك ما زالوا باقين حتى يومنا هذا ؟ لا .. لا .. يا ميمون ، يجب أن تكون أكثر عقلا ، وأن ترضى بما نحن فيه .

* * *

وصمت عبس ، واستلقى على الحصيرة واضعا رأسه على الوسادة ، ومد ساقيه ، وتمطى ؛ وقد أحس بالرضا من خطبته التى حاول بها أن يقنع ميمون ، وفتحت « زنوبة » عينها برهة ، وانتقل بصرها ما بين عبس وميمون ، ثم عادت إلى نومها الهادئ ، وساد الصمت فترة ، وبدا على ميمون أنه قد استغرق فى تفكير عميق ؛ وأخيرا رفع رأسه وقال فى إصرار :

ـــ إنى ما زلت أصر على أنه لابد لنا من التجديد والابتكار ؛ بل إن حديثك هذا قد زادنى إصرارا ، وزادنى رغبة فى الخروج عن ذلك الركود الذى نحن فيه ؛ أجل ، لمَ نحاول أن نتشبه بأولئك الخاطئين . لم لا نعطيهم مثلا صالحا .. بل لمَ لا نحاول أن نوقظهم من سباتهم . لمَ لا نحاول أن نظهر للناس عيوبهم وننتقد أخطاءهم ؟!

ـــ يا ميمون دعنا فى حالنا ، دعنا نأكل عيشا .

ـــ ومن قال لك إننا لن نأكل عيشا .. أؤكد لك أننا سنأكل « بقلاوة » لو أطعتنى .. وفعلت ما أشير عليك به .

ـــ نم يا بنى ربنا يهديك ، لا تجلب لنا المصائب .

ـــ وماذا يضيرك فى أن تستمع إلى ، وتنصت إلى المشروع الذى سأعرضه ، فإن لم يعجبك ، فإنك لن تخسر شيئا .

وقال عبس بشىء من الملل :

ـــ تكلم !

ـــ أولا نبطل كل هذه الحركات التافهة التى نقوم بها الآن .. ونطلقها إلى غير رجعة ، ونسرح زنوبة فلن تكون بنا حاجة إليها بعد الآن .

فتحت زنوبة عينيها ببطء ونظرت إلى عبس ووجهت إليه القول دون أن تكلف نفسها مشقة النظر إلى ميمون :

ـــ نم يا عبس ، نم .. لا تستمع إلى هذا الأحمق المجنون .. إنه سيؤدى بك إلى التهلكة .

ثم وجهت القول إلى ميمون :

ـــ هل تنوى بسلامتك أن تقف أنت بقوائمك الأربع على البكرات ، يا لك من مغرور ، أتظنها أمرا سهلا . لم لا تجرب ؟ جرب ، حتى تقع على رأسك فتتهشم وتريحنا من وجهك القبيح ومن أفكارك السخيفة .

وأجابها ميمون باحتقار :

ـــ عودى إلى نومك أيتها الحمقاء ، ولا تتدخلى فيما لا يعنيك ، هل تظنين أن الوقوف على البكرات هو كل ما فى الحياة ؟!

ثم عاد يوجه القول إلى عبس :

ـــ قلت لك إننا سننسى هذه الحركات التافهة ، ونبدأ فى حركات أخرى أرقى وأسمى . إنه مشروع ضخم ، يحتاج إلى مران ، وإلى تدريب ، وإلى رأسمال ، ويخيل إلى أن الأمر قد ينتهى بنا إلى أن نجعلها شركة مساهمة ، نستعين فيها ببعض كبار الأسماء .

ـــ أتعنى بعض كبار الرجال ؟

ـــ لا .. لا .. إن ما أعنيه بالضبط ، هو كبار الأسماء ، فكبار الرجال يندر وجودهم فى هذا البلد ، وإن وجدت واحدا منهم فلن يقبل القيام بما نطلبه منه .

أما كبار الأسماء وأصحاب الرتب فهم كثيرون ، وهم لا يزيدون على مجرد أسماء رنانة ، نقرأ عنها فى كل مناسبة ، ويشتركون فى كل عمل ، وهم فى حد ذاتهم لا شىء ، لا شىء أبدا ، لا يتمتعون بقدر من الذكاء أو الشخصية أكثر مما تتمتع به « زنوبة » .

ولو منحنا « زنوبة » ألقابهم ووضعناها فى مراكزهم لما أحس أحد بالفرق بينها وبينهم .

وفتحت زنوبة عينيها وسألت ميمون :

ـــ هل يستطيعون الوقوف على البكرات ؟

ـــ لا أظنهم فى مثل مهارتك ، على أية حال نحن لن نستعملهم فى الوقوف على

البكر ، بل نستعملهم — أو على الأصح سنستعمل أسماءهم — فى قضاء حاجاتنا وتسهيل أمورنا عند ذوى الشأن ؛ بل قد يصبحون هم أنفسهم ذوى الشأن ما بين يوم وليلة .

وتمطى عبس وتثاءب ، وقال لميمون :

— لم تقل مشروعك بعد .. أوجز فى الحديث فإنى أوشك على النعاس .

— والمشروع يتلخص فى أن نحاول تقليد مختلف الهيئات والبيئات والجماعات ، وأن نشهر بهم وبعيوبهم ، وألا يقتصر الأمر على وعليك ؛ بل ننشئ فرقة كبرى للقرود ؛ وننظمها وندربها ؛ أنا أعلم أن الأمر ليس من السهولة كما يبدو ؛ وأن المسألة تحتاج إلى كفاح وجهاد وعمل ؛ بحث ودراسة ، وتمحيص ، ولكننى أؤكد لك أننا لابد أن نصل وأننا سنستطيع أن نؤدى للبلد عملا جليلا ، فتكشف للبلد عيوبه ونفضح مساوئه ؛ سيخشانا الجميع ؛ ويتحاشون الخطأ خشية أن نفضحهم أمام الناس ؛ وسيحاولون جهدهم أن يكونوا أفضل مما هم حتى لا يعطونا فرصة التشهير بهم ، ما رأيك ؟

— كلام فارغ .

— لا .. لا .. ليس كلاما فارغا ؛ يجب علينا أن نبدأ المشروع فنرسل دعوة إلى جميع « القرداتية » والقرود ، لكى نعقد اجتماعا للبحث والتشاور ولوضع أسس العمل ، ولترشيح كبار الأسماء التى ننوى أن نشركها معنا .

ثم نرسل بعد ذلك مندوبين لدراسة المصالح المختلفة والهيئات المتعددة ، لكى تكون لديهم فكرة صحيحة عما يحدث هنالك ؛ ولكى يكون تدريبنا ومراننا على أساس صحيح .

— كفى سخفا وهراء .. ودعنى أنام .

— استمع حتى النهاية ؛ سنرسل مندوبا مثلا إلى المعاشات فى المالية ؛ ومعه طلب بأن زنوبة هانم زوجة المرحوم ميمون أفندى ساكن الجنان ، قد توفى زوجها أثناء تأدية واجبه وهى تطلب أن تتنازل لها الحكومة عن نصيبها فى المعاش ،

ومندوبا آخر إلى التنظيم فى الأشغال ومعه طلب بأن زنوبة هانم تطلب الحصول على تصريح بهدم منزلها الآيل للسقوط ، ومندوبا ثالثا إلى وزارة الأوقاف ومعه طلب بأن زنوبة هانم المستحقة فى وقف ميمون الجبل قد مضى عليها ثلاثون عاما وهى لا تستولى على استحقاقها فى الوقف ، وأنها قد أرسلت خمسمائة وخمسين شكوى لم يبت فيها إلى الآن ؛ وهكذا فى كل مصلحة ، وكل وزارة ، ويستمر المندوب وراء الطلب ، يرى فى النهاية ما سيحدث له ، وبذا تتاح له فرصة الدراسة ، وتتاح لنا بعد ذلك فرصة التشهير .

ــ أيها الغبى ، هل تظن هذه الأشياء تستحق الدراسة ؟ سأخبرك أنا عن مصير كل خطاب دون حاجة إلى مندوب : الطلب الأول ، سيضطجع فى الأرشيف لبضعة أشهر ، وفى مكتب كل موظف من موظفى المعاشات بضعة أشهر أخرى ، وتمر سنة أو سنتان والطلب مستغرق فى هجعته ، فتحاول الست زنوبة أن تتوصل إلى بعض ذوى الشأن وتشكو لهم أمرها ، فيكلم ذو الشأن هذا مراقب المعاشات أو أى امرئ آخر له شأن فى المعاشات ، فيأمر الأخير بأن يحضر إليه الطلب ، فيبحثون عنه بين أكداس الملفات ، ويمر أسبوع فى البحث عنه ، ثم يخبرونه أخيرا بأن الملف قد فقد ، فتكتب الست زنوبة طلبا آخر ويؤشر عليه بأن يعرض على وكيل الوزارة المختص ، ويعرض الطلب على وكيل الوزارة فيؤشر عليه « بأن ميزانية الدولة لا تسمح بتحمل هذه الأعباء » ، فيكلم ذوو الشأن وكيل الوزارة ويرجونه الموافقة على الطلب ، فيتضح لوكيل الوزارة أن موارد الدولة تسمح بتحمل هذه الأعباء ، ويؤشر بالموافقة ، ويكتب بعرضه على اللجنة المالية ، ويمر بعد ذلك عام والطلب يتهادى فى اللجنة المالية .

وتتوصل زنوبة هانم مرة أخرى إلى ذوى الشأن ، فيمر طلبها من اللجنة المالية ويحول إلى مجلس الوزراء ، ولا يهمون بعرضه على المجلس حتى تسقط الوزارة ، فيعاد الطلب مرة أخرى لكى يبدأ سيره من جديد من أول الأرشيف ، ليمر بالدورة السابقة ، ولست أشك فى أنه قبل أن يصل إلى مجلس الوزراء فى هذه

المرة ، وتكون زنوبة هانم قد لحقت بالمرحوم الطيب الذكر ميمون أفندى ساكن الجنان الذي تستولى الحكومة على نصيبها من معاشه الذى لا يزيد على ثلاثة جنيهات .

هذا عن الطلب الأول ، أما عن الطلب الثانى فلا أظن إلا أنه ستتملكه الحيرة ما بين التنظيم والمحافظة . وأن التصريح بالهدم لن يعطى إلا بعد أن يكون البيت قد سقط فعلا ، أما الثالث فستكون نتيجته أن زنوبة هانم ستؤمر بدفع ما هى مدينة به إلى الوقف ، رغم أنه ليس هناك وقف باسم ميمون الجبل .

ما رأيك يا عم ميمون ، هل تراك فى حاجة بعد ذلك إلى إرسال مندوبين للدراسة والبحث ؟

فأطرق ميمون برهة ثم أجاب :

ـــ على أية حال أرى أن نبدأ بدعوة الزملاء من القرود والقرادتية ، وبأن نعقد الاجتماع للبحث والتشاور .

و لم يجب عبس ، واستغرق فى التفكير حتى راح فى سبات عميق . وبعد برهة استلقى ميمون وأغمض عينيه ، واستسلم للنوم .

ومضى أسبوع وأسبوعان على هذه المناقشة بين ميمون وصاحبه ، وفى ذات صباح استيقظ الناس ليجدوا فى الصحف نبأ خطيرا جاء فيه :

مؤامرة كبرى لقلب نظام الحكم

« اكتشف البوليس السياسى أمر مؤامرة خطيرة نسجت خيوطها فى عشش الترجمان ، وقد قبض على أصحاب المؤامرة ، وكان بينهم عدد لا يستهان به من القرود ، ويقال إنهم قد عثروا مع المتآمرين على كشف به بعض كبار الأسماء من الذين سيشتركون فى المؤامرة .

وقد جاءنا أمر حظر من النيابة ، بأن لا يذاع شىء عن المؤامرة خوفا على سرية التحقيق ، ونحن ـــ عملا بأمر النيابة ـــ نمسك عما لدينا من معلومات خطيرة ومن وثائق هامة بخصوص هذه المؤامرة » .

وسمع الناس بعد ذلك أخبارا شتى نشرتها الصحف الأجنبية مؤداها : أن القرود قد تولوا زمام الحكم فى مصر ؛ وأن المعارك بين القرود والناس على أشدها فى شوارع القاهرة ، وأن القرود فى حديقة الحيوانات قد حطموا الأقفاص وخرجوا لينقذوا إخوانهم الذين سالت دماؤهم أنهارا فى الطرقات والميادين .

وكتبت « الديلى إكسبريس » تقول : إن قرود أفريقيا أرسلوا برقية احتجاج إلى مجلس الأمن يطلبون منه التدخل ويهددون بالزحف على مصر .

وكتبت « الديلى هيرالد » تقترح : أن تقسم مصر بين المصريين والقرود

وكتبت إحدى الجرائد المصرية تقول : إن المؤامرة ليست ضد العرش ؛ وأن أصحاب الأسماء التى عثر عليها لم يقبض عليهم بعد ، واتهمت حزبا معينا بتدبير المؤامرة .

ومضى أسبوعان والنيابة جارية التحقيق ، والبوليس السياسى جاد فى النشاط واليقظة ومراقبة كل أصناف القردة والماعز .

وفى نهاية الأسبوع الثالث نشرت الصحف البلاغ التالى :

« أصدرت النيابة أمرا بالإفراج عن المتهمين فى قضية قلب نظام الحكم بعد أن اتضح لها سلامة نية المتهمين ، وأمرتهم بالكف عن التجمهر ، وعقد الاجتماعات ، وأمرت زعيمهم عبس بأن يحد من نشاطه » .

وفى ذات ليلة عاد ميمون وعبس إلى جحرهما بعد أن أفرج عنهما ؛ وعلى الباب استقبلتهما زنوبة وقد هطلت دموعها وقالت لعبس :

ـــ ألم أقل لك لا تسمع إلى هذا الأحمق المأفون ؛ إنى أعرفه خيرا منك .

وطأطأ ميمون برأسه خجلا وأجاب بصوت خفيض :

ـــ تبت إلى الله ؛ هذا البلد لا يستحق أكثر من « سلام أسيادك » و « نوم السكران » !

لـــو تعــلمون

﴿ ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر * كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ .

« قرآن كريم »

ألهانا التكاثر حتى زرنا المقابر .

لنبدأ قصتنا من ههنا .. زيارة من زيارات المقابر .. جنازة حارة .. نواح وصياح .. نعوش وقبور .. أجداث وأكفان .. حانوتية وتربية !!

لا تفزعوا ولا تروعوا ، ولا تولوا منى فرارا ، ولا تمتلئوا رعبا ... لا يصيبكم منى تشاؤم ، أو تطير ؛ أو تظنونى « ندابة » أستدر الدمع وأنتزع النواح ، أو أبكى محزونا أو « أريد جنازة أشبع فيها لطما » !

لا تظنوا بى الظنون .. فبعض الظن اثم !! إنى مخلوق مرح ، لا تنال من إحساسى الجنازات أكثر مما تنال من الحانوتية .. وأقصد بالجنازات هذه « الزفف » والمظاهرات التى تشيع بها النعوش ،أو هذا التهريج الذى يأبى المهرج الأكبر ــ أعنى الإنسان ــ إلا أن يحيط به موتاه .

خذوا المسألة بسهولة ــ كما أخذها ــ ولنتحدث عن الموت والقبور والنعوش ، كما نتحدث عن أى شىء فكه طريف ، ولا تخشوها أبدا ؛ وأزيلوا من أنفسكم كل ما علق بها من أوهام كاذبة تخيفكم منها ؛ واعتبروا المسألة كلها ليست أكثر من نهاية الشىء ؛ وهل هناك شىء بلا نهاية ؟! ماذا يخيفنا إذن من أن يكون لنا نهاية ؟! ومن أن نسلى أنفسنا بالحديث عن النهاية وما حول النهاية !

اتفقنا ؟ فلا خوف ولا جزع ولا فزع !

ابدأ الحديث إذن ! ولتسمعوا منى وصف الجنازة ، تماما كما تسمعون وصف « ماتش كرة » أو وصلة غنائية .

بأى جنازة أبدأ ؛ وبقصتى جنازتان ؟! وبأى بطل أبدأ ، وبقصتى بطلان ؟!

جنازتان مختلفتان كل الاختلاف ؛ متباينتان تمام التباين .. بين إحداهما والأخرى ما بين السماء والأرض ، أو ما بين الذروة والحضيض ، ولم نذهب بعيدا ؟ وبين إحداهما والأخرى ما كان بين الميتين ، عندما كانا على قيد الحياة ، على قيد الحياة فقط !!

ولو وضعنا للجنازات درجات ، كما نضع للوظائف الحكومية واعتبرنا إحدى الجنازتين أولى ممتازة ، فلاشك أن الأخرى لن تكون أكثر من تاسعة « ج » .

لنبدأ بأولاها : الجنازة الممتازة ، الفخمة الضخمة ؛ فيروعنا أول ما يروعنا، إطارات سميكة سوداء كللت هام الصحف وصورة الفقيد ؛ فقيد الشهامة والشرف والعلم ؛ والأدب والمروءة و .. و .. إلخ . تتوسط صحائفها .. ثم تطالعنا تحتها قصائد الشعراء يرثون بها الفقيد .. لا يعلم إلا الله متى نظموها .. أبعد أن مات الفقيد .. أم عندهم مرثيات جاهزة .. من مقاسات مختلفة تناسب الفقداء الأعزاء ؟!

ثم نقرأ بعد ذلك مائة نعى من مائة هيئة مختلفة . موظفو البنك الاقتصادى .. والشركة العقارية .. وجمعية تحسين الخطوط .. وجماعة الأدباء المنكوبين .. ونقابة الحانوتية .. ومحررو جريدة المصباح المنير .. و .. و .. إلخ .

ثم لا يخلو الأمر بعد كل هذا من طفاطيق مختلفة .. تطالعنا عناوينها بالخط العريض « إلى الراحل العزيز » . و « دمعة » ، « ولوعة » و « فى جنة الخلد » . وفى أسفل الطقاطيق نقرأ الإمضاءات « الباكى الحزين » ، و « الآسف الملتاع » .

فإذا تجاوزنا كل هذه الإعلانات عن الميت (تحضرنى بهذه المناسبة فكرة أرى فيها ابتكارا فى عالم الوفيات ، وهى أن يعلنوا عن الوفيات بواسطة إعلان الجدران .. أو العربات الكارو والطبلة التى تستعمل فى الإعلان عن سينما إيديال ..) أقول إننا إذا تجاوزنا كل هذه الإعلانات ثم اتجهنا إلى بيت القصيد أو بيت الفقيد بجاردن سيتى وجدنا فى الدار هرجا ومرجا .. وأبصرنا القوم وقد انهمكوا انهماكا تاما فى تحضير الجنازة .

ويلوح لنا أول ما يلوح ، سرادق رفيع البنيان قد اكتظ به القوم وامتلأت مقاعده المذهبة وأخذ الفراشون يجوسون خلاله بملابسهم الأنيقة المزركشة يوزعون أكواب المياه المثلجة على المعزين ليطفئوا بها غلتهم ويرطبوا بها أجوافهم .

الوقت ما زال مبكرا ، وأمامنا ربع ساعة حتى تخرج الجثة .. هل تسمحون لى أن أجول بكم جولة بين المعزين وأن أنصت إليهم فأنقل إليكم أحاديثهم ؟ إن الأمر يتطلب منى جهدا ومشقة حتى أستطيع أن أكتم الضحك .. فإن مناظرهم مضحكة جدا وهم يحاولون أن يكسبوا وجوههم مظهر الحزن والأسى : هذان أثنان قد بدت عليهما علامات الحزن وأقبلا على بعضهما يتهامسان .. ولا يشك الناظر إليهما أنهما يذكران محاسن الفقيد ويترحمان عليه .

لننصت جيدا .

همس أولهما وهو رجل قصير بدين ، لا تكاد قدماه تبلغان الأرض .. ذو منظار ثخين .. تبدو من خلفه عيناه الضيقتان :

— لقد قدمت مائة مذكرة ومائة شكوى وأخيرا طلبت أن أنقل إلى الضرائب فقد يفيدنى التنسيق هناك .

— لا فائدة .. فالدرجات هناك محجوزة .

— أنقل إلى أية داهية !!

ثم التفت إلى الفراش ، ومد يده من فوق الصينية وجرع الكوب الخامس ، وعاد يهمس وقد كسا وجهه المظهر إياه :

ـــ يا أخى .. أكلت فسيخ حمى على قلبى .. إنى أحس بجوفى نار الله الموقدة .

ـــ خذ كوربونات الصودا .

لنترك الاثنين منهمكين فى الدرجات والفسيخ وكربونات الصودا . وننتقل إلى آخر بجوارهما قد شد نفسه .. وبدا متأنقا متحذلقا .. مال طربوشه على أحد حاجبيه ، وبدا وجهه « مخدوما » وشاربه منمقا ، وأحنى الرجل نفسه من العنق ، وبدا على وجهه أبلغ آيات التأثر .. لا يكاد يرفع بصره عن حجره الذى وضع فيه يديه اللتين أمسكتا بمنظار أسود تعبثان به .

ولو حاولنا أن نتبع بصر الرجل بدقة .. لوجدناه قد ثبت على زجاج المنظار الذى انعسكت فيه صورته جلية واضحة .. كأن الرجل يحدث نفسه وهو يمعن البصر فى صورته :

ـــ هذا الحلاق الغبى لن أذهب له بعد ذلك .. لقد قص كثيرا من الطرف الأيسر للشارب مع أننى حذرته من ذلك .

ثم أدار يده ببطء وألقى نظرة على الساعة .. وكأنى به يحدث نفسه :

ـــ متى سيخرج الفقيد ؟ .. عليه وعليهم لعنة الله .. الظاهر أنى سأتأخر عن الموعد .. وسأذهب فأجدها قد خرجت أو أجد زوجها هناك .

هذه هى الفاجعة التى سيسببها لى الفقيد .

فإذا ما تركنا صاحبنا الحزين على شاربه ، الملتاع على موعده ، واتجهنا إلى ركن قد جلس فيه بعض كبار القوم .. مال كل منهم على جاره يتهامس وإياه ، وسمعنا أحدهم يسأل الآخر .

ـــ ماذا فعلت فى استجوابك ؟

ـــ سأؤجله .

ـــ ولم ؟ إنه سيهز الوزارة !

ـــ سيقضون لى الحاجة التى أريدها ، فلست أرى داعيا له .

ثم ننتقل إلى الآخر فإذا به يهمس فى أذن جاره :

— ما الأخبار ؟

— لا جديد .

— واجتماع أمس .. ماذا تم فيه ؟

— لا شيء .. قرارات وبيانات وكان الله يحب المحسنين .

ونجد بين القوم واحدا منفردا ، وقد جلس ووضع ساقا على ساق .. وكسا نفسه مظاهر العظمة الحزينة كأنما يعطى مثلا لمن حوله كيف يكون حزن العظماء . وفجأة يكتشف الرجل أن هناك « نقرة » فى جوربه فيسرع فى إنزال ساقه ويخفى ساقيه أسفل المقعد ويحدث نفسه فى ثورة مكتومة :

— بنت الكلب .. لقد قلت لها أن تصلح الجورب . والله لأقتلنها ضربا عندما أعود إلى البيت .

ولا أظننا سنجد بعد ذلك ، بين هذا الحشد من المعزين من هو خير ممن وصفنا .. فكلهم ذلك الرجل .. مظهر حزين .. ونفس أبعد ما تكون عن الحزن . اللهم إلا قلة ممن أصابهم فقد الميت بخسارة مباشرة .

ونترك الصيوان فنجد مئات الطاقات قد صفت على طول الطريق ، وقد أمسك بها مندوبو الهيئات التى قدمتها ونقشت على قطعة الحرير التى ربطت بالطاقة اسم الهيئة « المساعى المشكورة » ، و « نقابة بائعى البسبوسة وجوز الهند » ، و « مدرسة السقا مات » .. إلخ .

وندخل إلى حديقة الدار الفسيحة .. فنجد القوم يهبطون بالنعش من فوق الدرج ، ونسمع نهنهة وبكاء ، ونلمح أشباح نساء متشحة بالسواد .. لم تخل وجوه بعضهن من الأصباغ ولا كفت ألسنة بعضهن عن نهش بعضهن ، أو كفت عيون بعضهن عن التحديق فى حلى بعضهن ومودات بعضهن .

وبين كل هذا الخليط من الآدميين : نساء ورجال ، أحياء وأموات يلوح لأعيننا البائسون الوحيدون فى هذا الجمع الصاخب .. أتدرون من هم ؟!

بضعة خراف .. قد وقفت فى ساحة الدار .. مطاطئة الرؤوس .. تنتظر

مصيرها المحتوم .. وبجوارها جزار « يسن سكينه » لينحرها أمام النعش .

وكأنى بأحدها ينظر إلى النعش ، ثم إلى أصحابه ، ويهز رأسه .. ويقول فى حسرة : « وما ذنبنا نحن ! » .

وتمت عملية النحر ، وخرج النعش إلى الطريق ، وفرقعت فى الهواء عدة أصوات ، وهب جمهور المشيعين من مقاعدهم خارجين من الصيوان .. وكانت الهيئات قد اصطفت على طول الطريق أمام النعش .. تتقدمها الموسيقى .. وتتخللها طاقات الزهر مرفوعة فوق الأكتاف .

وصدحت الموسيقى .. وبدأ الموكب يتحرك .. وسار عساكر المرور بجيادهم فى طليعة الموكب يفسحون الطريق ؛ وامتلأت الشرفات والنوافذ بالمشاهدين ، وقد بدت على وجوههم علامات الإعجاب والسرور ؛ ولم يسلم الأمر من أن يقول بعضهم لبعض : « أما جنازة هائلة » !!

ووصلت الجنازة إلى المسجد ، فإذا بالسجاجيد قد فرشت أمامه وعلى درجاته ؛ وغاب النعش فى داخل المسجد برهة حتى انتهوا من الصلاة على الفقيد ، ثم خرج يتهادى ، وحمل فى عربة سوداء أنيقة .

ووقف الأهل والأقرباء يصافحون المعزين ، ولعد لحظات كانت عربة النعش تنهب الأرض نهبا ، وقد تبعها مئات من العربات الفخمة .

ووصلت العربة إلى المقبرة الوجيهة ذات الحديقة الغناء والبناء الفخم ، واصطف عدد من المقرئين ، بجببهم الملونة وعمائمهم الحمراء البيضاء ، وأخذوا يستمطرون على الفقيد رحمة الله وغفرانه ، وعلى أنفسهم رحمة أهل الفقيد وإحسانهم .

لنترك الفقيد العتيد ؛ فقيد سلسلة الفضائل التى عددناها فيما سبق ، ولنستحث الخطى حتى نلحق بجنازة الفقيد المسكين الميت بعشش الماوردى ، التى لا تبعد كثيرا عن قصور جاردن سيتى .

ميتنا هذا لم يحس به أحد ؛ فلا سودت من أجله صحف ولا رثاه الشعراء ؛

ولا نعاه الناعون ؛ لقد استيقظ زميله الذى يشاركه الغرفة ، أو قل « العشة » فوجده ميتا ؛ فأصابه الذعر وانطلق إلى الجيران ينبئهم الخبر .

وتأثر الجيران وبدأوا يجمعون فيما بينهم أجرة « الخرجة » . وأخيرا أمكنهم أن يبتاعوا للرجل الكفن وتبرع الحانوتى بنقله مجانا .

وبعد ساعات خرج النعش الخشبى العارى من الدار المتواضعة ؛ وسار فى الطريق يتبعه بضعة أنفار بالجلاليب والطواقى والأقدام العارية ، يتبادلون فيما بينهم حمل النعش ويطلبون الرحمة من الله للميت ولأنفسهم .

وسارت الجنازة تعدو فى الطريق لا يكاد يحس بها أحد ، لا طاقات أزهار ولا موسيقى ؛ ولا جند يفسحون الطريق ، بل تنتظر هى فى الطريق حتى تمر من أمامها العربات التى تتضجر منها لأنها تسبب فى الطريق زحاما .

وأخيرا يصل النعش إلى المقبرة المتواضعة ؛ حيث نبصر رجلا قد أخذ يرش الأرض بقربة ماء حملها على ظهره ؛ ثم نبصر فقيهين من نوع الميت والمشيعين وقد تربعا أمام القبر وأخذا يتلوان القرآن بسرعة كأنهما فى عجلة من أمرهما وطريقتهما فى القراءة عجيبة ؛ فهما يأخذان فى القراءة ، ثم يصمت أحدهما ويستمر الآخر ؛ وبعد برهة يلحقه فيقرآن ، ثم يصمت الثانى ، ويستمر الأول فى القراءة وهكذا بالتبادل .

وفجأة نجد أحد المشيعين قد نظر إلى الفقيهين بغيظ وصرخ فيهما :

— يا رجل منك له .. عيب ، اتق الله ، أمغالطة حتى فى كلام الله ؟!

وسأله رفاقه عما حدث ، فأخبرهم أن الفقيهين يقفزان آيات بأكملها ، ورأى الفقيهان من المشيعين « العين الحمراء » فأخذا فى القراءة بترو وتمهل .

وأخيرا أغلق القبر على الجسد وتفرق المشيعون كل إلى سبيله .

انتهت الجنازتان : الجنازة الممتازة ، والجنازة البائسة ؛ لنترك المشيعين ، فى تهريجهم ومسخرتهم .. لنتركهم جميعا ، فقد كفانا سيرا معهم فى الجنازة ، ولنسر الآن ، مع ...

مع من ؟!!

مع الميتين !!

أراكم جزعتم ؟!!. أما قلت لكم خذوا المسألة بسهولة . فلا تجزعوا ولا تفزعوا ، ماذا يفزعكم من قولى نذهب مع الميتين ؟.. من منكم يعتقد أنه من المخلدين .. من منكم يظن أنه لن يموت ؟.. بل من منكم لا يرى الموت أقرب إليه من حبل الوريد !. أنا نفسى أراه كامنا بجوارى فى كل لحظة .. فى عربة تعدو فى الطريق .. أو فى زر الكهرباء .. أو من عود ثقاب .. أو من رصاصة صغيرة .. أو من قطعة جاتوه .. أو فى كل شيء .. أو فى لا شيء .. فى سكتة من سكتات القلب .

وعلى كل حال .. لست أرى داعيا للفزع ... فإنى لم أقصد بقولى نذهب مع الميتين أن نموت معهم .. ولا حتى أن نذهب إلى قبورهم .. فإنى أعرفكم جزعين فزعين ، وأعرف أننى مهما حاولت طمأنتكم من ناحية الموت فلن تطمئنوا .. أنا أعرف ذلك ولن أكلفكم إلا ما فى وسعكم .

لن نذهب مع الميتين فى قبريهما لسبب واحد ، هو أنهما ليسا فى قبريهما ، وكل ما سنفعل هو أن نرتفع بأنفسنا قليلا .. لنترك الأرض برهة .. ولنصعد بأذهاننا رويدا رويدا .. فنحلق فوق القبرين حيث نجد الروحين قد التقتا .. وننصت إلى حديثهما فنجد أن بينهما الحوار التالى ، ونجد أحدهما يقول للآخر :

ــ أهلا .. محمد .

ــ تقصد محمد باشا ؟

ــ لا .. أقصد محمد فقط ... باشا هذه قد تركتها هنا ..

وأشار إلى أسفل ، ثم أردف قائلا :

ــ تركتها مع الجسد الذى سيصبح جيفة نتنة بعد بضعة أيام .

ــ أجل ! أجل نسيت .. اعذرنى يا معلم عبد الحميد .

ــ لا داعى لمعلم ، فقد تركتها أنا أيضا .

وساد الصمت برهة ، ثم تنهد عبد الحميد وقال لمحمد باشا سابقا :

ــ أمر عجيب !!

وسأل الباشا السابق ، وقد بدا عليه تفكير عميق وشرد ذهنه :

ــ ما هو هذا الأمر العجيب ؟

ــ ما كنا فيه .. وما صرنا إليه ؟

ــ عجيب جدا !!

ــ من كان يظن أننا سنلتقى هكذا لقاء الند للند .. أنا عبد الحميد العامل المسكين الذى استغنيت عني ضمن من استغنيت من العمال .. فلما بكيت لك واستعطفتك وقلت لك إننا لن نجد ما نقتات به .. قلت فى بساطة إن مصلحة الشركة تقتضى ذلك ، وأن السياسة العامة قد اتجهت إلى التوفير فى عمال المصانع .. من كان يصدق أنى سأقف هكذا بجوارك أنت محمد باشا صاحب الملايين .. الأمر الناهي المجاب المطاع .. وكأننا أصدقاء أو زملاء ؟!

ــ أهذا كل ما تراه من عجيب ؟

ــ بالنسبة لى .. أعتقد أنه أعجب أمر أبصرته حتى الآن ، أن أستوى أنا وأنت .. وأن نخرج من الدنيا لا فارق بين أحدنا والآخر ، بعد تلك الأموال التى جمعتها ، والشأو الذى بلغته ، وبعد كل ما شيعت به من إجلال وإكبار !!

أليس عجيبا أن يرسى كل هذا على فشوش ، وأن يتساوى من جمع له ثمن الكفن وحملوه عدوا فى خشبة عارية مع من أحاطوه بالورود والرياحين ونحروا أمامه الذبائح .. ودقوا له الطبول والموسيقى ؟!

وضحك محمد باشا فسأله عبد الحميد :

ــ ماذا يضحكك ؟

ــ هذه الزفة التى شيعونى بها .. آه لو كانوا يعلمون .. لقد كنت مثلهم لا أعلم .. ولكن أصبحت الآن أعلم .. هذه الجنازة التى لم أكن أتوقع سواها لرجل هام مثلى ... لشد ما أضحكتنى وأنا أبصرها بعد أن فاضت روحى .

كم أضحكني هذا العبث وذاك التهريج .. هذه الورود وهذه الرياحين .. وهذه المظاهرات ، وهذه الموسيقات .. كأنى عريس أزف .. أو كأنى فتحت عكا .. وهذه القصائد التى نظمها الشعراء والمرثيات الطويلة ، التى رثونى بها .. ما فائدتى منها ، وما فائدتهم ، وما فائدة الناس ؟!

وما كل ذاك الذى فعلوه فى جسدى ، جسد الباشا .. جسدى الميت الذى أضحى .. لا شىء ، جسدى الذى يتساوى الآن مع جسد قطة أو كلب ملقى على قارعة الطريق ... فبعد أيام سيصبح هذا جيفة .. سيأكل الدود هذا وذاك .. وسيختلط كلاهما بأديم الأرض كما قال أبو العلاء .

خفف الوطء ما أظن أديم الأر   ض إلا من هـــذه الأجساد

أجساد الآدميين وأجساد الكلاب وأجساد القطط .

علام هذا الحرير الذى دثروا به الجيفة ...

آه لو يعلمون ... لصنعوا من الكفن دثارا لليتامى وأبناء السبيل ووقوهم شر العرى ... ووضعوا الجيفة فى قبرها عارية فلن يضيرها العرى ... ولن يقيها الكفن شر الدود ؟!!

ولكن كيف يعلمون .. وأنا نفسى كنت لا أعلم ؟

آه لو كنت أعلم .. أكنت فعلت ما فعلت ؟

لقد كنت أشبه بجواد يعدو فى سباق .. سباق لجمع المال ، لا أكاد أحس شيئا مما حولى .. أعدو .. وأعدو .. أجمع المال فوق المال ، كلما ازداد بى الثراء ازدادت رغبتى فى الثراء ، وكلما كثر ما عندى من المال .. ازدادت لهفتى على جمع المال ...

لقد كنت ولاشك مجنونا ، رغم ما كانوا يصفوننى به من فرط الذكاء ، وكنت أبله ، رغم ما ظنوه من حرصى ومهارتى . لقد أنشأت الشركات ، وشيدت المصانع ، وقالوا إننى خدمت البلد ، وقد يكون فى قولهم شىء من الصحة ، ولكن غرضى الأول كان خدمة نفسى ، نفسى أولا ، كنت أرضى

فيها تلك الغريزة التى تحكمت منها وسيطرت عليها غريزة جمع المال . لقد كان هذا هو الغرض الأساسى وكان غيره أمورا ثانوية ، كنت أتبرع للخير ، ولكن بعد أن أكون قد وازنت بين ما سأغرمه بالتبرع وما سأغنمه منه فإذا وجدت الغنم أكثر من الغرم تبرعت ، وإذا وجدت العكس أحجمت .

ما كل هذا المال الذى جمعت ؟ وماذا كنت أظننى سأفعل به ؟ أهناك أكثر منى جنونا وأشد حمقا ؟

إنى لأذكر كيف حاربت فى مجلس النواب قانونا لزيادة الضرائب ، وكيف حشدت لمحاربته كل قواى ، وكل نفوذى ، وكان القانون لا يؤدى إلا إلى زيادة خمسة فى المائة من الضريبة الأصلية .

تصور خمسة فى المائة من الزيادة الأصلية كانت تفزعنى وتقض مضجعى .. لقد كنت أكره أن ينتقص من مالى .. آه لو كنت أعلم .. لفعلت شيئا كثيرا !!

لو كنت أعلم لما أحجمت عن بناء ذلك المستشفى الذى كنت أستطيع أن أهيىء بواسطته العلاج لعمال مصانعى .. لو كنت أعلم لما طردت هؤلاء الذين استغنيت عنهم وتركتهم يتضورون جوعا . لو كنت أعلم لما أحببت المال حبا جما .

لقد كنت أعمل الخير للتظاهر ، لقد بنيت جامعا ليقولوا عنى رجل تقى ، وأنشأت قرية نموذجية وأنشأت بها مدرسة وزودتها بالماء النقى وجعلت حياة الفلاحين فيها حياة نموذجية ، وكان فى قدرتى أن أفعل هذا بكل قراى ، ولكنى كنت حريصا على المال فلم أفعل صالحا إلا للتظاهر والشهرة . كنت أعرف كيف أدفع القرش فلا يذهب هباء بل ينتج لى أربعة أو عشرة قروش أو ما يوازيها شهرة ومجدا وجاها وسلطانا .

لم أكن أفكر فى النهاية قط .. لقد كنت أعمل لدنياى كأنى أعيش أبدا و لم يكن يخطر على بالى أنه يمكن أن أخرج من الحياة مجردا ، صفر اليدين ، تماما كما خرجت أنت .. الذى لم تكن تملك ثمن كفنك .

وأطرق محمد باشا برأسه وبدا عليه الحزن والأسى .. وحاول صاحبه أن يرفه عنه قائلا :

— خل عنك .. لقد تمتعت على الأقل فى دنياك. لقد تمتعت بمعيشة القصور .. وركوب العربات الفخمة .. ونعمت بطيب الطعام .

— هذه هى المصيبة ، المصيبة أننى لم أتمتع ، فلو أنى حصلت من السعادة ما يناسب مع ما حصلت عليه من مال لهان الأمر ، ولكن كل هذه الأشياء التى ذكرتها والتى تظنها أشياء ممتعة لم أكن أحس منها أية متعة ، ما أحسست قط أنى أعيش فى قصر ، وما خطر ببالى أن ركوب العربات الفخمة شىء ممتع ، أما طيب الطعام فقد حرم على لأن معدتى لم تكن تحتمله .

ولكن أكثر ما يسبب لى العزاء هو أنى تركت لولدى ثروة ستكفيه مدى الحياة ، فلن يكون بحاجة إلى أن يشقى أو يكد ، لن يكون فى حاجة إلى جمع المال ، بل يستطيع هو أن يفعل ما كنت أحجم أنا عنه ، دون أن يخشى أن ينفد المال .

لقد حاربت قانون التركات فى مجلس النواب بكل ما استطعت من جهد .. ولقد نجحت فى عرقلته .. ويخيل لى أن هذا هو أصوب ما فعلت فى حياتى .

وبعد يومين من هذا اللقاء تلتقى الروحان مرة أخرى فى جوف الليل .. ويبدو على محمد باشا الهم والأسى .. ويسأله عبد الحميد عما به ؟ فيجيبه فى صوت يائس :

— أملى الوحيد .. قد خاب .

— كيف ؟

— انظر .

وينظر عبد الحميد فيجد روحا ثالثة صاعدة من أسفل ، فيسأل :

— من هذا ؟

— ابنى محمود .. الذى تركت له كل ثروتى لقد انتحر الآن فى أحد نوادى

القمار بعد أن بدد الثروة .

وتنهد محمد باشا تنهيدة حارة .. ثم أردف هامسا :

— لى أمنية واحدة . آه لو استطعت أن أعود إلى الأرض مرة واحدة !.

— ماذا تفعل ؟

— أنفذ قانون التركات ، وأضع فقيها فى كل من مجلسى البرلمان .. وفى بيت أمثالى من أصحاب الأموال .. ليردد لهم ليل نهار :

﴿ ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر * كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ .

المحاكمة الكبرى

يا حضرات القضاة ، هذا المخلوق الذى يدعى « الإنسان » قد طغى وبغى ، وتجبر وتكبر ، وخضعنا نحن له وخنعنا دون أى سبب ولا داع .. فلا هو بخيرنا عقلا .. بدليل أنه حتى الآن لم يعرف كيف ينظم عالمه أو يؤمن حياته ، وبدليل هذه الحروب التى يفسد بها دنياه ويقلق بها راحته ، فهو مخلوق تعس شقى . شقاؤه ناتج عن غبائه وليس هو بأشدنا قوة ، ولا أجملنا منظرا ، ولا أطيبنا قلبا ، كل ما يفترق عنا به الخديعة والخسة واللؤم والرياء والنفاق .

وأخيرا دقت الساعة ، وحان الميعاد .

لقد دبرت المؤامرة خير تدبير ، وتم إعدادها فى طى الخفاء ، وفى غفلة من الحكام ورجال الأمن ، وحل موعد الاجتماع ، وتوافد الأعضاء ، والبوليس يغط فى نومه .

هذه والله سخرية !

كيف يغفل المسئولون عن أخطر مؤامرة حدثت فى تاريخ مصر ، بل فى تاريخ العالم ؟ مؤامرة لا لقلب نظام الحكم ، بل لقلب نظام الخليقة ؛ مؤامرة لم يسمع عن مثلها عقل بشرى .

أين ؟!!

هنا فى مصر ، بل فى قلب القاهرة ، ستهب العاصفة فتكتسحنا جميعا ،

عاصفة عاتية لا تبقى ولا تذر .

هنا فى مصر ، وفى قلب العاصمة ، وإذا أردتم التحديد ففى الجيزة بالذات ، منبع الخطر والشر .

مهلا ، مهلا ، ولا تندفعوا كعادتكم فتلقوا القبض ، دون تفكير على عزيز المصرى ؛ فالرجل لا دخل له قط بالموضوع ؛ ولا تندفعوا فى حمق فتزعجوا عباد الله فى دورهم وترهبوهم بالتفتيش والمرمطة .

لا تتعبوا أنفسكم ، ولا توقظوا أحمد عبد الرحمن ، ولا تنهكوا الرجل بالخروج فى قر الليل .

اهدأوا وانتظروا ؛ فسأكشف لكم عن المؤامرة ؛ وسأنقل لكم أخبارها أولا بأول ؛ وإذا احتاج الأمر إلى معونتكم فسأطلب العون . كل ما أطلبه منكم هو الهدوء والانتظار .

* * *

لست أدرى كم الساعة الآن ؛ فقد فتحت عينى ، فإذا بالظلمة تكتنفنى من كل جانب ، ونسيم الليل يهب باردا فيلفح وجهى ؛ وإذا بأشباح الأشجار العالية تقوم أمامى كأنها المردة والشياطين ؛ والسكون من حولى قد ساد ، إلا من حفيف أوراق الشجر .

ومضت بضع ثوان قبل أن أدرك حقيقة الأمر ؛ وأخذ ذهنى ينشط من غفلته ؛ وانقشعت عنه سحب النوم ؛ وتذكرت أنى فى حديقة الحيوان ؛ وأنى قد رحت فى غفلة وأنا جالس على مقعدى أقرأ كتابا .

ولست أشك فى أن الغفلة قد طالت بى ؛ فإنى أذكر أن قرص الشمس — قبل أن أغفل — لم يكن قد هوى فى الأفق بعد ؛ وكانت الأشعة الحمراء ما زالت تعلو هام الشجر ؛ ولكننى الآن لا أكاد أبصر طرف أصبعى .

ونهضت من مكانى فى شىء من الفزع ؛ واتجهت مسرعا فى طريق يواجهنى ، وأنا أحس بشىء من القلق ؛ فقد خشيت ألا أهتدى إلى الباب . ولم يكن هذا

بالشيء المستبعد . فأنا أضل فى الحديقة فى ضوء النهار ، فما بالك فى حلكة الليل ؟

وخشيت أيضا أن يعثر على أحد الحراس فأتهم بالسرقة . حقيقة أنه ليس بالحديقة ما يمكن لمثلى سرقته ، ولكن من يثبت لهم ذلك .. هب حارسا أمسك بتلابيبى وادعى على بأنه قد رآنى وأنا أحاول سرقة الأسد أو السيد قشطة ، ثم سلمنى لأقرب مركز للشرطة ؛ أترانى أستطيع أن أثبت براءتى أمام الباشجويش قبل طلوع النهار . وبعد أن أكون قضيت ليلتى على الأسفلت ؟

ثم إن هذا قد يكون أخف الأضرار التى يمكن أن تصيبنى ، فإنى ، على أى حال، سأخرج منه سليما معافى ، ولن يزيد ما يصيبنى منه عن بضع إهانات وشتائم ، وفى أسوأ الأحوال بضعة أقلام ؛ ولكن المصيبة الكبرى ذلك الخاطر الذى ساورنى فملأنى رعبا .

ترى ماذا يحدث لو كانوا يسمحون لبعض الحيوانات بالانطلاق ليلا فى الحديقة للترويح عن نفسها والتمشى وشم النسيم .

ماذا يحدث لو كان السيد المحترم « السبع » يجول الآن جولة فى الحديقة .

وتملكنى من الخاطر رجفة ، وسرت فى بدنى رعدة ، وتصورت نفسى بين أنيابه ينهش لحمى ، ويقرقش ضلوعى ، ويمصمص عظامى ، ويبتلعنى فى معدته ليحللنى إلى مواد أولية .

ولكنى تمالكت نفسى ، ونهرت ذهنى وزجرته عن الانطلاق فى مثل هذه الأفكار الصبيانية السخيفة ، والتى لا تزيد على أفكار طفل يخشى الظلمة فيتخيل بها عفاريت وأشباحا .

أى أحمق أنا حتى أتصور أنهم يطلقون السباع من أقفاصها ليلا ؟. وكيف أجزت لنفسى مثل هذا التصور ؟. وكيف لم أقدر أن السباع لو أطلقوها فقد تنفذ إلى الخارج ، وقد تهجم على سواها من الحيوانات فتأكلها ؟.. وهكذا استطعت أن أهدئ نفسى ، وأبعد عنها الهواجس والأوهام ، فشعرت ببعض الراحة والاطمئنان .

ولكن هذا الشعور بالاطمئنان لم يستقر فى نفسى طويلا ، بل تطاير فجأة عندما سمعت صوت جسم ثقيل يسقط على مقربة منى .

وتلفت إلى مصدر الصوت فتملكنى ذعر مميت .

فى هذه المرة لم تكن المسألة تصورات أو أوهاما .

لقد كانت حقيقة .. حقيقة مجردة عارية . لا لبس فيها ولا غموض .

لقد رأيت الأسد بجوارى قد قفز من قفصه الذى فتح بابه على مصراعيه .

ورفع إلى الأسد رأسه ، ونظر إلى من أسفل إلى أعلى ، ومن أعلى إلى أسفل ، نظرة ملؤها الازدراء ، ثم أشاح عنى بوجهه ومضى فى سبيله بخطوات متئدة متزنة .

وسمرت فى مكانى ، وأحسست أن الرعب قد أفقدنى كل قدرة على التفكير أو التصرف ، ورأيتنى أتقهقر بظهرى فى اتجاه مضاد للاتجاه الذى سار فيه الأسد حتى ابتعدت عنه بعض الشىء ، ثم استدرت فجأة وهممت بأن أطلق للريح ساقى .

ولكنى وقفت فقد وجدت أمامى قردين يسدان الطريق فى وجهى ، ولم يكن خوفى من القردين يقل كثيرا عن خوفى من الأسد ، وتملكنى سخط شديد على هذا الإهمال من المشرفين على الحديقة ، بل هذا الجنون والإجرام الذى يجعلهم يطلقون الحيوانات بهذه الكيفية .

ووقفت فى مكانى راجيا أن يتصرف القردان كما تصرف الأسد ، وأن يصبا على من نظرات الازدراء ما يشاءان ، على أن يجعلانى أمر بسلام .

ولكن الخبيثين لم يفعلا ، بل وقفا أمامى ينظران إلى فى سكون دون أن يتنحيا عن الطريق ، وقلت لنفسى « جر ناعم » فأشرت إليهما بالتحية ، وانحنيت أمامها مبالغة فى الاحترام ، وقلت متأدبا :

— عن أذنكما .

ورفع إلى أحدهما رأسه ، وقال مكشرا عن أنيابه :

— إلى أين ؟

— إنى منصرف ، فقد تأخرت عن البيت .

— أى بيت ؟

— بيتى !..

ونظر القردان أحدهما إلى الآخر كأنهما يتشاوران فى أمرى ؛ ثم التفت أحدهما إلى وقال بلهجة لا تخلو من التهديد :

— سر أمامنا ، ولا تضطرنا إلى استعمال العنف .

وأدهشنى قول القرد ، ولم أستطع أن أعرف ماذا يريد الخبيثان منى ، وتساءلت فى أدب وتواضع :

— لعل هناك ما أستطيع أن أؤديه لكما ؟

— كفى ثرثرة .. ماذا يستطيع أن يؤديه عاجز مثلك أيها الأحمق ؟ سر أمامنا .

وفعلت الإهانة فعلها ، وبدأ الغضب يتسرب إلى نفسى ليحل محل الخوف — وخاصة أن الأسد كان قد ابتعد — فقلت فى لهجة حانقة :

— إنى متعجل ، ليس لدى وقت أضيعه فى المناقشة . قولا ماذا تريدان ؟

— إنك متهم .

— أنا متهم ؟

ومر برأسى ذلك الخاطر الذى قد ساورنى من قبل ، وهو أنى قد أتهم بسرقة الأسد ، والسيد قشطة ، واندفعت أنفى عن نفسى التهمة صائحا :

— أنا لم أسرقه .. إنه هو الذى خرج من تلقاء نفسه ، لقد وجدت الباب مفتوحا على مصراعيه ، ورأيته يقفز منه ، ولقد خشيت أن أتهم بسرقته فتركت له الطريق بأكمله ، ومع ذلك فأنتما تتهمانى بسرقته ، وهذه والله مصيبة ، وماذا يمكننى أن أفعل به ، ولو اتهمت بسرقة واحد منكما لكان هذا أقرب إلى العقل ، فقد يمكننى أن أسرح بأحد كما بين الجماهير ، ولكن ماذا أستطيع أن أفيد منه ..

أقسم لكما أنى لم أسرقه .

وبدت الدهشة على القردين وهزا رأسيهما متسائلين :

ــ ما هذا الذى لم تسرقه ؟

ــ الأسد .

وانطلق القردان يضجان بالضحك ، وأنا بينهما حائر مبهوت .. وأخيرا تمالك أحدهما نفسه وقال فى سخرية :

ــ أنت تسرق الأسد !!.. أنت ؟!!

وقلت لها محنقا:

ــ وماذا تعنيان إذا بقولكما إنى متهم ؟ متهم بماذا ؟

فأجاب أحدهما :

ــ أنت متهم كإنسان .

ــ كإنسان ؟. ماذا فعلت كإنسان ؟

ــ لست أنت بالذات الذى فعلت ، ولكنه الإنسان بوجه عام . إنك ستمثل الاتهام فى المحاكمة الكبرى ، محاكمة الإنسان .. سيحاكم الإنسان فى شخصك .

ــ ولكن بأية تهمة ؟!.

ــ تهم كثيرة لا يحصرها العد ، ليس هذا وقت شرحها فستسمعها بأذنيك من المجنى عليهم .

ورأيت أن المسألة قد تطورت فأضحت على شيء من الطرافة . وتساءلت ساخرا :

ــ وهل هناك مجنى عليهم أيضا ؟

ــ بالطبع .

ــ ونيابة ، وقضاء ؟

ــ بالطبع ، بالطبع ، سترى كل هذا بعينيك . ستكون محاكمة عادلة . والآن سر بنا فقد أزف الوقت .

وسرت أمامهما فى الطريق الذى سار فيه الأسد ، وعاودنى التفكير فى الأسد ، وعاودتني الخشية ، فتلفت إلى أحد القردين وقلت محذرا :

— إن الأسد قد سار من هنا ، وأخشى أن يصادفنا فى عودته .

— إننا ذاهبون إليه .

— وما الداعى للذهاب إليه ؟ ألسنا ذاهبين إلى المحكمة ؟

— إنه رئيس المحكمة .

وتوقفت مذعورا ، وسألنى أحد القردين ؟

— ماذا بك ؟

— هب رئيس المحكمة جاع فى خلال الجلسة ، ونفذ الحكم فى المتهم قبل النطق به ، ماذا تكون النتيجة ؟ لا .. لا .. لن أذهب إلى محكمة رئيسها لا يعرف إيقاف التنفيذ ، أو قبول الاستئناف .

— وما الدخل بين جوع الرئيس وتنفيذ الحكم فيك ؟

— لا تظنانى أحمق .. إذا جاع الرئيس فماذا يمكن أن يأكل سوى المتهم .

— أيها الغبى ! هل تظن أن الرئيس « يرمرم » .. ألا تعلم أنه حرم على نفسه « الميتة ولحم الإنسان » .

وملأنى من قولهما الاطمئنان ، وعاودت السير ، حتى وصلنا أخيرا أمام ساحة المحكمة في « جبلاية القرود » .

ما شاء الله ! ماذا تبقى إذا فى الأقفاص ؟. لقد أبصرت كل حيوانات الحديقة وقد احتشدت فى تلك البقعة .

وقادنى القردان فأدخلانى قفص الاتهام ، (وهو أحد أقفاص القرود الذى أخلى من ساكنيه) .

وجلست فى القفص ، وقد تملكنى اضطراب شديد . فأنا شخص لم أتعود دخول المحاكم ، ولا حتى كشاهد ، فما بالك وأنا أدخلها كمتهم ، قد وضع فى عنقه كل ذنوب الإنسان وخطاياه ، منهم لا بما فعل هو فقط ، بل بكل ما فعل

إنسان على ظهر الأرض .

ومتهم أمام أى محكمة ؟!

محكمة رئيسها سبع ؟! سبع حقيقى ، لا سبع أفندى .

ومضت بى فترة وأنا فى شرود تام ، لا أكاد أميز شيئا مما حولى ثم بدأت أتمالك قوتى وهدأ روعى رويدا رويدا ، وأخذت ألقى نظرة إلى المنظر حولى .

ولا أكتمكم أنى أحسست بشىء من الغبطة ، وعاودتنى طبيعة التهريج ، وسرنى أن أكون أول إنسان يوضع فى قفص قرود . ولمحت بجوارى حبات من الفول السودانى متناثرة فى أرض القفص وشعرت بقارصة الجوع ، وخطر لى أن أشبع منها نهمى ولكننى خجلت ، وتصارع فى نفسى عامل الجوع مع عامل الخجل فتغلب الجوع ، ولم يمض لحظة على وضعى فى القفص حتى أدرت للمحكمة ظهرى ، وبدأت فى جمع الفول السودانى .. وجلست أتناوله .

وهدأت قارصة الجوع .. وبدأت أتطلع إلى ساحة المحكمة وأتأمل جماهير الحيوانات المحتشدة فيها .

كان الأسد يتصدر المحكمة وقد ربض فى مكانه فى هدوء ، وعلى يمينه نمر مخطط ، وعلى يساره فهد أرقط ، وعلى مقربة منهم وقف الفيل .. لست أدرى ماذا كان عمله بالضبط وإن كنت أرجح أن يكون كاتب المحكمة أو حاجبها .. ورأيت الثعلب ينظر إلى نظرات فاحصة ، ثم وجدته قد ترك مكانه وتسلل نحاهى حتى وصل إلى .. ثم قفز فجلس على حافة القفص الخارجية وهمس إلى قائلا :

ــ ليلتك سوده .. إن مصيرك فى يدى فإننى ممثل النيابة .. إننى المدعى العام فى محكمة الحيوان . ما رأيك فى أن نعقد اتفاقا ؟ إننى أستطيع تبرئتك وإدانة المجنى عليهم ، وأستطيع أن أقلب اتهامى لك دفاعا عنك إذا وعدت أن تنصبنى ملكا على هؤلاء الحيوانات .

ونظرت إليه فى دهشة وأجبته .. وأنا أقذف إلى فمى بإحدى حبات الفول السودانى :

— تبرئنى من ماذا ..؟ خير لك أن تفهم هؤلاء الحيوانات أننى سأبلغ قدرى بك عن كل هذا العبث الذى تفعلونه .. وكيف تنطلقون من أقفاصكم ليلا لتعيثوا فى الحديقة فسادا .

— قدرى بك ؟.. من قدرى بك هذا ؟

— مدير الحديقة .

— إنسان مثلك ؟

— أجل .

— أيها الأحمق .. إذا ثبتت إدانتك .. أعنى إذا ثبتت إدانة الإنسان .. وأغلب ظنى أنها ثابتة .. فهل تظن أنكم ستبقون على حالكم . الظاهر أنه ليس لديك فكرة عن مدى خطورة المحاكمة .. ألا ترى أننا سنضعكم فى أقفاص فى هذه الحديقة وسنسميها « حديقة الإنسان » . ماذا ينفعك فى ذلك الوقت ، قدرى بك أو حتى وزير الزراعة نفسه . إن هذه المحاكمة ستغير نظام الكون ، إن الإنسان سيفقد سلطانه ويهوى من عرشه وسيتحكم فيه الحيوان كما فعل هو فى الحيوان .. ما رأيك فى أن نتفق ؟

وهززت رأسى بالرفض . فما كنت من الحمق بحيث أقبل الاتفاق مع ثعلب .. وفى تلك اللحظة صرخ الأسد مناديا على الثعلب آمرا إياه أن يتخذ مكانه معلنا بدء المحاكمة .

وهمس الثعلب قبل أن يعدو إلى مكانه :

— أيها الأحمق المغرور .. ستدفع ثمن غرورك غاليا .

وساد السكون ساحة المحكمة ، وتطلعت ببصرى فرأيت الحيوانات والطيور بكافة أنواعها قد احتشدت فى صفوف متراصة ، وقد أخذت تنظر إلى نظرات مغيظة حانقة مهددة متوعدة .

وبدأ الثعلب يتكلم موجها إلى التهم :

« يا حضرات القضاة .. إن الجالس أمامكم فى هذا القفص هو إنسان ..

واحد من الملايين المنتشرة على الأرض لتعيث فيها فسادا ، وتنشر الذعر والرعب ، وتتحكم فى غيرها من المخلوقات وتسلبها نعمة الحرية التى أنعم الله بها على كافة خلقه .

أمامكم إنسان ، قد يخدعكم مظهره الناعم الخلاب ، وطيبته الظاهرة ، وقد يغريكم هدوؤه ورقته ، ولكننى سأكشفه لكم على حقيقته ، فهو حية رقطاء فى ظاهرها النعومة وفى باطنها سم زعاف » .

وهنا حدثت ضجة فى ناحية من الساحة ، وقوطع حديث الثعلب بفحيح شديد ، واتضح أن الأفاعى ثائرة لما لحقها من إهانة بتشبيه الإنسان بها .

وزأر رئيس المحكمة زأرة قوية سادت بعدها السكينة وعم الهدوء ، وعاود الثعلب حديثه معتذرا للأفاعى :

— إنى لم أقصد بتاتا إهانة الأفاعى ، فإنى لا أكن لها غير الود والاحترام . وليس يضير الأفاعى أن يكون ظاهرها ناعما وباطنها ساما .. فهى أفاع .. وكلنا يعرف أنها أفاعى ، وأنها سامة ، ولقد خلقها الله كذلك ، ولكن يضير الإنسان ، الذى يدعى أنه مخلوق أرقى منا جميعا ، وأن الله خصه بكل المزايا والأفضال .. يضير الإنسان أن يخلق هو مركبا ساما ينفث سمومه فى كل ما حوله .. يضير الإنسان أن يخلقه الله إنسانا ، فيجعل هو من نفسه حية رقطاء .

لنعد إلى موضوعنا الأصلى : كنت أقول يا حضرات القضاة إن هذا الإنسان قد أفسد الدنيا وجلب إليها التعاسة والشقاء ؛ وأنه يظلم أخاه الحيوان ظلما صارخا .

وهنا سمعت أصوات احتجاج على كلمة « أخاه » ، فأشار إليهم الثعلب مهدئا وأردف قائلا :

— متأسف جدا ؛ أقصد أنه ظلم سيده الحيوان ظلما صارخا ، وأنه أساء استعمال ذلك الشىء الذى وضع الله له فى رأسه ؛ وأنه يتقاتل ويدمر الدنيا بلا أدنى سبب ؛ أنا أفهم أن المخلوق يقتل مخلوقا آخر لكى يأكله ؛ أليس كذلك

يا سيدى الرئيس ؟

وهز سيده الرئيس رأسه بالموافقة وقال وهو ينظر إلى :

ـــ بالطبع .. بالطبع .

وتملكنى الذعر من نظرة الرئيس وقوله . وانكمشت فى نفسى ؛ وعاد الثعلب يقول :

ـــ إن المخلوق قد يعذر إذا ما قتل مخلوقا آخر ليأكله ؛ ولكن ما عذر هذا الغبى فى أن يقتل بعضه بعضا ويكدس الجثث فوق الجثث ! ثم يدفنها فى باطن الأرض ؟ ما عذره فى هذا القتل الذى لا مبرر له ؛ ولكن ما لنا ولهذا .. إن هذه الجريمة تخصه هو ؛ فهو القاتل فيها وهو المقتول . وقد تكون الجريمة فى حد ذاتها مفيدة لنا فقد تنتهى بفنائه ، ولكنى ذكرتها لأدلل بها على غبائه وقصر نظره ؛ وعلى أن هذا الشىء الذى وضعه الله له فى رأسه لا يعتبر ميزة ولا فضلا ؛ وأنه ليس هناك ما يدعوه لأن يتحكم فينا ويسيطر علينا .

يا حضرات القضاة : هذا المخلوق الذى يدعى الإنسان قد طغى وبغى وتجبر وتكبر ؛ وخضعنا نحن له وخنعنا دون أى سبب ولا داع ؛ فلا هو بخيرنا عقلا بدليل أنه حتى الآن لم يعرف كيف ينظم عالمه ويؤمن حياته ؛ وبدليل هذه الحروب التى يفسد بها دنياه ويقلق بها راحته ؛ فهو مخلوق تعس شقى ، شقاؤه ناتج عن غبائه ؛ ولا هو بأشدنا قوة ، ولا أجعلنا منظرا ولا أطيبنا قلبا .. كل ما يفترق عنا به هى الخديعة والخسة واللؤم والرياء والنفاق .

ولست أشك بعد كل ما ذكرته فى أنه قد آن لنا أن نأخذ حقنا منه . وأن نثأر لأنفسنا ، وأن نذله كما أذلنا .

هذا هو عرض موجز لشخصية المتهم وأخلاقه ؛ بقى علينا بعد ذلك أن نفصل جرائمه التى ارتكبها ضدنا ، ولست أرى خيرا لذلك من أن أعرض عليكم المجنى عليهم ، وأتركهم يصفون بأنفسهم ما أصابهم من المتهم .

وصمت الثعلب ، وصاح الفيل :

— المجنى عليه رقم واحد .

وهنا رأيت خروفا قد تقدم من بين صفوف المشاهدين واتخذ مكانه بجوار الثعلب ، وبدأ يقدم شكواه من الإنسان قائلا بصوت رفيع :

— يا حضرات القضاة : أنا لا أطلب شيئا كثيرا ؛ لا أريد أكثر من أن أفعل بالإنسان كما يفعل بى . أريد أن يسمح لى بفتح محلات للجزارة أعلق فيها أجسادهم . أريد أن أفتح مسمطا كبيرا أصنع فيه من كوارعه شربة وفتة بالثوم ، أريد أن أصنع من مصارينه ممبارا . أريد أن أشوى طحاله وأسلق كرشته ؛ هذا هو ما يفعله بى الإنسان بمنتهى البساطة دون أن يحس أنه قد ارتكب أمرا إدا ولا فعلا نكرا . أفلا يحق لى أن أطالب بدورى بأن أفعل به مثل ما فعل .

وصمت الخروف ؛ وأخذت أتصور جسدى معلقا فى محل جزارة ؛ وقد دخلت الخطاطيف فى ساق ، وتدلت ذراعاى ورقبتى التى فصل عنها الرأس ؛ وقد تناثرت على جسدى الأختام الحمراء .

ثم تصورت رأسى موضوعا على قفص مستطيل وقد وقف أمامه الخروف المذكور ينادى : « يا جابر » .

وعاد الخروف إلى موضعه بين الصفوف ؛ وصاح الفيل :

— المجنى عليه رقم (٢) .

وتقدم الحمار مخترقا الصفوف حتى وصل أمام القضاة ، واتخذ مكانه بجوار الثعلب وبدأ الحديث :

— من آلاف السنين وأنا مطية لهذا الأحمق المأفون ؛ أحمل عنه أحماله وأثقاله ؛ ولا أجزى منه سوى السب والضرب ؛ أما قد حان الوقت لأن أركب أنا بدورى ؛ إنى لن أحمله أثقالا ولا أحمالا ؛ فقط أريد أن أركبه أنا .

ونظرت إلى الحمار الغبى ؛ وتصورت لو أن كل إنسان قد سار فى الطريق ؛ وقد حمل على ظهره حمارا ؛ اللهم الطف بنا من هذه المحاكمة .

ونادى الفيل على المجنى عليه رقم (٣) ؛ فتقدم ثور كبير ، ولكن قبل أن يصل

إلى مكانه رأيت شيئا يندفع بشدة حتى وصل أمام رئيس المحكمة ، وتبين لى أنها اللبؤة ؛ وسمعتها توجه القول إلى الرئيس :

ـــ هذا الإنسان ، قد أهاننى شر إهانة ؛ فهو يصف نوعا معينا من إناثه باللبؤة ؛ وهو يقصد بذلك إهانتهن وتحقيرهن ؛ فهل يعلم هذا الوقح أنى أشرف من جميع إناثه ؟

ورأيت الأسد قد احمر وجهه وأصابه الارتباك وهمس قائلا للبؤة :

ـــ هذا ليس وقته ؛ ثم إنه حر فى يسمى إناثه كما يشاء ، لبؤة أم غير لبؤة ؛ ماذا يضيرك أنت ؟

وكان الثور قد وصل إلى مكانه وبدأ يقول فى تؤدة :

ـــ هذا الإنسان لن يصلحه شيء إلا إذا ربط فى ساقية وعصبت عيناه ؛ وظل يدور فيها ليل نهار ؛ هذا هو كل مطلبى ولا أظنه بالمطلب العسير .

وتوالى بعد ذلك المجنى عليهم من كافة أنواع الحيوانات والطيور والحشرات والكلاب والقطط والفيران والأوز والبط والفراخ والذباب والنمل والصراصير ؛ كل يعرض شكواه ويطلب الأخذ بالثأر من المجرم المتهم .

وظللت أتلفت إليهم ، وقد عصف بنفسى الخوف من المصير الذى سيتردى فيه الإنسان ، ولم يكن يعزينى إلا يقينى أن المسألة كلها لا تعدو أن تكون هزلا فى هزل ، وأن الحيوانات لابد عائدة إلى أقفاصها بمجرد إشباع رغبتها من هذا العبث الحيوانى .

وأخيرا انتهى المجنى عليهم من سرد أقوالهم ، وسألنى رئيس المحكمة إن كان لدى ما أقول دفاعا عن نفسى وعن الإنسان ، فأجبته مستعطفا :

ـــ لا أظن لدى ما أقوله دفاعا عن الإنسان ، فكل ما ذكرتموه حق لا كذب فيه ولا افتراء . أما دفاعا عن نفسى فلست أدرى ما ذنبى أنا حتى تحملونى أخطاء البشر وتفعلوا بى مثل ما فعلتم .

ـــ أنت مجرد رمز ، لا أكثر .

ثم وجه القول إلى بقية الحيوانات :

— رفعت الجلسة والحكم بعد المداولة .

أين البوليس ؟ أين رجال الأمن ؟ أين الحكومة ؟

النجدة .. النجدة . لقد نفذ المقدور . لقد بدأت الثورة . لقد أدين الإنسان في المحاكمة الكبرى .

نطق رئيس المحكمة بالحكم فإذا به يقضي بأن يسلب الإنسان سلطانه ، وأن يحل الحيوان محل الإنسان في كل شيء وأن يبدأ في تنفيذ الحكم في التو والحين .

الحيوانات هائجة ثائرة . مندفعة من باب الحديقة . صائحة : يسقط الإنسان .. يسقط المنافق المخادع .. لا إنسان بعد اليوم .

أوقظت بقية حيوانات البلد ، وانضمت إلى الثورة ، واكتظت الشوارع بكتل الثوار المتدفقة كالسيل ..

وانطلقت من قفصي ، وأسرعت إلى أقرب تليفون ، محاولا أن أتصل بمدير الأمن العام لأحذره وأنبئه بما حدث .

ولكن وا أسفاه .. لقد أجابني قرد .. لقد أسر مدير الأمن واحتلت داره .

وامتدت نيران الثورة إلى كافة أنحاء القطر ، وقامت في البلاد حرب أهلية بين آدمييها وحيواناتها .

مرت بمصر أيام عاصفة سوداء سفكت فيها الدماء وأزهقت الأرواح ، وأخيرا بدأ الأمر يستقر ، وخبت نيران الثورة ، وتواترت الأنباء على دول العالم فقضت مضاجعها . فلقد كانت نتيجة الحرب الأهلية ، هي فوز الحيوانات وتملكهم زمام الحكم في مصر وسيطرتهم على مرافق الدولة .

فزعت الدول ، وسرعان ما اتفقت الكتلة الشيوعية مع الكتلة الديمقراطية إزاء الخطر الحيواني الذي سيدهمهم جميعا ويقلب نظام البشر في العالم ويغير وجه التاريخ .

الحالة في مصر مستقرة تماما .. سقطت الوزارة وحل البرلمان وأجريت

انتخابات حرة لأول مرة فى تاريخ مصر ففازت الأغلبية فوزا ساحقا وتسلم مقاليد الحكم حزب الحمير .

الحمير يرتعون فى بحبوحة من العيش . الوزراء محدثو نعمة فرحون بمظاهر الأبهة والجاه والعظمة . مغرقون أنفسهم فى الخطب وحفلات التكريم .. ليس هناك قط ما يدعوهم لإجهاد الفكر ، كل همهم أن يكونوا آمنين فى مقاعدهم متمتعين بمظهر الحكم ، أما الحكم فعلا أو تصريف شؤون الرعية ، فذلك مالا يخطر لهم على بال .

تفشت المحسوبية والفوضى ، وفسد نظام الحكم ، وانتشرت الرشوة والسرقات ، وانقلب الحكم إلى وسيلة للفوز بالأغنام والأسلاب .

ضج البلد ، وثارت بقية الحيوانات على دولة الحمير . تزعزعت الدولة ، وفقدت أنصارها .

أخيرا هوت دولة الحمير ، وحل مجلسهم ، وتعاون الكلاب والمعيز والثعالب والقطط على تولى مقاعد الحكم سويا .

بدأ العراك بين الأربعة الحاكمين .. خرجت الثعالب والقطط ، وبقى فى الحكم الكلاب والمعيز .

. البلد ما زال يئن .. الجماهير ما زالت شاكية باكية ، فما أفادها نباح الكلاب ، ولا خنوع المعيز ، بأكثر مما أفادها جهل الحمير ، غنيمة الحكم هى غرضهم الأول ، فالذى بيده الغنيمة كل همه أن يحتفظ بها ، والباقون لا هم لهم إلا أخذها منه ، والبلد بينهم حائر ضائع .

قوى سلطان الإخوان القرود فى البلد ، واشتد ساعدهم ، وانقلب رئيسهم إلى زعيم سياسى .

البلد تتنازعه الأهواء ، وتتقاذفه الأنواء .

هل من منقذ ؟ هل من معين ؟ يا لضيعة البلد بين كلابها ومعيزها وحميرها وقرودها .

أين أنا من هذه المملكة الحيوانية ؟ لقد قبض على وأودعت أحد أقفاص حديقة الإنسان أمضى اليوم قابعا خلف القضبان ، تمر أفواج الحيوانات على تمتع نفسها بمشاهدتى ومعاكستى .

إنى أبصر أمامى أحد القرود ، وقد أمسك فى يده حفنة من الفول السودانى ، سألته أن يعطينى بعضا فأمسك الخبيث بحبة بين أصابعه ، ثم قذفنى بها بشدة فأصابت عينى .

وضعت يدى على عينى أتحسس موضع الإصابة ، ثم فتحت عينى ، فوقع نظرى على القرد ، وقد قامت القضبان بينى وبينه .. تلفت حولى فإذا بى خارج القفص وإذا بالقرد داخل القفص .. لقد وجدت نفسى ما زلت على مقعدى الذى نمت عليه فى الحديقة أمام قفص القرود ، وقد أيقظنى القرد بعد أن قذفنى بحبة الفول السودانى .

وتذكرت الحلم الذى مر بى ، وتذكرت دولة الحيوانات ونظرت إلى القرد وإلى القضبان القائمة بيننا ، وساءلت نفسى ؛ هل هناك فارق كبير بين دولة الإنسان ودولة الحيوان ؟!

بصقة على دنياكم

الدنيا !!.. ما هي الدنيا ؟.. زينة الليل .. سخرة النهار .. يجلوها الظلام ويكسفها الصباح .. ما شئت بالدجى من أنوار ساطعة ، وزخارف لامعة ، وبالنهار مصابيح عمياء ، وأدوات لا ماء ولا رواء . الدنيا !.. ستار تمثيل حقير فى ذاته . أما ما تراه من جماله وروعته فإنه باطل من تزوير الليل وخدعة من تمويه الأنوار .

« محمد السباعى »

بصقة على دنياكم .. وهل تستحق سوى بصقة ؟

بصقة على دنياكم .. أيها التعسون المساكين .. المتخبطون فى حلكاتها .. الضالون فى دياجيرها .. المتعللون بباطلها وسرابها .

بصقة على دنياكم فإنى مغادرها غير آسف ولا نادم .. بعد لحظات سألقى عن كاهلى أعباءها .. وسأحرر نفسى من قيودها وأغلالها .. وسأغمض عينى فلا يقع بصرى على شرورها ومساوئها .

بصقة على دنياكم من إنسان قد خرج من نطاقها وأنقذ من نيرها .. إنسان على وشك الرحيل .. إنسان هو والعدم سواء .. إنسان ميت .

بينى وبين الموت خطوة .. سأخطوها إليه أو سيخطوها إلى ، فما أظن فى جسدى الواهن بقية رمق تعينه حتى على أن يخطو إلى الموت .. بعد لحظات سيطوينى الموت بين أحضانه . أيها الموت العزيز .. اقترب .. اخط إلى خطواتك الأخيرة فقد طالت عليك لهفتى ، وازداد إليك حنينى ، اخط خطواتك ففيها

الشفاء ومنها الدواء .

ولكن لا .. تمهل برهة .. إن لى مع هؤلاء التعسين حديثا :

أيها الأحياء .. أنصتوا إلى حديث ميت .

لنبدأ الحديث من البداية .. ولنعد القهقرى عشرات الأعوام حيث وقفت فى أول الدرج .. أتطلع ببصرى إلى سلم الحياة الطويل الممتد .. لا تكاد العين تبلغ مداه .

هل رأى أحدكم مشرق الشمس ؟.. هل وقف أحدكم ذات مرة فى روضة غناء ليتطلع ببصره إلى الأفق البعيد وقد صبغته الشمس بلونها الذهبى ؟ هل رأى كيف يبدو منظر الأشجار البعيدة وقد تخللتها الأشعة الذهبية الحمراء . فأبدتها مضيئة مشتعلة كبارقات الأمل ، وصنعت منها منظرا خلابا مليئا بالروعة والجمال ؟.. ثم هل حاول أن يسير ليبلغ ذلك المنظر الرائع الفاتن ويلمس ما فيه من فتنة ، ويرى ما شع من ضياء ؟

ألم تصبه خيبة وحسرة ، وهو يرى نفسه لا يكاد يبلغ تلك الأشجار التى كانت تبدو كأنها رؤوس براكين مشتعلة حتى يجدها كغيرها من الأشجار متربة مظلمة لا شعاع فيها ولا ضياء ؟. ثم ينظر أمامه فيرى المنظر قد تجدد .. وبدت له أشجار أخرى من على بعد وقد سلطت عليها أشعة الشمس أشعتها فكستها نفس الحلة السحرية .. فيحاول أن يقترب ثانية .. فلا يكاد يصل إليها حتى يجدها كالسابقة .. وهكذا تبدو أمامه المناظر رائعة على بعد ، فإذا ما اقترب منها ، أو حل فيها تبدد كل ما بها من سحر وروعة ؟!

لقد بدت لى الحياة وقتذاك وأنا أقف فى أول الطريق كما تبدو لنا المناظر وقد سطعت وراءها أشعة الشمس : شمس الأمل ساحرة فاتنة ، مضيئة مشتعلة ، تدعونى إلى التقدم ، وتحفزنى إلى المسير .. لا أكاد أبلغها حتى أجدها خابية مظلمة . أجدها لا شىء . لا تستحق ذلك الجهد الذى بذلته فى الوصول إليها . وأنظر أمامى فأجد الأشعة ما زالت تسطع ، ويتجدد المنظر المغرى الذى يدعونى

إلى السير فأظل أتقدم وأتقدم.. ما دام هناك شعاع من أمل يسطع ، يحمل لنا الأشياء ، ويغرينا بالوصول إليها ، ونقطع الطريق حتي نبلغ النهاية ، فلا نجد فى كل ما بلغناه شيئا يستحق وعثاء السفر . ونرى شمس الأمل قد غربت .. وشعاع الرجاء قد انطفأ .. فإذا بنا فى حلكة شاملة ودياجير معتمة . وإذا بنا قد وصلنا إلى النهاية ، صفر الأيدى ، منهوكى الأجساد ، محطمى الأعصاب ، واهنى القوى ، فنسأل أنفسنا ماذا أخذنا من الحياة، ولماذا عشنا ؟ فلا نجيب بأكثر من لا شيء ، ولا نملك إلا أن نخرج منها مطاطئى الرؤوس ، محنيى الهامات ، منشدين مع القائل :

وكل ما تقضى من الأمور ،
تعلة من يومنا المذكور
ومتعة من متع الغرور

كان أول تلك المناظر الخلابة المضيئة التى وقع عليها بصرى فى طريق الحياة .. منظرا ملأ نفسى الصغيرة نشوة ، وأفعم قلبى الصبى طربا .. منظرا نقشت صورته فى ذهنى من فرط ما أحدث فى من تأثير .. منظرا براقا خلابا أحاطه الضوء وسطعت من خلفه الأشعة الذهبية . فخلف فى نفسى أثرا عميقا ، ولم أكن أتمنى وقتذاك شيئا غير أن أبلغه ، ولقد خاب أملى ، لا لأنى لم أبلغه ، بل لأنى قد بلغته .. وشتان بين المنظر عندما رأيته ، وعندما بلغته .

لنبدأ وصفه أولا عندما رأيته .. كان ذلك منذ عشرين عاما أو قريبا منه ، وكنا نقطن فى جنينة ناميش .. وكان يومئذ موعد افتتاح البرلمان .. وقد خرجت مع بعض الصبية لمشاهدة الموكب وهو يمر بميدان الإسماعيلية .

وقفت بين الصفوف المتراصة المحتشدة ، وقد تكأكأ الناس من حولى وأخذت أجاهد حتى أتخذ لنفسى بينهم موقفا يمكننى من رؤية الموكب فى مروره ، وكان الطريق قد خلا تماما إلا من بعض الجنود يروحون ويغدون أمام الصفوف ليمنعوا تسلل المارة من رصيف لآخر ، ووقف جنود الجيش بملابسهم

الكاكية ، ووجوههم السمراء ، وطرابيشهم الحمراء ، مصطفين على طول الطريق ، وقد تعالت أصوات ضباطهم بالنداءات العسكرية التى ترتفع معها الأسلحة إلى أكتاف الجند ، ثم تهبط إلى الأرض مرة أخرى ، وكأنهم يشتغلون بزنبلك !

وساد السكون ؛ وتعالت الهمسات من حولى — إن الموكب قد بدأ — وبعد برهة بدأت بشائر الموكب تظهر .. من صفافير ، وموتوسيكلات ، وعربات قد حملت كبار ضباط البوليس بملابسهم السوداء .

وبعد لحظات أخذ الموكب فى الظهور فعلا ، وقد بدت فى طلائعه ثلة من فرسان البوليس ، ثم بدأ بعدها المنظر الفاتن الخلاب الذى أثمل رأسى الصغير .. وخلف فى نفسى أملا ظل يداعبها فى الكرى واليقظة ، وحلما كم تمنيت طوال السنين المتتالية لو تجسد فصار حقيقة .

أبصرت فرسان الحرس ، وقد تقدمتهم الكوكبة الأولى من الخيول الزرقاء ، وعلى رأسها ضابط قد علا صهوة جواده الأشهب ، المرفوع الرأس ، المتين البنيان ، الملفوف الجسد ، البارز عضلات الصدر والساقين ، وقد أرهف أذنيه ، وتفتحت خياشيمه .. وأخذ يتوثب فى ثقة واعتداد .. يمشى على الأرض .. كأنه سيخرق الأرض ، ويرفع هامته كأنه سيبلغ الجبال طولا .

ونظرت إلى راكبه المستقيم الجسد ، الصلب العود ، البارز الصدر ، الممشوق القوام ، الجميل التقاطيع ، الجذاب الملامح . وقد ارتدى حلته الزرقاء ذات الصدر الأحمر المحلى بكردون مجدول من القصب الذهبى البراق ، وامتدت ساقه مستقيمة ملتصقة بجسد الحصان بحذائها الطويل الأسود اللامع وبدا هو وجواده كأنه قطعة واحدة !

ولمحت النساء فى النوافذ يتغامزن ويتبسمن ، والفارس فى طريقه لا ينظر إليهن ولا يأبه لهن ، وبدا لى كأنه إله ، وملأنى إعجاب شديد به .. وتمنيت لو أكون مثله فى يوم من الأيام ، وتخيلت نفسى فى حلته المزركشة وعلى جواده الأشهب

ترمقنى الأنظار بالإعجاب .. وتتمنى الحسان منى ابتسامة ، فأبخل بها عليهن .

وانطبع المنظر الفاتن فى ذهنى .. المنظر الذى تلألأت وراءه أشعة الأمل، فأحاطته بهالة ذهبية ملأته روعة ، وأضفت عليه جمالا على جماله ، ومنذ ذلك اليوم و لم تعد لى أمنية فى الحياة سوى أن أبلغه .

أجل لقد جعلت من الفارس مثلا أعلى .. وأخذت أجد فى السير وهو يلوح أمامى فى أفق الحياة بجماله وروعته تماما كما يلوح لنا منظر الأشجار فى الأفق ، وقد بدت وراءها أشعة الشمس .

وقفت فى أول الطريق .. والأمانى تداعب نفسى وتدعونى إلى السير حتى أبلغ المنظر .. فما كان هناك شيء يجذبنى مثله ، ولو خيرت وقتذاك بين أن أكون إلها أو أكون ذلك الفارس لفضلت الأخير .

ولست أشك فى أنه مامن إنسان إلا و جذبه فى أفق الحياة منظر ، أيا كان . وما من إنسان إلا و كان له مثله الأعلى الذى يتمنى الوصول إليه ، ولكن الذى أشك فيه كثيرا ، هو أن كل إنسان يبلغ ذلك المنظر أو يستطيع الوصول إلى المثل الذى تمنى .. فإنه لا يكاد يبدأ السير حتى يضل فى دروب الحياة ، ويصطدم بعقبات الطريق ، فتحجب عنه المنظر الفاتن وتبدى له منظرا غيره ، وتنسيه مثله الأول ، فيستبدله بمثل ثان وثالث .

ولكنى كنت من نوع محظوظ ، فلقد أخذت أجد فى السير تجاه المنظر الخلاب والمثل الأعلى ، ولست أزعم أنى لم أضل فى دروب الحياة ، أو لم تصادفنى العقبات والموانع . فلقد احتوتنى مسالك الطريق ، وأجهدتنى عقباته ، ولكنى وجدت فى النهاية أنى قد وصلت ، وإذا بى أقف فى المنظر الفاتن ، وإذا بالمثل الأعلى ملء يدى .

أجل .. لقد بلغت أملى !!

أما كيف بلغته ؟. فهذا حديث طويل . لا أظن المجال مجاله ، ولا المقام مقامه ، ولكنى بلغته ، وكفى .

لقد مرت بى الأيام والسنون ، فإذا بالأمانى قد تجسمت ، وإذا بالأحلام قد أضحت حقائق ملموسة ، وإذا بالمنظر الخلاب الذى كان يبدو فى الأفق قد احتوانى ، وإذا بى أنا نفسى قد أضحيت ذلك الفارس الذى أبصرته منذ عشرات السنين .

ترى كيف وجدت المنظر الفاتن عندما بلغته ؟ وكيف وجدت الفارس عندما أصبحته ؟.

الساعة الخامسة صباحا وقد وقفت فى الإصطبل مشمرا عن ساعدى ، أنتقل هنا وهناك ، ضاربا الأرض بقطعة الحديد المثبتة فى كعبى الحذاء الطويل مضيفا بذلك ضوضاء أخرى إلى الضوضاء التى تحدثها أحذية الجنود المنهمكين فى تنظيف الخيل ، الخيل البيضاء الناصعة البياض .

الخيل البيضاء !!. يا لسخرية المنظر الخلاب ، لقد كان فتنة العين فأصبح قذاها .. كان بهجة النفس . فأضحى مصابها وبلواها .

أجل إن الخيل البيضاء الزرقاء ، قد أضحت مصابى فى الحياة .

لقد تحقق الحلم ، تحقق بالضبط ، وأصبحت قائدا لسرية الخيل البيضاء تتقدم الموكب ، ليتنى تمنيت أهون الشرين .

إن الخيل البيضاء ، قد أقسمت أن لا تكون بيضاء .

لقد قضينا الأمس بطوله ، ولا عمل لنا سوى تشطيف الخيل . والجنود يجدون فى عملهم بالفرشاة والمياه والصابون ، ثم بتنا ليلتنا ، وصحونا فى الفجر ، فإذا بجهودنا قد ضاعت أدراج الريح .

كان الوقت ربيعا ، والربيع يصيب كل الناس بغبطة وسرور ، ما عدانا . فالربيع بالنسبة للناس يعنى الزهور ، أما بالنسبة لنا فإنه يعنى البرسيم .

كان مصاب البرسيم فى الأوقات العادية ، ينحصر فى وزنه وفى الساعات الطوال التى نقضيها أمام الميزان عندما يحضره المتعهد ، أما فى أوقات طوابير التشريفة فكان المصاب أثقل وقعا ، إذ كان ينصب بالذات ، على الخيول الزرقاء

ـــ أو على الأصح ـــ قائد الخيول الزرقاء .

كان البرسيم يصيب الخيل بإسهال فيجعل روثها سائلا أخضر يلوث أجسادها إذا ما رقدت عليه ، فيمسى الليل عليها وهى بيضاء من غير سوء ، ولا يكاد يصبح الصباح حتى يضحى بياضها اخضرارا مملوءا بالسوء .

تبدأ عملية التشطيف مرة أخرى ، وظلمة الليل لم تنقشع بعد ، وعبيد الله الذين لم يصابوا بقيادة الخيول البيضاء ، ما زالوا يغطون فى نومهم ، منعمين بدفء الفراش ، وراحة الرقاد . وأنا أغدو وأروح على أسفلت الإصطبل بين بوكسات الخيول ، مستحثا الجنود وبى قلق شديد ، خشية أن يستبين بياض النهار .. قبل أن يستبين بياض الخيل .

وأشرقت الشمس ، وبدأنا نخرج الخيل من الإصطبلات إلى الفناء للتفتيش عليها ، ووقفت بجوار « القومندان » وهو يفحصها واحدا واحدا .

واحسرتاه إن الخيل لم تبيض بعد !!

لقد استطعنا بعد طول الجهد أن نزيل الاخضرار ، ولكن تركت فى مكانه آثار اصفرار ما زالت واضحة فى أجساد الخيل .

وثار القومندان .. فهو يريد الخيل بيضاء ناصعة ولا يقبل أن يكون بها ذلك الاصفرار أبدا .

ما شاء الله !.. ما حيلتى فى هذا الأمر ؟. وأنى لى أن آتى بذلك البياض ؟..

وعادت الخيول إلى الإصطبل ، وعاد الجنود إلى عملية التشطيف ، يحاولون عبثا إزالة تلك الصفرة اللاصقة بأجساد الخيل .

وأخيرا منَّ الله علينا بالفرج ، ووهبنا من لدنه رحمة ، واستطعنا بطريقة ما أن نجعل الخيول بيضاء ، كأنصع ما يكون البياض .

كيف ؟.. لقد وجدنا أن من العبث أن نحاول إزالة الصفرة ، فوضعنا فوقها بياضا ، أجل لقد أحضر كل جندى الحجر الأبيض الذى يمسح به حذاءه وحزامه ، فمسح به حصانه وبعد لحظات كانت الخيل بيضاء من غير سوء .

وانتهينا من التفتيش على الخيل ، وكنت أحس بإنهاك شديد ، فلقد مضى بنا أسبوع ونحن لا نهدأ لحظة واحدة ، وكان أكثر ما يشغل تفكيرنا خلاله ، هو توضيب قوالب الأحذية ، ووضع كل قالب فى حذائه ، ولم تكن المهمة قط بالسهلة الهينة ، فقد كان لكل حذاء من أحذية الجنود الطويلة قالب خشبى ليحفظ تماسكه ، وكان القالب مكونا من خمس قطع ، فلكل حذاء عشر قطع فى أربعين جنديا بأربعمائة قطعة ، وكان لكل حذاء قالبه الخاص به ، ولكن القوالب اختلطت بعضها ببعض ، وكان المطلوب « توليفها » ووضع كل قالب فى الحذاء المناسب له ، لقد كانت مسألة شاقة عسيرة ، شاقة فى مجرد وصفها فما بالكم فى تنفيذها فعلا . أنا نفسى لم أنجح بعد طول الجهد فى توليفها ، وأغلب الظن أنهم ما زالوا منهمكين فى العملية حتى يومنا هذا . فهى مسألة من المسائل التى لن تحل أبدا . أو هى عمل من لا عمل له .

وكان يشغلنا غير مسألة الأحذية ، مسألة التفتيش على ملابس العساكر .
وكان القومندان ــ مساه الله بالخير » لا يحلو له التفتيش إلا فيما بين السادسة والتاسعة مساء، أى فى الوقت الذى يروّح فيه خلق الله عن نفوسهم فيخرجون للنزهة أو يذهبون إلى دور السينما . ولست أشك أن الرجل كان معذورا ، فقد كان متزوجا قديم العهد بالزواج وأغلب ظنى أنه كان يتخذ من التفتيش حجة يتذرع بها للهرب من الدار ، ولكن ما ذنبى أنا ، وقد كنت وقتذاك خاطبا وعاشقا وفى أشد الحاجة لهنيهات الفراغ ؟ ما ذنبى أنا أضيع كل يومى وليلى بين إصطبلات الخيل وعنابر الجنود ، أستمع لقوارص الكلام لأن هذا الجواد ما زال به أثر اصفرار . وذاك الجندى قذر الحذاء .. غير لامع الأزرار .

ما ذنبى وقد كنت أحس وقتذاك أن العمر يذهب سدى ، وأنى لا أكاد أسترق لحظات اللقاء حتى أكون مكدودا منهوك القوى ؟!

وكان هناك إلى جانب أجساد الخيل وملابس العساكر نظافة السروج .. وما كنت أظن أن الوقت يتسع بعد هذا لشىء أبدا .

ولقد كان يعزينى بعد هذا الجهد الذى بذلته ، والوقت الذى ضيعته .. أنى قد حققت أملا طالما داعب رأسى وألح على نفسى ، وأن أوشك بعد هذا التعب أن أصبح فى المنظر الذى فتننى منذ عشرات السنين . فبعد بضع ساعات سأتقدم الموكب على ظهر جوادى الأشهب بملابسى المزركشة .. وسترمقنى الأنظار بالإعجاب ، كما سبق أن رمقت الفارس الذى تمنيت أن أكونه .

وصعدت إلى حجرتى لارتداء ملابس التشريفة المزركشة الزرقاء الحمراء الذهبية ، ووقفت أمام المرآة أتأمل نفسى فى النهاية .. فأحسست بالرضاء ، أو بالعزاء عن ذلك الجهد الذى بذلته والمشقة التى لاقيتها .. فقد وجدت نفس ذلك الإنسان الذى طالما تقت إليه .

وامتطيت صهوة الجواد .. جواد أشهب ، تماما كذلك الذى كان يمتطيه مثلى الأعلى ، وبدأ التحرك من الثكنات .

كان اليوم يوم الاحتفال بالمولد النبوى ، وكان علينا أن نتحرك من ثكناتنا بعابدين حتى نصل إلى القبة ، ثم نسير بالموكب بعد ذاك إلى أرض الاحتفال بالغفير وننتظر حتى نهاية الاحتفال ، ثم نعود بالموكب بعد ذلك إلى القبة ، ونعود فى النهاية إلى عابدين . ولقد استغرقت المسألة منا تسع ساعات متواصلة .

خرجنا من الثكنات فى الساعة الثانية عشرة ظهرا ، وبدأنا السير وأنا أحس بعض الرهبة والخشية ، وزاد من خشيتى اكتشافى بعد برهة أن الجواد الذى أمتطيه لا يفزعه شىء كرؤية الملايات اللف السوداء ، وكنت قد تعودت أن أمتطى جوادا أشد ثباتا ، وأكثر تعودا على المسير فى الطرقات .. ولكنى بدلته بهذا الجواد لجمال منظره .. وصادفتنا الملاءة الأولى فى أول شارع عبد العزيز .. فوجدت الجواد ينظر إليها بحذر ويتوقف .

فربت على عنقه وحاولت تهدئته .. وقلت فى نفسى : ماذا يخشى الغبى من صاحبات الملاءات اللف وهن الخير والبركة ؟.

وأخيرا تقدم الجواد ، وكأنه يجاوز شرا خطيرا ويعبر لغما أو كمينا .. وبدأت

أدعو الله أن يخفف عنا شر الملاءات اللف ويبعدهن عن طريقى .

ولكن الله لم يستجب الدعاء ، بل شاء أن يحشد كل ما فى البلد من الملاءات اللف حينذاك فى شارع عبد العزيز .. فما كنت أسير خطوة ، ألا ويقع بصرى على امرأة فى ملاءة حتى لقد ساءلت نفسى : أين الرجال .. وكان الحصان السخيف يأبى إلا أن يخيف نفسه فى كل مرة .. فما حاول أن يعود نفسه منظرهن قط .. بل كان يجفل أمام كل امرأة وأنا أقوده مرة باللين ، ومرة بالشدة .. تارة بالربت على عنقه ، وتارة بنخسه بالمهماز .

وهكذا استمر الحال بين ثلاثتنا : أنا ، والجواد ، وصاحبات الملاءات ، طيلة شارع عبد العزيز وشارع فاروق والعباسية .. فما انقطع مرورهن فى الطريق لحظة واحدة ، ولا هو انقطع عن خوفه منهن وذعره ، وأنا بينهن وبينه وبين القومندان الذى ينظر إلى فى سخط وتبرم حائر مرتبك وجل .

وأخيرا وصلنا إلى شارع الخليفة المأمون ، ولقد كان الطريق مأمونا فعلا ، فقد انقطع مرور الملاءات اللف .. وبدأت أتنفس الصعداء .

ووصلنا إلى القبة ، وبعد لحظات بدأ الموكب فى التحرك وأنا أتقدمه سائرا بكوكبتى بسير الغار وأحسست فى تلك اللحظة أنى قد وجدت فعلا فى المنظر الخلاب .. المنظر الذهبى الفاتن ، الذى خلب لبى منذ عشرات السنين ، وشعرت أنى قد صرت مثلى الأعلى لا أقل منه قيد أنملة .

ترى ماذا كان إحساسى وقتذاك ؟.

كان أول ما أحسست به ، هو وخز فى فخذى ، كأن هناك سكينا تمزقه .. ولقد كان هناك فعلا ما يشبه السكين . فلقد برز وقتذاك فى فخذ السرج شىء صلب .. لست أدرى من أين برز .. ولا كيف .. ولكن الذى أدريه هو أنه كان يحز فى فخذى كأنه منشار أو سكين .

ولم أستطع النظر أو التفكير فيما حولى ، فقد كنت شارد الذهن ، وكان تفكيرى موزعا ، بين ذلك الشىء الذى يحز فى فخذى ، وبين خشيتى من أن

تبرز من بين صفوف الجماهير المحتشدة على جوانب الطريق .. امرأة من ذوات الملاءة اللف ، فتكون الكارثة الكبرى بالنسبة للجواد المأفون .

وأحسست بالعرق يتصيب من جسدى ، فقد كنت فى حالة من الضيق والألم يصعب وصفها ، ولم يكن هناك بد من التجلد ، ومن أن أسير بارز الصدر ، شامخ الأنف ، ولمحت بين صفوف الجماهير فجأة وجه طفل صغير وقد تعلق بصره بى وبدت عليه أبلغ آيات الإعجاب .. فتذكرت نفسى منذ عشرات السنين .. وعرفت كيف أبدو أمام الطفل .. وقد أحاطتنى هالة ذهبية من آماله المضيئة .. ومر بذهنى كيف أبدو أمام نفسى .

مر بذهنى تشطيف الخيل ودهانها بالحجر الأبيض .. مر بذهنى توليف القوالب والأحذية . مرت بذهنى السخافات التى أضيع فيها عمرى .. تفتيش الملابس ، ونظافة السروج ، و « تقريد » الجنود ، وترويض القومندان .. ثم مر بذهنى ذلك الوخز الذى أحسه فى فخذى .. وتذكرت أنه ما زال علينا أن نقطع مرة أخرى ذلك المشوار الذى قطعناه .

مر كل ذلك فى ذهنى مرور البرق .. ووددت لو همست إلى الطفل : ليتك تعلم .. لقد كنت مثلك لا أعلم .. إن مكانك أفضل أيها الصغير .. مكانك بين الجماهير .. تنظر إلى المناظر الخلابة عن بعد .. إياك أن تقربها . وإلا ذهب عنها كل السحر وكل الروعة .

وددت لو قلت له ذلك ، ولكنى لم أقل . ووددت لو اتعظت أنا نفسى بنفسى . ففهمت الحياة وركلتها بقدمى وعشت فيها محتقرا إياها زاهدا فيها ، لا أجهد نفسى فى الوصول إلى شىء فهى فارغة خاوية ما من شىء بها يستحق الجهد .. « إنها ستار تمثيل حقير فى ذاته ، فأما ما تراه من جمال وروعة فهو باطل من تزوير الليل وخدعة من تمويه الأنوار » .

ولكنى لم أدرك ذلك .. بل خيل إلى وقتذاك أنى قد أخطأت فى اختيار المثل الأعلى ، وأننى تعلقت بقشور المظاهر .. وخلبنى بريقها ولألأؤها ، وأنه كان

من الخير إلى أن أكون رجل فكر ، من أن أكون رجل مظهر ، وأنه يجب على أن أحيد عن الطريق الذى سلكته ، وأن أتخذ لى مثلا آخر غير ذلك المثل الأجوف الذى اتخذته ، مثلا جميل الباطن لا براق الظاهر .. مثلا سليم اللب متين الجوهر ، لا مثلا من هذه التماثيل الجميلة الزائفة .

وهكذا بدأت أنحرف عن طريقى ، وبدا لى فى أفق الحياة منظر جديد ، بعد أن خبا سحر المنظر الأول وأضحى مظلما متربا .

كان المنظر الجديد .. الذى أبرزت سحره أشعة الأمل . هو منظر رجل من رجال الفكر .. رجل يحرك بقلمه الأذهان ويقود الآراء .. رجل واسع الشهرة يستطيع بأسطر قلائل أن يهدم مبدأ ، ويشيد آخر .. رجل يستطيع أن يرتقى بالناس إلى مستوى أفضل .

ولقد تتملككم الدهشة ، وتقولون لى ساخرين : أيها الأحمق ، أى أمل لك فى أن تصبح من قادة الرأى وأنت تقضى حياتك — كما قلت — بين إسطبلات الخيل ، وعنابر العساكر .. وتضيع جهدك فى تقريد الجنود ، وترويض القومندان .. أى أمل لك أيها الغبى فى أن تصبح من رجال القلم والفكر ، وكل ما فى فكرك لا يزيد عن توليف قوالب الأحذية وتبييض أجساد الخيل .

ولكنى أجيبكم : إن لكل إنسان أن يأمل كما يشاء ، فما كانت الآمال لتقف عند حدود العقل ، إن العجب ليس فى أن يأمل الإنسان آمالا غير معقولة ، بل العجب فى أن تحقق له الأقدار هذه الأمال . وهل يصعب على القدر فعل الأعاجيب .

لقد بدأت أجد السير فى طريقى متجها إلى المنظر الجديد ، موليا وجهى شطر مثلى الأعلى ، وأنا كما قلت لكم : رجل محظوظ .

فسرعان ما وجدت نفسى ، أقترب وأقترب .. وأمعن فى الاقتراب ، بكل ما لدى من جهد .. متخطيا الموانع ، قافزا العقبات .. كأنى جواد فى سباق .. سباق مع الأيام ، لقد كنت أعدو ، والزمن يعدو خلفى .. أنا فى عجلة ، وهو فى

عجلة .. أنا أريد أن أصل ، وهو يريد ملاحقتى .

ووصلت أخيرا منهوك القوى مبهور الأنفاس ، ووقفت أمعن البصر فى المنظر بعد أن بلغته .. وتأملت نفسى بعد أن أصبحت المثل الأعلى .. النفيس الجوهر ، الطيب اللب .

واسخريتاه !!

واسخريتاه من رجال الفكر ، وقادة الرأى .

واسخريتاه منهم .. فى بلد أجدب فيه الفكر .. وامحى الرأى .

لقد أصبحت مرة أخرى ذلك الرجل الذى تمنيت أن أكون .. الرجل الذائع الصيت ، الواسع الشهرة .. الذى يحسب الناس لقلمه ألف حساب . الرجل الذى إذا أراد شيئا فعله ، وإذا فعله هز به مشارق الأرض ومغاربها .

ترى هل وجهت الآراء توجيها سديدا ؟.

ترى هل ارتقيت بالناس وسموت بهم إلى مستوى أفضل ؟!

ترى هل سموت أنا بنفسى وترفعت ؟!!

أبدا والله .. لقد وجدت نفسى أشبه ببائع الترمس .. أو البلطجية .

أجل . لقد أصبحت بائع كلمات . وعلى قدر ما يدفعون لى أكتب لهم .. ولست أشك أن بائع الترمس خير منى وأفضل ، فهو يبيع شيئا ملموسا يحس به الناس جميعا بين ضروسهم وفى أمعائهم . أما أنا فأبيع لا شىء . أبيع كلمات بعد لحظات ستذهب مع الريح .. فهذا بلد لا تجدى فيه الكلمات نفعا .. إنما تجدى فيه العصى والسياط .

لقد أصبحت بلطجيا مأجورا ، هذا الحزب يستخدمنى لكى أسب ذلك ، وهذا الزعيم يستأجرنى لكى أهدم ذلك ، وأنا بين هذا وذاك مسلول القلم مرهف الذهن . أكتب وأكتب ، والنقود تتدفق من حولى . لقد كنت تاجرا رابحا أعطى قدر ما آخذ . هذا يريد منى مقالا بعشرة جنيهات ، وذاك يريد بعشرين . إنى أكتب وأكتب .. لا مبدأ .. ولا غرض إلا المال .. وكيف أستطيع أن أكون غير

هذا .. فى بلد كهذا .. بلد فسدت فيه النفوس ، وصدئت الأذهان ، وعميت الأبصار .

لشد ما أخطأت فى مثلى الثانى ، ولشد ما خدعنى منظره الفاتن من على بعد .. لقد أصابتنى خيبة الأمل مرة أخرى ، وأحسست من نفسى ومن الناس بمرارة شديدة .

وكان يجب على أن أرتدع ، وأن أقنع من الحياة بما وصلت إليه ، ولا أجهد نفسي بعد ذلك ، ولكنى حاولت مرة ثالثة أن أخدع نفسى قائلا لها : إنى قد أخطأت المثل مرة أخرى ، وأن هذا البلد لا يجدى فيه الموقف السلبى .. وأنى لا أستطيع أن أكون شيئا بمجرد النصح والإرشاد ، وأن من الحمق أن أكون من قادة الرأى فى أمة لا رأى فيها ، وأن خير ما أفعل هو أن أكون من أصحاب السلطات حتى أستطيع أن أفعل شيئا إيجابيا .

وبدأت أتطلع إلى أفق الحياة مرة أخرى .. ولاح لى المنظر من جديد يدعونى إلى التقدم حتى أبلغه .. منظر أشد من المنظرين السابقين فتنة ، وأكثر روعة ، وأبعد مثالا . منظر كرسى الوزارة .. لقد أضحى مثلى الأعلى الجديد أن أكون رئيس وزارة .

لا تضحكوا منى .. ولا تسخروا .. فلقد قلت لكم إن آمال الإنسان لا حدود لها ، وأنه لا حرج عليه فى أن يأمل ما يشاء .. ولكن الحرج على القدر الذى ينيل الإنسان أمانيه الهوجاء ، فإذا أردتم أن تضحكوا أو تسخروا فاضحكوا من الأقدار الهازلة ، واسخروا من الظروف المجنونة الخرقاء التى جعلت منى فعلا رئيس وزارة .

لقد بدأت أسلك الطريق السياسى .. وأخذت أخوض فى أوحاله ، فقد كان أكثر الطرق التى سلكتها امتلاء بالأوحال والقاذورات .. مستعينا بكل ما وهبه الله للنفس البشرية من نفاق ، ومكر ، ومخاتلة ، ورياء .

وحثث الخطى ، وبدأت أقطع المرحلة تلو المرحلة .. فأصبحت عضوا فى مجلس النواب الذى كان يفتنى منظره فيما مضى .. وكنت أحس له برهبة

ومهابة ، ولست أظننى فى حاجة إلى أن أصف لكم كيف وجدته على حقيقته .. لقد وجدت المسألة كلها لا تعدو أن تكون هزلا فى هزل .. وما استطعت أن أتبين أية صلة بين مجلس النواب والحياة النيابية الحقة . لقد كان ستارا زائفا . كان أشبه بلعبة لتسلية الأطفال أو أشبه بمسرح للتمثيل . لقد كان خدعة وحرام على أن أضيع الكلمات فى السخرية منه فهو لا يستحق حتى السخرية .. إنه لا شىء .. إنه والعدم سواء .

وأخذت أعدو فى الطريق وأعدو ، وشعرت أن الوصول يحتاج منى أن أكون ممثلا مهرجا ، فكنته .. إن الغاية تبرر الواسطة .. ولابد أن أصل إلى الغاية مهما كانت الواسطة . ماذا يضيرنى أن أكون شيخ المهرجين فى أمة التهريج والمهرجين ؟!

وبعون التهريج والنفاق ، والمكر والرياء ، وبدفعة من الظروف الخرقاء الهوجاء .. وعلى أكتاف الحمقى والمخابيل والجهلاء . وصلت أخيرا إلى رياسة الوزراء ، وما أدراكم ما رياسة الوزراء !.

لقد أصبحت أخيرا رئيسا للوزارة .. هل تسمحون لى بفترة أتمالك فيها أنفاسى ؟

تصوروا .. رئيس وزراء !!.

لقد بلغت المنظر السحرى الرائع .. الذى كان يخيل لى أنه أبعد من الجوزاء .. وأكثر استحالة من العنقاء .. لقد أصبحت أخيرا : المثل الأعلى الذى ليس هناك أكثر منه علوا .. ولا أبعد منالا .

لو كانت الأعمال بالنيات فلاشك أنى سأجزى خيرا عن كل ما نويت . لقد خلوت إلى نفسى وحمدت الله على نعمته وعلى ما أوصلنى إليه .

وتذكرت يوما فى صباى كنت أجلس فيه مع بعض الرفاق وأخذنا ننتقد البلد وما وصلت إليه من سوء المآل وقلت وقتذاك لو أصبحت رئيس وزراء ، وملكت بيدى زمام الأمة وتوليت أمرها لأتيت بما لم تستطعه الأوائل ، وأقلتها من عثرتها ، وهديتها سواء السبيل .

قلت وقتذاك : إن أول ما أفعله هو أن أوجه كل جهد إلى الفلاح المسكين فأنفذ قانون تحديد الملكية وأحرم على كل من يملك أكثر من خمسين فدانا أن يشترى أطيانا أخرى ، وأدق الطلمبات فى القرى وأجعل الفلاحين يعيشون كآدميين ، وأجبر أصحاب الأملاك أن يعطوا للفلاح قدر ما يأخذون منه . وأوقف كل صرف على زركشة أحياء الأغنياء وتنميقها وعلى تجميل سراى الزعفران وتوسيع حدائقها الغناء ، وأصرف تلك المبالغ التى تغدق على أحياء الموتى المقبورين فى الأحياء الفقيرة .

قلت وقتذاك : إنى سأوقف حفلات التهريج الحكومية ، وسألهب ظهر الروتين الحكومى وأوقظه من رقدته، وأمنع الاستثناءات والوساطات ، وقلت أشياء كثيرة وقتذاك .

ولقد تذكرت ما قلت .. ونويت أن أفعله .. ولكنى لم أفعل منه شيئا .. ولقد كنت والله معذورا .

كيف ؟ لقد كنت أشبه بالمسطول أو « الدائخ » فمنذ أن توليت الوزارة وأنا أحس بالخازوق تلو الخازوق . فالمعارضون لا هم لهم سوى محاولة إسقاطى ، فهم يرجعون كل خطأ يحدث إلى إهمالى .. فلو نفق حمار .. فأنا المسؤول ويجب على أن أستقيل . ولقد تملكنى منذ أن توليت الوزارء غريزة حب البقاء والدفاع عن النفس .. فتناسيت كل ما كنت أود أن أفعل .. و لم يعد فى رأسى سوى شىء واحد .. وهو كيف أرد كيد المعارضين ، وكيف أحافظ على نفسى فى كرسى الحكم .

لقد كانت تقودنى فى كل عمل رغبتى فى البقاء .

ترى بالله كيف أجسر أن أواجه النواب برغبتى فى تنفيذ قانون تحديد الملكية وكلهم من أصحاب الأملاك !

ترى كيف أفرض الضرائب ، حتى أوجد المال اللازم لإصلاح حال الفلاح ، وكل من أستند إلى عونهم يزعجهم مجرد ذكر الضرائب .. بل كيف أعمل جادا .. وأنا أضيع كل جهدى ووقتى فى التهريج والتظاهر الذى يضمن لى طول البقاء ؟!

كيف أحاول منع الاستثناءات والوساطات والمحاسيب والأقارب ، والأنصار ، والمعارف يفرضونها على فرضا ، ويضطروننى إلى فعلها أو الانفضاض من حولى ؟!

حتى السياسة الخارجية لم يكن يوجهني فيها إلا حب البقاء ، فأنا مائع حائر بين الداخل والخارج .. أشتد مع الخارج لأرضى الداخل ، فإذا ما اكفهر لى وجه الخارج أرخيت له حبا فى البقاء .

إنى متعب ، إنى مجهد ، ولكن السلطان لذيذ ، والحكم ممتع .. لقد كرهنى الكثير من الناس دون سبب ، سوى ما قال الشاعر :

إن نصف الناس أعداء لمن ولى الأحكام ، هذا إن عدل

أصبت اليوم برصاصة ، وأنا خارج من مجلس الوزراء . لقد قتلونى.. بلا سبب . فما فعلت أحسن ولا أسوأ مما فعل غيرى ، فكلنا فى الهوى سوى .

إنى أحتضر . ولست أشك أنهم سيجعلون منى بطلا .. لست أدرى لم ؟

إن كل ما فعلته هو أنى قتلت !! يا لهم من حمقى أغبياء !.

إنى أحس أنى خارج من دنياكم بعد لحظات .

بصقة عليها ، فإنى أكرهها . رغم أنى قد وصلت فيها إلى أقصى ما يصل إنسان . إنها دنيا هاوية ، ومهما وصل الإنسان فيها فما زال فى القرار .

بصقة على دنياكم ، فما صادفت فيها سوى كل أجوف زائف عاطل .

بصقة عليها ، وعليكم ، أيها الحمقى الأشقياء .

غدا ستخلدون ذكراى وستشيدون لى قبراً بين قبور العظماء .

بصقة على قبور عظمائكم .

فلو بعثوا من الأجداث لقالوا لكم : « أيها الحمقى ، كفى سخفا ، اصرفوا النقود التى شيدتم بها قبورا لتخليدنا على الفقراء من أحيائكم ، الفقراء الذين يتضورون جوعا ويرتجفون عريا ، أيها الحمقى أحيوا أحياءكم خيرا من أن تحيوا ذكرى موتاكم » .

دُنيـــــــا

كان يمكنني أن أتركهم بلا عقول ، ولست أشك فى أن هذا كان خيرا لهم ولى ، فإنهم كانوا سيجعلون من دنياهم خيرا مما جعلنا من دنيانا ... يجعلون منها دنيا سهلة بسيطة خالية من التعقيد والارتباك ، دنيا شبيهة بدنيا الحيوان لا اختراعات فيها ، ولا ابتكارات ، ولا محاكم ، ولا قضاة ، ولا حروب ، ولا أى شىء من هذه الأشياء المعقدة . دنيا يجرى فيها كل شىء كما خلقه الخالق هينا لينا سهلا بسيطا .

بطل هذه القصة الوحيد الذى لا بطل فيها سواه .. هو الشيخ سيد فرقع ، ولقد اختلفت مشاعرى نحو الرجل وتبدلت على مر الأيام .

لقيته أول مرة فأثار فى نفسى رعبا شديدا .. واستمر هذا الرعب يملأ نفسى كلما صادفته .. فترتعد فرائصى وأولى منه فرارا ، ومرت الأيام فبدأت ألم أطراف شجاعتى إزاء الرجل ، وتملكنى شعور بالرغبة فى إثارته والضحك عليه ، والسخرية منه ، وانضممت إلى زمرة العابثين منه ، المشاكسين له .. واستمرت عجلة الزمن فى الدوران .. فإذا بشعور السخرية والهزء قد تطور فأضحى عطفا وحدبا ، فلقد داخلنى إحساس بأن الرجل مصاب ، وتملكنى رغبة جارفة فى معاونته والترفيه عنه .

ولست أشك فى أن هذا التطور فى إحساسى نحو الرجل لم يكن إلا مظهرا لتطورى أنا نفسى ، فقد استمر هو ، كما هو ، لم يطرأ عليه تغيير ، اللهم إلا ما أصابته به السنون من تحطم وتهدم ظهر أثره فى انحناء ظهره وتهدج صوته .

لنبدأ بوصف الرجل فى مرحلته الأولى .. المرحلة التى كان يثير خلالها الذعر فى نفسى .. كنت وقتذاك تلميذا فى السادسة من عمرى بمدرسة وادى النيل الابتدائية الواقعة فى شارع السد بالقرب من ميدان السيدة زينب .. ولا أظن الخمس والعشرين سنة التى مرت بى ، قد استطاعت أن تمحو من ذاكرتى صور المناظر التى كانت تحيط بى وقتذاك ، فهى ما زالت باقية فى الذهن واضحة جلية .

الساعة الرابعة بعد الظهر ، وقد اندفعنا متزاحمين من باب المدرسة الخشبى العريض ، وأخذنا نتفرق شعبا وفرادى ، حتى ذابت كتلتنا فى جمهرة المارة الذين غص بهم الطريق ، وابتلع الشارع المكتظ أجسادنا الصغيرة . كان أول ما يقع عليه بصرى هو بائع « البطاطا ــ المعسلة ، والمشوية ، بنار الفرن » بعربته التى يتوسطها الفرن الأسود الذى احتوى فى جوفه كنوز البطاطا المكتنزة الممتلئة . فإذا ما تجاوزنا بائع البطاطة ، والفرن الأفرنجى ، ومحل الجزارة ، والعطارة ، وقع بصرنا بعد ذلك فى الناصية المقابلة على دكان المعلم عبد المعطى السماك ، وقد فاحت منه رائحة السمك المقلى .. وبدا السمك مرصوصا فى واجهة الحانوت فى صوان نحاسية . تدلت من أطرفها عيدان البقدونس التى تستعمل ــ فرشة ــ يرص عليها السمك . وفى أحد أركان الحانوت بدا قدر على النار يتصاعد منه البخار وتفوح منه رائحة تفتح الشهية ، وأخذ الأسطى عبد المعطى يقلب القدر ويغرف منه الكسبرية فى أوان من الفخار يتناولها الزبائن الجالسون القرفصاء بجوار الحانوت .

كان كل شيء فى دكان عبد المعطى السماك يبعث فى نفسى الرضا والإعجاب .. رائحة السمك المقلى ومنظره .. ورائحة الكسبرية ولونها .. وأكوام الطماطم التى رصت على شكل أهرام .. والبرطمانات الزجاجية المليئة بالمياه الملونة ، والمرايا التى زينت بها جوانب الدكان . وصوت السمك يطشطش فى الزيت ، وهذه السمكة الضخمة البراقة العينين التى وضع فى فمها حزمة بقدونس . كل شيء يثير فى نفسى الإعجاب .. ويجعلنى أتمنى لو اندفعت

إلى الدكان أجول فيه كما أشاء .. كان المكان فى نظرى مكانا نموذجيا يقضى فيه المرء عمره .. لولا شيء واحد .. شيء واحد ، هو الذى كان يتلف فى نظرى حسن الدكان ، ويصدنى عنه ويخيفنى منه .. شيء واحد هو الذى كان يذهب عن نفسى الطمأنينة ويملؤها بالقلق .. هو ذلك الرجل السمين ذو العمامة ، والعباءة ، والمركوب الأصفر ، الذى كان يجلس متربعا على الرصيف أمام الحانوت وقد انهمك انهماكا تاما فى تقشير الثوم أو دقه فى الجرن .

كان مبعث خشيتى من الرجل هو ما قاله لى أحد أصدقائى من الصبية أنه رجل مجنون ، وأنه رآه مرة ثائرا فى الناس يعدو وراءهم بعكازه الغليظ . و لم أدر مبلغ ما فى قول صاحبى من الصدق ، فما رأيته قط فى حالة هياج ، وإن كان ذلك لم يمنعنى من أن أتقيه ، وأنأى بنفسى عنه ، فلا أحاول قط السير على الرصيف الجالس عليه .. بل أسير على الرصيف المقابل .. لأنى أبصر من ملامحه ، ومن عصاه ، ما يجعلنى أوجس منه خيفة .

وفى ذات يوم وقعت الواقعة ، وحدث ما أثبت قول صاحبى ، وما ملأنى من الرجل رعبا . خرجت من المدرسة كعادتى ، فسمعت فى الشارع ضجيجا ، وصخبا .. وأبصرت بصاحبنا الشيخ سيد فرقع قد وقف على ناصية حارة السيدة ، وقد أمسك بعصاه ، وأخذ يضرب بها الأرض بعنف ، وقد علا الزبد شفتيه ، وانتفخ وجهه ، واحمرت عيناه ، وأخذ يصيح بأعلا صوته :

ــ يا عسكرى .. يا عسكرى .

وأصابنى ذعر شديد ، بالرغم من أن هياج الرجل لم يكن يتعدى نفسه ، فما حاول أن يؤذى أحدا من الناس ، بل استمر يكرر استغاثته بطريقة مروعة ، متواصلة ، حتى بح صوته ، وتراخى جسده ، و لم تعد لديه أية قدرة على الصياح ، وأخذ يحدث نفسه بكلمات مدغمة غير مفهومة . وكان المعلم عبد المعطى قد خرج إليه وأخذ يربت على كتفيه مهدئا إياه قائلا : « كفايه يا شيخ سيد .. كفايه » . ثم أخذه من يده وأجلسه مكانه على الرصيف أمام الدكان .

ومنذ ذلك اليوم .. وأنا ما أكاد أبصر الرجل حتى يتملكنى الرعب وأطلق ساقى للريح .. وتكررت رؤيتى له وهو فى حالته تلك من الهياج والصراخ ، وقد علت فمه الرغاوى البيضاء ، وبدت فى عينيه نظرات مخيفة كأنه إنسان مذبوح يصارع سكرات الموت .

واستمر الحال كذلك سنة ، وسنتين ، وثلاثا ، والرجل كما هو .. لا أرى منه إلا مبعث ذعر ، ومورد خوف حتى بدأت أعتاده ، ولم يعد يرعبنى صراخه ، أو يخيفنى هياجه ، وخاصة أنى لم أجده قط قد آذى إنسانا . وبدأت أرى فيه شيئا يبعث على التسلية ومنظرا يستحق المشاهدة كالأراجوز ، أو الحاوى ، أو القرد ، وأخذ الأمر يتطور حتى انتهى إلى أننا — أنا وعصبة من الصبية — بدأنا نكره أن نرى الرجل هادئا .. فكنا إذا ما وجدناه ساكنا فى مجلسه أمام الدكان يقشر الثوم ، أخذنا نتحرش به ونستثيره بمختلف الطرق والوسائل .

ولقد بدأنا أول مرة فى إهاجته بأن خطف أحدنا عمامته ، وأخذنا نتقاذفها بأيدينا فى وسط شارع السد ، وهو يعدو وراءنا صائحا مغتاظا ، حتى أعياه العدو ، فانتابته حالة الهياج .. وبدأ يضرب الأرض بعصاه ويصرخ مستغيثا : « يا عسكرى » .

وتكرر الأمر بيننا وبينه . حتى بدأ ينالنا منه بعض الأذى ، وحتى بدأ الناس يرثون له ويضجون من معاكستنا له فتقدموا بالشكوى إلى ناظر المدرسة ، فكان نصيبنا « علقة ساخنة » . كففنا بعدها عن مشاغبة الرجل وإهاجته .

ومرت السنون ، فغيرت منى الكثير . نضج منى الذهن ، ونما الجسد ، وبدأت أدخل فى دور الرجولة ، والرجل كما هو ، إما جالسا فى صمت يقشر الثوم ، أو هائجا يستنجد بالعسكرى .

وبدأت أحس عطفا عليه .. وتمنيت لو استطعت أن أعاونه . وحاولت ذات مرة أن أدس فى يده قرشا ، وهو فى جلسته متربعا أمام جرن الثوم .. فنظر إلى

ثم إلى القرش ، وقذف به بعيدا دون أن ينطق ببنت شفة .. وانهمك فى دق الثوم كعادته .

و لم أيأس منه ، وظللت أستجدى صداقته ، حتى اطمأن إلى أخيرا .. وعرفنى تمام المعرفة ، وبدأ يهش لى ، ويقبل منى بعض العطايا .

وأدركت أن الرجل لا يحس بتلك النوبات التى تصيبه ، والتى تتركه منهوك الجسد ، محطم الأعصاب ، وكان الناس من حوله يعتقدون أن الرجل — عليه أسياد — وأنها تتملكه أحيانا فتجعله على تلك الحال التى تعتريه ، وعلمت منهم أنهم قد ذهبوا به إلى الزار بضع مرات دون فائدة ، فإن الأسياد التى تركبه من نوع لعين .

وفى ذات ليلة من ليالى الشتاء، صادفت الرجل فى عودتى إلى الدار ، وقد استلقى مكانه على الرصيف أمام الحانوت المغلق ، وأصابتنى دهشة من استلقاء الرجل على هذه الحالة ، وخشيت أن يكون قد أصابه سوء . واقتربت منه لأتبين ما به ، وهززته بيدى ، فاستيقظ ، وسألنى عما أريد .

قلت له مترفقا :

— ماذا تفعل هنا يا شيخ سيد ؟!.

— نائم .

— و لم لا تذهب لتنام فى حجرتك ؟

— لقد طردونى منها .

— من الذى طردك ؟!..

— صاحبتها .

— و لم ؟

— أسكنتها لآخر حتى تنتفع بأجرها فإنى لا أملك أجرا .

— ومنذ متى تنام هنا ؟!..

— منذ شهرين ، لقد وجدت مشقة فى المبيت هنا فى بادئ الأمر ، ولكنى

تعودته .. السلام عليكم يا سيدى .

وانطوى الرجل على الأرض ، وأغمض عينيه ، كان ذلك منه بمثابة أمر لى بالانصراف ، ولكننى لم أنصرف .. فقد أحسست بمرارة من نومة الرجل ، وخيل إلى أن القر الذى يخز جسده يخز جسدى ، وصممت على ألا أتركه هكذا ، وأن أوجد له مأوى يقيه شر البرد . وفكرت برهة ، فخطر لى آخذه معى إلى الدار ، وأن أضجعه فى أى مكان بها ، ولكننى خشيت من الأهل أن يتهمونى ، كعادتهم بالسخف والبله ، وأن يطردونى معه ، فيكون نصيبى النوم بجواره أمام الدكان .

وفجأة تذكرت الحجرة الخشبية الكائنة تحت السلم ، تلك الحجرة المظلمة الضيقة المتربة ، التى يضعون فيها بعض الكراكيب ، وحمدت الله أن هدانى إلى تذكرها ، فقد وجدت فيها مفتاح الموقف ، فهى بلاشك خير مأوى للرجل ، فستقيه من عرى ، وتدفئه من برد ، ولن يشعر به أحد من الأهل ، فسأوقظه مبكرا قبل أن يستيقظ أحد منهم ولاشك أنه يستطيع أن يأوى إليها بعد ذلك دون أن يحس به أحد .

ولم أتردد بعد ذلك برهة ، بل جذبت الرجل من يده ، وأقنعته بأن يسير معى ، لأنى سأهيىء له حجرة يبيت فيها بلا أجر ، وسرت وإياه مخترقين حارة السيدة عابرين « الأبوة » المؤدية إلى جنينة ناميش ، والرجل يقرع الأرض بعصاه الثقيلة قرعات منتظمة ، تشق سكون الليل ، حتى وصلنا إلى البيت ، ودلفنا فى صمت إلى الداخل ، وتسللت إلى أسفل السلم حتى وصلت إلى باب الحجرة ، ودفعته بكتفى فأحدث صريرا مزعجا ، وأشعلت عود ثقاب فظهرت الحجرة على ضوئه الباهت ، وقد كدست فيها الأتربة ، وخيمت عليها العناكب ورأيت فيها دكه خشبية عريضة تصلح لنوم الرجل فأشرت إليها قائلا :

— ما رأيك ؟!.

ولم يجب ، بل تقدم إلى داخل الحجرة ، واستلقى على الدكة ، وأغمض

عينيه ، وقال دون أن ينظر إلى :

ـــ السلام عليكم .

وتركت الرجل ، وأنا أحس فى قرارة نفسى بالرضا ، وعزمت على أن أستيقظ مبكرا لأوقظه وأصرفه ، قبل أن يستيقظ أحد من الأهل .

ولكنى لم أوقظه فى الصباح ، لأنه هو الذى أيقظنى ، وأيقظ كل من فى الدار .

أجل ... لقد هببنا جميعا من نومنا على صوت الشيخ يصيح بأعلى صوته : « يا عسكرى » .

لعنة الله عليك يا شيخ سيد .. لقد فضحتنى ، وفضحت نفسك . هل كان لابد للنوبة أن تصيبك فى هذا الوقت المبكر ؟

وهرولت إلى أسفل السلم ، حتى أوضح للأهل حقيقة الأمر ، وحتى لا يظنوا أن الرجل لص فيصيبه منهم أذى .

وأخيرا هدأت نوبة الرجل ، وأخذت أشرح لهم حقيقة الموقف ، وأفهمتهم كيف وجدت المسكين يقضى ليله أمام باب الحانوت على الرصيف ، لأنه لا يجد له مأوى .. واستطعت أن أقنعهم فى النهاية بأن نخصص الغرفة الخالية للرجل المسكين حتى تكسب فيه ثوابا .

وهكذا اتخذ الشيخ سيد الحجرة أسفل السلم مأوى يقضى فيه ليلته ، ومرت الأيام فتعوده أهل الدار ، فقد كان الرجل ـــ فيما عدا النوبات التى تصيبه والتى قد أخذت تخف شيئا فشيئا ـــ رجلا هادئا ، طيب القلب ، حتى لقد بدأنا نفكر فى أن نتخذه بوابا للبيت ، ونوفر عليه مشقة تقشير الثوم ودقه للمعلم عبد المعطى .

وعرضت الأمر عليه ، فأبدى منه ارتياحا ، وكف من ذلك اليوم عن الذهاب إلى مقر عمله أمام دكان السمك و لم يعد يفارق الحجرة أو باب الدار .

ومرت الأيام بالشيخ سيد وهو هادئ مستقر ، وانقطعت عنه النوبات

أو كادت ، وبدأ يقضى جل وقته مختفيا فى حجرته ، ولاحظت أنه قد صنع لحجرته مفتاحا فلا يترك الحجرة إلا وقد أغلق الباب جيدا .

ولم يثر فى نفسى هذا التصرف من الرجل كثير دهش وظننته يقضى وقته فى الصلاة والعبادة ، وأنه يغلق باب الحجرة حتى لا تكون موطئا للداخل والخارج ، ولكن الشىء الذى أثار دهشتى حقا هو ما لاحظته ذات مرة من أن الرجل يحول إلى حجرته بعض الحصى والأتربة ، وفى مرة أخرى يحول بعض الجير والأسمنت والرمل والحمرة من عمارة تبنى بجوارنا .

أدهشنى من الرجل هذا الفعل وحيرنى أمره وساءلت نفسى : ترى ماذا ينوى الشيخ سيد أن يفعل بهذه المواد التى يحولها إلى حجرته ؟ وبدأت أقرن فى ذهنى هذا التصرف من الرجل بكثرة اختفائه داخل حجرته وحرصه على إغلاق الباب ، فلم أشك أن فى الأمر سرا ، وأخذت أجهد الذهن فى محاولة استجلائه .

ماذا يفعل الرجل ؟

يرمم جدار الحجرة ؟

جائز ، ولكن لم هذا التخفى والتستر ؟

ولم لم يسألنا أن نرممها له ويوفر على نفسه مشقة العمل ؟

ترى هل يبنى حجرة داخل الحجرة ؟ ولكن لم ؟

هل تراه يبنى مخبأ لشىء يحرص عليه ؟

محتمل جدا ، بل هذا هو الشىء الأقرب إلى العقل .

إن الرجل لابد أن يكون لديه مبلغ مدخر من المال وهو يحرص عليه ، ويريد أن يبنى له مخبأ أمينا فى باطن الأرض ، لقد ذكرنى ذلك الخاطر بفكرة أخرى .

من يدرينى أن الرجل المخبول لا يعد لنفسه قبرا داخل الحجرة حتى تكون الحجرة مأواه حيا وميتا ؟.

وازداد بى التفكير ، واختلط الأمر على ، حتى عزمت فى النهاية على استجلاء الحقيقة بالتسلل إلى حجرة الرجل ورؤية ماذا يصنع .

وفى نفس المساء ، وأنا عائد إلى الدار ، لم أصعد السلم بل اتجهت إلى أسفله ، فقد رأيت بصيصا من الضوء يبدو من ثقب الباب .

ولم أطرق الباب بل دفعته بيدى ، حتى أفاجئ الرجل وأرى ماذا يصنع . ولكن الباب لم يفتح فقد كان مغلقا من الداخل ، فاضطررت إلى الطرق ، وأجابنى صوت الرجل من الداخل :

ـــ من ؟!

ـــ افتح يا شيخ سيد .

ـــ ماذا تريد ؟..

ـــ سؤال بسيط .

ـــ أجله لباكر .. إنى نائم .

ـــ إنك لست بنائم .

ـــ كان يجب أن أكون نائما .

ـــ إذا فيمكنك أن تستيقظ .

وأبدى الرجل علامات التأفف ، ثم سمعت صوت شىء ثقيل يجر على الأرض كأنما هو يحرك الدكة التى ينام عليها . ومضت فترة طويلة قبل أن يفتح لى ، حتى اضطررت إلى أن أستحثه :

ـــ افتح يا شيخ سيد .

وأخيرا فتح الشيخ سيد ، ووقف بجسده فى الباب يحول بينى وبين الدخول ، ولكننى لم أترك له الفرصة لكى يفعل بل دفعته جانبا ، ودلفت إلى الحجرة فلم أجد بالحجرة شيئا غريبا ، لا شىء أكثر من أن الدكة جرها الرجل كما توقعت إلى منتصف الحجرة ، وأبصرت بأكوام الأسمنت والجير والحمرة والرمل والتراب الأسود ، وقد وضعت فى صناديق متجاورة ، ووجدت عجينة من الطين قد وضعت فى ركن الغرفة وبجوارها صفيحة مليئة بالمياه .

ونظرت إلى الشيخ سيد ، وقد أمسك بيده كوزا ملىء بالمياه ، وأشرت إلى

أكوام المونة وقلت ضاحكا :

ـــ ما شاء الله يا شيخ سيد ، مبروك الحجرة الجديدة التى تنوى بناءها .

ـــ بارك الله فيك ، على كل حال ، وإن كنت أرى أنك قد بخستنى حقى بقولك حجرة .

وانطلقت مقهقها .. وقلت للرجل فى سخرية :

ـــ أقصد البيت الجديد .

ـــ ما زلت تبخسنى .

ـــ العمارة ؟!

ـــ عيب يا سيدى .. أنا أصنع عمارة ؟

ـــ إذا المدينة ؟.. مدينة الشيخ سيد فرقع .

ونظرت إلى أكوام الجير ، والرمل والأسمنت والحمرة التى لا يزيد كل منها على بضع حفنات ، وأردفت قائلا فى سخرية وأنا أربت على كتف الرجل :

ـــ الواقع يا شيخ سيد أن هذه المواد لا تكفى لأكثر من مدينة ، فإذا كنت تنوى أن تنشئ قطرا بأكمله فلابد من زيادة المونة . يمكنك أن تسرق غدا بعض كميات أخرى من المونة .. المونة التى تستعمل فى بناء العمارة المجاورة ، أعنى القارة المجاورة .

ونظر إلى الرجل المخبول وهز رأسه فى أسف ، وقال فى لهجة رثاء :

ـــ عبيط !!

ـــ أنا عبيط ؟! الله يسامحك يا شيخ سيد .

ـــ أقصد عبيط فى فن الإنشاء ، والبناء ، والتعمير .

ثم مد يده فجذب بها رأسى وقرب فمه من أذنى وهمس قائلا :

ـــ إنى أنشئ دنيا .

ـــ دنيا ؟

ـــ أجل . أجل .. دنيا .. عالم بأكمله .. كون جديد .

ثم ترك الرجل رأسي ودفع الدكة التى توسطت الحجرة بقدمه إلى ناحية أخرى ، فانزاحت عن مئات القطع الطينية الصغيرة التى بدت متراصة متلاصقة فى صفوف منتظمة . ونظر إليها الشيخ سيد ، وقد بدت على وجهه أبلغ آيات الإعجاب ، وبعد أن تأمل فيها برهة تطلع إلى وقال فى كبرياء وتفاخر :

— ما رأيك ؟

— عظيم !! شيء جميل جدا .. أما دنيا !!

— أنا ما زلت فى البداية ، هذا قليل من كثير ، هذه نواة الدنيا التى بدأت فى إنشائها ، هؤلاء بعض خلقى الذين شرعت فى خلقهم .

— ما شاء الله .

— خير لك أن تستبدل — ما شاء الله — بما شاء الشيخ سيد ، فأنا بالنسبة لهؤلاء الخلق من الطين الراقدين أمامك ، كالله بالنسبة لكم .

— أستغفر الله العظيم .

— وعلام الاستغفار ، وماذا يمكن أن يكون فى قولى أو فى عملى من الكفر ؟ أنا أحاول التشييد والبناء لا التدمير ولا الفناء .

ولم أجد من الحكمة أن أدخل مع المخبول فى مناقشة ، أو أن أثير معه جدلا دينيا ، ففكرت برهة ثم قلت لنفسى : إن خير طريقة لمعاملته موافقته على كل ما يقوله ، « وأخذه على عقله » .

وأخذ الشيخ سيد يتأمل القطع الطينية الصغيرة المصطفة على الأرض وهز رأسه قائلا :

— صنع دنيا ليس بالشيء الهين ، إنه يحتاج إلى عمل شاق وجهد متواصل .

— بالطبع .. بالطبع . إنها دنيا . كان الله فى عونك .

— كما سأكون فى عون عبيدى .

— إن شاء الشيخ سيد .

وبدت الغبطة على وجه المعتوه وربت على كتفى قائلا :

ـــ أحسنت ، لقد بدأت تحسن التعبير فى الدنيا الجديدة .

وانحنى الرجل فرفع بيده بضع قطع طينية ذات أربع أرجل ، وأخذ يتأملها معجبا بها ثم قال :

ـــ لقد صنعت لهم كل شىء .. كل ما يحتاجونه .. من حيوانات ، وطير ، وحشرات .. حيوانات يأكلونها ، وحيوانات تأكلهم .. حشرات يفتكون بها .. وحشرات تفتك بهم .. لقد انتهيت من كل التوابع والحواشى . لقد أعددت لهم كل ما يلزمهم .. ولكن بقى إعدادهم هم .. بقيت المشكلة الكبرى ، مشكلة الخلق أنفسهم .

ونظرت إلى مئات القطع الطينية ذات الساقين ، و لم أدر أية مشكلة قد بقيت أمام الرجل ، بعد أن صنع كل هذا العدد من الخلق .. وماذا ينقص دنياه الطينية بعد هذا .. وقلت له متسائلا :

ـــ ماذا تعنى بالمشكلة الكبرى ، مشكلة الخلق أنفسهم . ألست قانعا بكل هذا الذى خلقت من العبيد ؟. إنى لأرى دنياك تامة كاملة يا شيخ سيد ، وليس عليك إلا أن تتركهم فى الأرض ، وتستريح على دكتك .. أعنى تستريح فى سمائك وتطل عليهم من آن لآخر من ثقوب الدكة .. وتطلب منهم أن يصلوا لك ويحمدوك .

ـــ لا .. لم ينته عملى بعد . إنى لم أصنع سوى الأجساد وهى مسألة كما ترى سهلة هينة .. ويمكن لأى إنسان عملها .. ولكن بقيت أمامى المشكلة الكبرى ، مشكلة صنع العقول ، وتوزيعها على هذه الأجساد المكدسة أمامك .. توزيع العقول يا سيدى على العبيد هى المشكلة الكبرى . لقد كان يمكننى ـــ التصلقة ـــ وكان يمكننى أن أتركهم بلا عقول . ولست أشك فى أن هذا كان خيرا لهم ولى ، فإنهم كانوا سيجعلون من دنياهم خيرا مما جعلنا من دنيانا .. يجعلون منها دنيا سهلة بسيطة خالية من التعقيد والارتباك .. دنيا شبيهة بدنيا الحيوان لا اختراعات فيها ، ولا ابتكارات ، ولا محاكم ، ولا قضاة ، ولا حروب ، ولا أى شىء من

هذه الأشياء المعقدة .. دنيا يجرى فيها كل شيء كما خلقه الخالق هينا لينا سهلا بسيطا .

كنت أستطيع — التصلقة — فأتركهم بلا عقول ، ولست أشك فى أن هذا سيريحنى ، كخالق ، راحة كبرى ، ولكننى لست بالخالق المكسال .. إنى أريد أن أخلق دنيا حقيقية ، بكل ما فيها من مشاكل ومساوئ ، ومصاعب .. أجل يا سيدى لابد من أن أوزع العقول على عبيدى ، لابد من أن أفسد دنياهم بها .. فما ابتلى إنسان بشر من عقله .

ونظرت إلى الرجل الذى سيوزع العقول ، وسألته فى لهجة كسوتها ما استطعت من الجد :

— وماذا يمنعك يا شيخ سيد من أن تفعل ؟

— لا شيء ... لا شيء أبدا .. إنى أحاول الآن مزجها وخلطها .. لا تظن أن صنع العقول .. عقول البشر .. بالشيء الهين .. إنها أشياء معقدة مربكة .

وتوقف الرجل عن الحديث ، ثم التفت إلى الصناديق التى وضع فيها الأسمنت والرمل والحمرة والجير والتراب الأسود ، وأشار إليها قائلا ببساطة :

— هذه هى المركبات .

— أية مركبات ؟

— مركبات العقول .

— هذه المونة هى مركبات عقول عبيدك ؟

— وماذا يدهشك فى هذا ؟

— أبدا .. أبدا .. إذا كان هذا هو مركب أجسادهم — وأشرت إلى عجينة الطين — فلا عجب أن يكون هذا هو مركب عقولهم .

وتأملت الرجل برهة فوجدت عليه سيما الهم والتفكير فسألته قائلا :

— وكيف تنوى خلط المركبات ؟

— ليست كلها بنسب واحدة ، فلابد لها من أن تتفاوت وإن كنت أرى أن

هناك مركبا لابد أن يوضع فيها جميعا فهو المركب الأساسى للعقل البشرى .

ومد يده فأخذ حفنة من صندوق الأسمنت وأعطانى منها قليلا ، فسألته قائلا :

— الأسمنت ؟.

وانفجر الرجل ضاحكا من قولى — أسمنت — وجذب أذنى إلى فمه وهمس قائلا :

— تعلم يا سيدى .. تعلم ، لا تضحك علينا البشر ، ماذا يقولون عليك إذا سمعوك تقول إن العقول البشرية تتكون من الأسمنت ؟.

— لا تؤاخذنى يا شيخ سيد ، إنى كما وصفتنى جاهل بفن الخلق والإنشاء ، ولقد بدا لى أن المركب يشبه مادة الأسمنت التى نستعملها عندنا فى البناء .. ماذا تسمونه عندكم معشر الخالقين ؟

— مركب السخف .

— مركب السخف ؟!!

— أجل يا سيدى ، مركب السخف هو المركب الأساسى فى العقل البشرى .

— إن الإنسان أسخف مخلوق على ظهر الأرض .. إن السخف أهم الأشياء التى يميز بها عن غيره من الحيوانات .

— أمر غريب :

— لا غرابة فيه ألبتة ، ولو رغبت فى أن أعدد لك أمثلة على سخف الإنسان لنفد العمر دون أن تنفد الأمثلة .. خذ مثلا بسيطا يحضرنى الآن :

أذكر ذات يوم أن أحد الحكام كان قد أتى من سفر وسيمر فى طريقه على حانوت المعلم عبد المعطى ، وطلب من المعلم عبد المعطى أن ينصب التعاليق والزينات ، ويحشد العمال من رجال وصبية للهتاف ، والصياح ، وأن يحضر الموسيقى ، والطبول ، ورفض المعلم عبد المعطى بادئ الأمر ، وأخبرهم أن له رخصة سلاح متأخرة فى المحافظة . فأحضروها له بعد نصف ساعة ... وقال إنه

يريد نقودا لتوزيعها على العمال فأعطوه النقود .

ومر الحاكم فى اليوم الموعود ، فكانت الزينات على أكملها .. والهتاف على أشده ..

قل بالله عليك يا سيدى من الذى خدع بالزينات والهتاف : الشعب الهاتف يعرف لم هتف ، والحاكم الذى تلقى الهتاف يعرف لم هتفوا له .. وخصوم الحاكم يعرفون جيدا كيف أجريت عملية الهتاف لأنهم سبقوه إليها فيما مضى ، إن لم يكونوا هم أنفسهم مبتكريها ، فلم كان التعب وعلام المشقة ؟.

هل هناك مخلوق غير الإنسان يمكن أن يرتكب مثل هذا السخف ؟ أو لو كانت عقولهم قد خلت من مركب السخف ، أكان يمكن لهم أن يفعلوا ما فعلوا ؟.

وأجبت لهم أن يفعلوا ما فعلوا ؟.

وأجبت الرجل لأول مرة إجابة مخلصة :

ــ لا أظن .

واستمر الرجل يعدد الأمثلة قائلا :

ــ قل يا سيدى ، هل يمكن مهما بلغ من غباء الحمير أن يجتمعوا ليتسلوا بمشاهدة بضعة حمير يقلدون أنفسهم فى النهيق والرقص ؟ طبعا لا ..

ومع ذلك فالإنسان لا يطربه شىء قدر أن يشاهد الإنسان يقلد نفسه .

هل هناك أدل على سخف البشر من احتشادهم فى المسارح ليشاهدوا بعضهم يقلد البعض الآخر .. أفلا يكفيهم أن يشاهدوا الأصل الذى يعيش بينهم فعلا .

هل هناك أدل على سخف الإنسان من أنه لا يكاد يبتكر اختراعا ليهيئ له الراحة والنعيم حتى يقلبه إلى وسيلة للتدمير والفناء ، بل إن الاختراعات نفسها من مبدئها ليست إلا مظهرا لسخفه ، ماذا كانت حاجته إلى الطيران والتحليق فى الجو ، ألكى يتنقل بسرعة ؟. وما حاجته إلى السرعة .. كله سخف فى سخف .

ولو أمكننا قياس مبلغ سعادة الإنسان بمبلغ سعادة أية فصيلة من فصائل الحيوان ، لرأينا الحيوان أسعد .. وحتى الشقاء الذى يصيب الحيوان لابد أن يكون مبعثه الإنسان .

يا سيدى إن مركب السخف هو المسيطر فى حياة الإنسان .

هل رأيت حيوانا يحتسى الخمر حتى يفقد وعيه ويحملوه كخرقة بالية ؟..

هل رأيت أسخف من مخلوق يمسك فى يده لفافة يحرق أحد أطرافها ، ويمتص من الطرف الآخر دخانا يملأ به صدره ، ثم يخبرك أنه يكره التدخين ولا يرى فيه أية فائدة ، ويتمنى أن يقلع عنه ولكنه لا يستطيع ؟

هل تريد أمثلة أخرى لسخف الإنسان ؟

— لا داعى ، إنى أعرفها كلها ... لأنى إنسان .

وانحنى الرجل فأخذ حفنة من الرمل وقال :

— أما هذا فمركب الرياء والنفاق والكذب ، ولابد أن أضيف منه « بعضشى » إلى كل عقل ، فهؤلاء البشر لابد لهم من هذا المركب ، حتى يمكنهم من أن يخدعوا أنفسهم ويخدع بعضهم بعضا . لابد لهم منه لكى يستروا شرورهم . .

وصمت الرجل فأشرت إلى الحمرة وسألته :

— وما هذا المركب ؟!..

— مركب الإجرام الذى لابد منه لبعض العقول ، حتى تنشأ المحاكم ، ويعين القضاة ، ووكلاء النيابة ، ويعيش المحامون وما يتبعهم من كتبة وعرضحالية .. كيف تكون حال الدنيا بدون هؤلاء ، ألا تدرى أنهم مبعث تسلية كبرى ؟ كيف يوجد هؤلاء إذا لم يتوفر مركب الإجرام ؟

— وهذا المركب (وأشرت إلى الجير) ماذا تسمونه يا ترى ؟..

— مركب الطيبة والخير .. لابد أن أضيف منه لبعض العقول ، حتى يحدث التوازن ، لابد فى الدنيا من هؤلاء الطيبين الخيرين ، فهم أشبه بالزيت الذى

يسهل حركة الماكينات ، ويلطف من حرارة احتكاكها ، وإلا احتـرقت وتحطمت .

ومد الرجل يده فى جيبه ، وأخرج علبة نشوق صغيرة وفتحها بحرص ، وهمس فى أذنى :

ــ هنا يا سيدى ، جراثيم الحب . سأبذر منها فى النهاية واحدة فى كل عقل . إنها هى سبب كل ما يحدث من عجائب وغرائب ، إنها هى التى تفعل فى الدنيا المستحيل ، إنها تبطل فعل ما تريد من المركبات ، إنها تحول مركب الإجرام إلى طيبة ، والطيبة إلى إجرام ، إنها تجعل الإنسان يفعل كل ما لا يخطر على بال إنسان .

وأقفل الرجل العلبة بحرص ، وأعادها إلى جيبه ، ثم أشار إلى التراب الأسود ، وقال فى مرارة :

أما هذا فهو مركب الخديعة والدهاء .. كم أكره هذا المركب ، وكم أود لو خلت منه دنياى .. ولكننى لا أستطيع . لابد لها أن تكون دنيا كغيرها .

هذا المركب الأسود سأوزعه على الكثير من العقول .. وسأخص بالتوزيع : الإناث من المخلوقات . سأخص المرأة بقدر كبير من المركب الأسود ، وسأسميها فى دنياى : الجنس الأسود ، لا الجنس اللطيف .

وأدهشنى رأى الرجل فى النساء ، وهممت بسؤاله عن سر سخطه عليهن ، ولكننى رأيته يشير إلى أحد الرفوف الذى وضع عليه أربعة تماثيل من الطين ، أحدها أكبر من الثلاثة الأخر وقال الرجل :

ــ من تظن هؤلاء ؟..

ــ أليسوا ضمن عبيدك ؟

فهز الرجل رأسه بالنفى وعدت أتساءل :

ــ من يكونون إذا ؟

ــ هذه التى تراها فى اليمين زوجتى ، لقد وهبت لها كل ما أملك فى الحياة ،

ولكن ميكروب الحب والمركب الأسود قاداها إلى خديعتى فهجرتنى ، وفرت مع رجل آخر .. أجل لقد سرقها .. رجل .. أما هؤلاء الثلاثة ، فهم أولادى ، لقد سرقوا هم الآخرون ، سرقهم عزرائيل ، الواحد تلو الآخر ، لقد استنجدت كثيرا ، وصرخت أنادى العسكرى ، حتى يضبط السارق ، ويعيد إلى ما سرق ، ولكن لم يجبنى أحد ، وجدت نفسى أخيرا أعيش فى الحياة وحيدا .

لقد سلبت منى الدنيا كل شىء ، بعد أن وهبت لى كل شىء .

وصمت الرجل ، وأطرق برأسه ، وخفت صوته ، وبدا كأنما يحدث نفسه :

— لم لا أصنع لنفسى دنيا أستعيد فيها ما فقدت . أستعيد زوجتى وأولادى .

ثم رفع رأسه وهزها قائلا :

— إذا كانت دنيا كم قد خذلتنى ، فلن تخذلنى دنياى .

ونظرت إلى الرف الذى صفت عليه التماثيل الأربعة ، فوجدت كتلة من الطين ، قد وضعت فى أقصى الرف ، وسألت الرجل قائلا :

— وما هذه ؟

— عقلى .. عقلى أنا .

— ولم لا تضعه فى رأسك ؟

— أوتظن أننى إذا وضعته فى رأسى ، أكنت أستطيع أن أفعل كل هذه السخافات .. وأن أتعب نفسى فى خلق هذه المخلوقات المتعبة ، وأحتمل كل مشاكل دنياهم .. يا لك من إنسان !.

فى جهنم

لقد أبصرت كل أنواع الناس .. أصحاب اللحى والمسابح والعمائم .. وأصحاب الذنوب والخطايا والجرائم .. كلهم قد زج بهم هنا .. فى جهنم .. لقد استطاعت ستر النفاق وحجب الكذب والرياء أن تستر شرور البعض فى الأرض ، فبدوا خيارا أبرارا . أما فى السماء فقد رفعت الحجب ، وأزيلت الستر .. فإذا كلهم أنجاس مناكيد .. وإذا كلهم زبائن جهنم !..

أنا عائد من جهنم .. جهنم الحمراء .. وسأحلق بكم فيها نصف ساعة .. لا تفزعوا .. نصف ساعة ليس بالشىء المثير .. فغدا سنقضى وتقضون فيها أطول من نصف ساعة .. قد نقضى نصف ساعة أو نصف قرن ... وقد يخلدنا ويخلدكم ما فعلناه وفعلتم من سيئات فى هذه الأرض . لا تدعوا الطيبة .. فما أظن أحدنا بخير من الآخر .. وما أظن أحدنا بمفلت من سوء المصير .. فشرور الدنيا قد لحقتنا ولحقتكم .

أيها الناس .. إن الحال من بعضه . فهل لكم فى زيارة قصيرة إلى جهنم الحمراء .. نصف ساعة فقط على سبيل التجربة ، ومن باب العلم بالشىء .. نصف ساعة .. لا أظن فيها كثير مشقة أو كبير عناء .

زحام شديد .. وأجساد محتشدة مكدسة .. ضجيج وعجيج ، وصخب وصياح .. كأننا فى زفة أو فى مولد .. وقد أخذت الكتل البشرية المتراصة تتحرك ببطء تجاه الباب الضخم المتسع الذى علق على أحد جوانبه سهم يشير إلى

الداخل ، وقد كتب عليه « دخول فقط » ، وبدا على مقربة منه باب آخر به سهم يشير إلى الخارج كتب عليه « خروج فقط » .. وبينهما علقت لافتة عريضة كتب عليها : « جهنم وبئس المصير » .

كانت الجماهير كلها محتشدة فى باب الدخول .. أما باب الخروج فقد بدا مقفرا خاليا .. وهبت علينا من الباب موجة من ريح حارة لافحة . تصبب على أثرها من أجسادنا العرق واختلط بالثرى المتصاعد من الأرض الهابط على أجسادنا .

وأحسست من فرط الازدحام والحر أنى على وشك الاختناق ، وكادت تخمد منى الأنفاس وتزهق الروح .

ونظرت إلى القوم المتزاحمين حولى وقلت فى نفسى : « أيها الحمقى .. أتزاحم حتى على جهنم ؟ أتكأكؤ حتى على السعير الذى سيشوى أجسادكم ؟! » .

ووجدت نفسى أتحرك مع الركب ، وعبرت الباب ، ودلفت إلى الداخل ، ومن ورائى أمواج الأجساد تندفع الموجة تلو الموجة .. واللوريات الشبيهة بلوريات المسجونين تلقى حمولتها البشرية وتعود فارغة لتأتى بغيرها .. وغيرها .

وخفت وطأة الزحام من حولى قليلا ، واستعدت القدرة على تحريك أعضائى ، وذهب عنى الذهول الذى تملكنى من رهبة الموقف ..

وبدأت أعود إلى نفسى بعض الشىء .. وتطلعت بعينى أستطلع المكان وأتبين من حولى من الناس .

مدهش !! ترى من ذهب إذًا إلى الجنة ؟.. إذا كان كل هؤلاء قد دفع بهم إلى جهنم ؟! وتذكرت وقتئذ قول عمر الخيام :

نبأنى إن غدا أهل الجنان   زمرة النساك أعداء الدنان
والأغانى أى خير تبغيان   بعد ذا فى جنة الخلد وما
ضمنت لا حبذا فيها المقام

وقلت لنفسي : إن الرجل كان مبالغا في حسن الظن بالناس .. وأنه لابد قد تبين خطأه عندما نزل مثلي بجهنم ورأى ما رأيت .

لقد رأيت حولي كل الناس . كلهم قد تساووا في المساوئ أعداء الدنان ومدمنيها .. النساك وغير النساك ، الأشرار والأخيار .. أو على الأصح من يبدون لنا على ظهر الأرض أخيارا .

لقد أبصرت كل أنواع الناس .. أصحاب اللحى والمسابح والعمائم .. وأصحاب الذنوب والخطايا والجرائم ... كلهم قد زج بهم هنا .. في جهنم .. لقد استطاعت ستر النفاق وحجب الكذب والرياء أن تستر شرور البعض في الأرض فبدوا خيارا أبرارا ، أما في السماء فقد رفعت الحجب وأزيلت الستر .. فإذا كلهم أنجاس مناكيد ، وإذا كلهم زبائن جهنم !!

واحسرتاه !.. لقد تركت الجنة خاوية على عروشها . لن أقول من رأيت .. لا داعي للفضائح وهتك الأسرار . لقد وجدتهم كلهم وكفى .. كلهم بلا استثناء .. كانوا هناك .

وأشار لي البعض بالتحية ، وتكبر على البعض وترفع ، كما كانوا يترفعون في الحياة .. إنهم لم يتبرأوا بعد من حمق الغرور وجنون الكبرياء .. لا بأس عليهم .. بعد لحظات سنصبح كلنا في اللهب سواء .. أو على الأصح .. شواء .. وتتساوى ، أو تستوى في النار « كوارعنا وكوارعهم » .. وضلوعنا وضلوعهم ، وأحشاؤنا وأحشاؤهم ، وسنصبح وإياهم لقمة سائغة للسعير !!

ونظرت حولي أفحص في المكان .. فذكرني بفرن الرمالي وحمام الثلاث .

ذكرني بفرن الرمالي ، وأفرانه الحمراء السوداء ، ذات الباطن المتأجج المضيء ، والظاهر الخامد الأسود المظلم .. وقد اصطفت على مدى البصر تئز في جوفها النيران وتصهل صهيل الخيل تنتظر الغذاء ، وقد وقف أمامها الزبانية بوجوههم المكشرة — الملحوسة — التي قد لوثها هباب الفرن وترابه . كانوا أشبه بالفرانين والفحامين . وكان العرق يتصبب من أجسادهم فيجرى إلى

الأرض سيولا ... كانت أيديهم لا تكف عن العمل لحظة فهى فى حركة دائمة .. يدفعون الوقود فى أجواف الأفران النهمة التى لا تشبع من جوع .. وكانوا من فرط جهدهم يلهثون كأنهم فى سباق .

ونظرت إليهم نظرة إشفاق ، وحمدت الله الذى لا يحمد على مكروه سواه .. إنى على الأقل خير من هؤلاء الزبانية المساكين الذين حكم عليهم بجهنم مؤبدا .

إنى سأمضى مدتى فى الجحيم ، ثم أعود بعدها إلى الجنة ، فألهو بالحور العين ، وأجرع بعد المهل ، شهدا وخمرا .

إنى سأعيش فى الجحيم بأمل .. يعيننى على احتمال سعيره ولهيبه .. أمل فى العودة إلى الجنة .. أما هؤلاء الزبانية فما أملهم ؟..

ماذا بعد النيران والأفران . ماذا بعد الأجساد المشوية . ماذا بعد كل هذا العرق المتصبب والجهد الضائع ؟

والتفت إلى أحدهم بوجهه المنهك المكدود ، فأحسست بالعطف عليه والرثاء له ، وتملكنى إحساس جارف بالرغبة فى معاونته .. لقد تعلمنا أن يعين بعضنا فى الأرض .. فما بالك فى السماء .. ماذا على لو عرضت على الزبنى التعس مساعدته .. فحللت محله فى العمل لحظات حتى يشم نفسه ويتمالك قواه ؟

ونظرت إلى المسكين وأشرت له بالتحية مبتسما ، وقلت له فى كرم وأريحية : « خلى عنك » !

و لم يفه الزبانى بكلمة ، بل بادلنى نظرة شاكرة ، وخلى عنه فعلا .

وتملكتنى الحيرة والدهشة ، فما كنت أتوقع أن — يخلى عنه — بمثل هذه السرعة ، إذ لم أكن — حين عرضت عليه المعاونة — بجاد فيها كل الجد .. فقد كنت متأكدا أنه لن يقبل .. وكان أقصى ما أنتظره منه أن يقول لى « عشت » ويستمر فى عمله ، ولكنى وجدت الرجل قد مد يده بالجاروف الضخم فسلمه إلى ، وجلس يلهث على حجر قريب .

وأمسكت بالجاروف حائرا .. إذ لم يكن من الشهامة أن أعيده إليه بعد أن

تطوعت لمساعدته .. و لم تكن لى دراية بفن الفرانة ، فما اشتغلت فرانا فى حياتى قط . فما بالكم وأنا أنقلب فى آخرتى فأضحى من الزبانية .. وأشتغل فرانا فى الفرن الأكبر ؟!.

ولمحت شيخ الزبانية مقبلا من بعيد بجسده الضخم ، ووجهه المخيف ، وقد أمسك فى يده بعصا غليظة ، وأخذ يستحث الزبانية على العمل ، وأسقط فى يدى ، وخشيت على نفسى وعلى الزبنى التعس من أن يكشف شيخ الزبانية ما حدث .. فأسرعت أغرف بيدى الخالية بعض هباب الفرن فألوث به وجهى وجسدى ، و لم تمض لحظة حتى كنت قد اتخذت موضعى أمام فوهة الفرن ، وانهمكت فى دفع الوقود فى باطنه مقلدا بقية الزبانية . ومر بى شيخ الزبانية وجاوزنى دون أن يكشف من أكون .

ومرت بى برهة وأنا منهمك فى عملى تمام الانهماك كأنى والزبانية سواء ، حتى بدأت أحس بالتعب ، وانتظرت أن يقوم الزبنى ، فيشكرنى على ما أسديت له ، ويتناول مجرفته ويقول لى كما قلت له من قبل : « خل عنك » ، ولكن الشقى لم يفعل .

وانتظرت فترة أخرى حتى أحسست أن عضلاتى قد بدأت تتصلب ، وأنى لم أعد أقوى على الحركة ، ونظرت خلفى لأستحثه بنظرة مستعطفة وأذكره بالمثل : « إن كان حبيبك عسل .. ماتلحسوش كله » . ولكنى بهت عندما لم أجد الزبنى فى مكانه .

يا للخبيث .. لقد تركنى وهرب .. لقد فر الوغد ، وتركنى أتعزى بقولنا الأرضى : « لا تصنع المعروف فى غير أهله » .

وأسندت على يدى المجرفة برهة .. حتى أتمالك أنفاسى وأستعيد قواى .. ولكنى سمعت صوت شيخ الزبانية يصيح بى ، فعدت أواصل العمل .

ومر الوقت وأنا أعمل كآلة ميكانيكية ، لا أكاد أخلد إلى الراحة برهة حتى يصيح بى الصوت اللعين فأعاود العمل .

وبدأت أفكر .. ما النهاية .. لقد كنت والله « مدبا » ، كأخيب ما يكون المدب .

ما لى أنا ولهذه الأريحية ، ما لى أنا بمساعدة الزبانية أو غير الزبانية . لم أتدخل فيما لا يعنينى ؟.. لِمَ لم أفعل كبقية خلق الله فأنتظر دورى فى الاحتراق والاكتواء والاستواء وفى شرب المهل .. وأكل الضريع الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع .. ثم أعود بعدها إلى الجنة فأخلد فيها أبدا .

ما لى أتطوع لأكون زبنيا فى الجحيم .. وإلى متى سأظل هكذا أدفع بالوقود فى جوف الفرن ؟! لقد جف ريقى .. والتهب جسدى وتصلبت ذراعى .. وكلت ساقى .

وإلى متى ستستمر الحال على هذا المنوال .. هل يمكن أن تستمر إلى مالا نهاية ؟. هل يمكن أن أكون قد حكمت على نفسى بأن أكون « زبنيا مؤبدا » ؟ هل يمكن أن أستمر هكذا بلا أمل إلى الجنة أو فى حورها وولدانها ؟

وتملكنى الحنق واليأس .. وقلبت لنفسى : إنى لابد أن أفعل شيئا .. فإن من الجنون أن أقبل هذا المآل .. لابد أن أفعل شيئا .. فأى شىء خير مما أنا فيه ؟

ونظرت إلى الزبنى الذى يشتغل بجوارى فوجدته منهمكا فى عمله .. فحاولت أن أوجه نظره إلى وهمست « هش » . ولكنه لم يجب . فعدت أهمس ثانية : « هش » .

والتفت إلى الزبنى بوجهه الأغبر الأسود ، وقال وهو مستمر فى عمله :

— مالك ؟

فسألته فى صوت خفيض :

— إلى متى يستمر العمل عندكم هنا ؟

— إلى متى ؟.. ماذا تعنى بمتى ؟.. ليس عندنا هنا متى ، متى هذه تتعلق بالزمن ، فإذا لم يعد هناك زمن ، فلا لزوم لمتى .

وكرهت من الزبنى هذه الفلسفة الفارغة وعدت أسأله :

— أليس عندكم عطلة .. أليس عندكم وقت للراحة ؟

— اشتغل أيها المكسال .. ليس فى جهنم راحة ، ولا عطلة ، ومن يقوم بحرق هؤلاء الخنازير ؟.

وهممت بأن أرد على الزبنى إهانته . فقد تملكنى الحنق وأنا أراه يصفنا بالخنازير ، ولكنى كتمت غضبى وعدت أسأله :

— أليس عندكم مصلحة عمل .. لترعى حقوقكم ؟

— تقصد مفسدة عمل ، لإفساد العمل وتدليل العمال ؟. لا . ليس عندنا هذه المصلحة التى تقول عنها . الظاهر أنك زبنى مستجد .

— هذا خطأ بين .. إن حقوقكم ضائعة .. إنكم فئة تعسة .. إنكم ...

ولم أتم قولى فقد سمعت صفيرا شديدا يصم الآذان ، ورأيت بعض الزبانية يقسمون الناس جماعات تصطف أمام الأفران .. فعلمت أن — الشغل الجد — قد بدأ .. وأننا — باعتبار أننى من الزبانية لا من الناس — على وشك أن نلقى بهؤلاء الخنازير — على حد قول جارى — إلى سقر وبئس المقر .

وأصابتنى إلى ذاك رجفة ... وتملكنى الجزع ... لقد كنت فى دنياى رجلا وديعا مسالما . ما حاولت قط أن أحرق حشرة ضئيلة ، فما بالكم وأنا أبصر أمامى فوجا من البشر — مهما قيل عن آثامهم وشرورهم فى نظرى بشر — ينتظرون دورهم مرتاعين مذعورين .. لكى ألقى بهم فى جوف الفرن حتى تشوى وجوههم وتُصهر أمعاؤهم .

أنا أفعل هذا ؟. لقد قلت من قبل ؛ إنى لم أشتغل فرانا . ولكنى مع ذلك تحاملت على نفسى ، حتى استطعت أن أقلد الزبانية فى إلقاء الوقود إلى جوف الفرن .. أما الآن ، فقد أضحت المسألة جد عسيرة .. جد عويصة .. لقد كان على أن أشتغل كبابجى .. كان على أن أصنع من هؤلاء الخراف الآدمية : نيفة وكباب ... وكفتة .. وطرب .. لا .. هذا شىء مستحيل ، هذا شىء فوق الطاقة . إنى لا أجسر .. إنى لا أستطيع .

من كان يتصور هذا ؟.. أنا الرجل الطيب الهادئ .. الذى لم يزد ما فعلته من جرم فى حياتى على بضع مرات من « البصبصة » أنقلب فى آخرتى مجرما أثيما . وقاتلا شريرا .. أنا الذى لم أحرق فى حياتى حتى سيجارة ، أحرق فى آخرتى كل هذا القدر من البشر ؟!

وعصفت بنفسى الأوهام ، وبدأت أتصور « طشطشة » الأجساد داخل الفرن ورائحة شياط الجلود المحترقة ، وعويل البشر وصراخهم ، وتوسلاتهم إلى واستعطافهم .. وتخيلت أنى لابد مشفق عليهم ، نادم على ما فعلت بهم .. وأننى لابد مسرع إلى أقرب حنفية مياه لكي أملأ منها بالصفيحة فأطفئ النار المتأججة فى الفرن وأنقذ الأجساد المحترقة .

وقطع على الأوهام صوت رنين صادر من خلفى ، رنين أشبه برنين طاسات العرقسوس ، وتملكتنى الدهشة ، وعجبت فى نفسى من أن يسمحوا ببيع العرقسوس فى جهنم .. وقلت إنها لابد أن تكون طريقة للترفيه .. والتفت خلفى فقد كنت أنا نفسى فى أشد الحاجة إلى شيء أبل به ريقى . وصممت أن أتناول كوبا من العرقسوس رغم كرهى له .

ورأيت خلفى أحد الزبانية وقد حمل على ظهره قربة كبيرة وأمسك بطاستين نحاسيتين يقرع إحداهما بالأخرى .. وأصابنى الاشمئزاز من القربة .. وقلت ما ضرهم لو وضعوا العرقسوس فى إبريق نحاسى لطيف بدل هذه القربة القذرة السوداء .. ولكن شدة الظمأ جعلتنى أتجاوز عن منظر القربة وأهتف بصاحبنا :

— اعطنى كوبا .

ونظر إلى الزبنى بائع العرقسوس فى دهش بالغ كأنه ينظر إلى مخبول وقال زاجرا :

— أيها الأحمق .. هذا للزبائن فقط !!.

وتملكنى الغيظ .. وعجبت من أن يحرم الزبانية .. حتى مما يتمتع به المذنبون ، وعدت أسأل الرجل :

— ولم يحرم علينا العرقسوس ؟..

— عرقسوس !! .. أيها الغبى !

وقلت متداركا خطئى :

— أقصد الخروب .

— كفى هزلا .. فليس عندى من الوقت ما أضيعه معك .. دعنى أمر حتى أوزع عليهم الحميم يصبونه فى أجوافهم .

— الحميم ؟!!.. يا ساتر يا رب .

لشد ما كنت حسن الظن بأهل جهنم .. كيف دفع بى الغباء إلى الاعتقاد أن الرجل يحمل عرقسوسا .. بدل الحميم والمهل ؟

ورأيت الرجل يندفع بقربته بين الصفوف يصب الماء المغلى فى الطاسات ويدفعها إلى الناس لكى يلهبوا بها أجوافهم ويحرقوا أحشاءهم .

وتلفت حولى فوجدت الزبانية كلهم قد بدأوا العمل ، وسمعت العويل يتصاعد من حولى حتى ليكاد يصم الآذان . وبين أصوات العويل يتصاعد رنين طاسات حاملى المهل يجوسون بين الصفوف .

ولم يكن هناك من لم يبدأ عمله سواى ... ولمحت شيخ الزبانية مقبلا من بعيد ... فلم أجد بدا من أن ألم أطراف شجاعتى وأقدم على العمل ، وأبدأ بحرق نصيبى من البشر ... إنهم محرقون ... محرقون ... فلو لم أحرقهم أنا .. لحرقهم ذلك الزبنى الوغد المكسال ... الذى حاولت أن أصنع فيه معروفا ، فتركنى وفر !!.

ورفعت عينى إلى صفوف البشر المتراصة أمامى وأخذت أستعرضها بنظرة سريعة عابرة .. ووقع بصرى على أولها .. فتملكنى العجب وفغرت من الدهش فمى ، وحاولت جهدى أن أكتم صيحة كادت تفلت من شفتى ، وهتفت فى صوت خافت مبحوح :

— أنت ؟!!

أجل والله لقد كانت هى .. هى .. هى .. كآخر عهدى بها فى دنيانا ، ما تبدل فيها شيء ولا تغير .. اللهم إلا شيء واحد ، وهو أنها نضت عنها ثيابها التى كانت تستر بها جسدها ، ووقفت مجردة حتى من ذلك المايوه الرقيق الذى كانت تضم به صدرها وتشد ردفيها .

ما شاء الله ... ماذا أتى بك فى جهنم يا ساحرة الدنيا وحورية الجنان !!

هاربة ولاشك من الفردوس ... فما مقام مثلك إلا بين النخيل والأعناب .. إن منزلك يا آنسة فى جنات النعيم تستقين من رحيق مختوم ... لا فى جحيم من سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم .

وأسندت المجرفة على الأرض واتكأت عليها ووقفت أتأملها .. فما كنت أستطيع أن أفعل سوى ذلك .. لتصهل النيران وتئز .. وليصرخ شيخ الزبانية ويضج .. ولينتظر المذنبون فى أماكنهم .. فما من شيء يستطيع أن يحرمنى أن أمتع منها بصرى ، وأشبع من مرآها نهم عينى .

ماذا أخشى الآن .. لقد خشيت فيما مضى حساب الدنيا وعقاب الآخرة . أما الآن ، فإنى ميت .. وفى جهنم .. وخالد فيها أبدا .. ماذا يمكن أن أخشى بعد ذلك . ماذا يمكن أن يصيبنى من مكروه شر مما أنا فيه ؟ قيل « ضربوا الأعور على عينه .. قال خسرانه خسرانه » فما بالكم وأنا بالنسبة لهذا الأعور الذى قيل فيه المثل : أعمى .

نظرت إلى صاحبتنا وأنا متكيء على المجرفة وقد ثنيت جسدى ولففت ساقا بساق .. متخذا بوزا من أرشق البوزات .. تماما كما فعل كبار المبصبصاتية فى ميدان العتبة وناصية عماد الدين ، متناسيا ــ كما يفعل كل إنسان ــ ما أنا فيه من قبح المنظر .. متناسيا ذلك الهباب الذى لوث جسدى وشوه وجهى ... متناسيا ذلك الذى فى يدى كأنى زبال أو كناس .. متناسيا ذلك الدور الفظيع الذى أقوم به ، والشخصية المرعبة التى قد تقمصتها .

وقفت أتأمل صاحبتنا .. أو الملاك الكريم .. كما كنت وغيرى من البلهاء

ندعوها فى دنيانا ، وقد تهدل شعرها الذهبى على كتفيها العاريتين ، وبرقت عيناها الصافيتان ، واحمرت وجنتاها من فرط الحرارة ، وضمت شفتيها العذبتين . وبدا جسدها وقد لفحه الصهد .. وانعكست عليه أشعة النيران الحمراء المنبعثة من جوف الفرن ، آية فى الروعة والجمال .. صدر بارز فى تحد .. وخصر ضيق فى استواء .. وساقان مستقيمتان فى امتلاء ، وبشرة ناعمة فى نقاء وصفاء .

ومضت برهة وأنا أتأملها مأخوذا مشدوها .. متناسيا كل من حولى .. حتى سمعت صوت شيخ الزبانية يصيح من أقصى المكان ، فأفقت لنفسى وتذكرت ما أنا فيه .. وما أوشك أن أفعله . فسرت فى جسدى رعدة ، وتملكتنى حيرة شديدة .

من يتصور أنى أستطيع أن أمسك بيدى هذا الجسد الغض البض .. فأدفع به إلى السعير ليصبح فحمة سوداء ؟!

شلت يدى قبل أن تفعل الفعلة النكراء ، ومزق جسدى إربا إربا .. قبل أن أرتكب الجريمة الشنعاء .. إن قلبى لم يتحجر .... وكبدى لم يغلظ .. وإن عينى مازال فيها نظر .

ووجدت الحسناء تنظر إلى فى ذعر وفزع .. كأنها تنظر إلى نفر من الجن ، أو شيطان رجيم .. فعلمت أنها لم تعرفنى بعد .. ولم أجد بدا من أن أفعل شيئا أبعث به الطمأنينة إلى قلبها .. فابتسمت ابتسامة .. وضعت فيها ما استطعت من الرقة والعطف .. التى لم تكن تتناسب قط مع ما أنا فيه من قسوة وغلظة ، ولست أشك أن الابتسامة قد بدت للحسناء كأنها تكشيرة عن الأنياب .. فقد ازداد بها الفزع وجحظت عيناها .

وكرهت أن أكون السبب فى فزعها .. فأسرعت أقول لها هامسا :

— أهلا .. أهلا .

ولم تعرفنى المرأة رغم قولى هذا ، فلقد خيل إليها أنه قول ساخر شامت ،

و لم أدرك كيف أستطيع طمأنتها دون أن أثير الشبهات حولى وخاصة وأنا أرى العيون الفزعة تحملق فى .

وكسوت وجهى مظهر القسوة واقتربت منها فجذبتها من ذراعها بشدة ، ثم همست فى صوت خافت لم يسمعه غيرها :

— لا تخافى .. أنا محسوبك « فلان » .

ونظرت إلى فى دهشة بالغة وهمست بقولها :

— ماذا أتى بك إلى هنا ؟

— خير لك أن تتجاهلينى .. حتى لا يشك أحد فى أمرنا .

ثم رفعت صوتى قائلا :

— أيتها اللعينة اقتربى .. ماذا فعلت فى دنياك ؟

وأجابتنى مستعطفة :

— لا شىء أبدا .. لا شىء أكثر من عبث بالقلوب وبالجيوب .. واستثمار لما وهبت من أسهم الجمال وسندات الفتنة .. كنت أبيع سحرى لتجار العشق فى سوق الجمال بالربح المركب .. هذا كل ما فعلت .

وأهاج قولها فى نفسى كامن الشجن .. ونكأ فى قلبى جرحا ظننته قد اندمل .. وتذكرت نفسى تاجرا من تجار العشق خاسرا مغبونا .. أبيع خفقات قلبى ونبضاته ولوعاته وأناته .. لقاء لحظات من الخديعة والغش .. تذكرت نفسى ملهاة فى يد الحسناء .. تبيعنى النفاق بالإخلاص ، وتجزينى عن الحب آلاما وأوجاعا .. كم أسهدتنى وكم أرقتنى ؟ كم تركت فى الفؤاد حرقة ، وفى القلب جوى .. كم دفنت فى حشاى سهامها ورماحها .. كم كانت متعتها خادعة زائلة .. وكان نعيمها براقا سرابيا ، سريع الأفول .. كانت كما نقول : بائعة للجمال فى سوق العشش .. كان يدفعنا إليها وقتذاك جوع القلب وظمأ الفؤاد .. لعنة الله عليها .. لقد مرغنا الحب عند أقدامها ، وأذلنا الهوى على أبوابها .

ونظرت إلى المرأة مرة أخرى فخيل إلى أنى أكاد أستشف من وراء بياض ظاهرها ، سخومة باطنها .. وإنى أكاد أبصر وراء نعومة جلدها أشواك الخديعة وجراثيم الخيانة . ونظرت إلى النيران المتأججة فى باطن الفرن وقلت لنفسى : إن هذه المرأة فى أشد الحاجة إلى تلك النيران لتصهر بها نفسها الملوثة وتحرق جراثيم الشر المتكتلة فى جوفها .. لابد لها من النيران لكى تزيل شوائبها .. وتجعل باطنها كظاهرها .

وهمست فى أذن المرأة :

— إيه يا تاجرة الهوى .. وبائعة الوجه الجميل والجسد الرائع .. لقد عبثت بنا فيما مضى .. هل تسمحين بأن نجد معك الآن .. لقد لوثتنا فى الدنيا ، وسنطهرك فى الآخرة ، أحرقتنا بنيران الإثم .. وسنصهرك فى نيران الاستغفار ، لا تعتبى علينا .

خرجت موازينكم بالسواء   شر بشر فلا معتبه

وأمسكن بحسناء الوجه .. شوهاء القلب .. بيضاء الجسد .. سوداء النفس .. فدفعت بها دفعة قوية ألقت بها فى جوف السعير قائلا لها :

— لا بأس عليك .. ستشوه النيران جسدك .. وتجمل قلبك .. سيسود اللهب جسدك .. ويبيض نفسك . إنك لاشك الرابحة .

ونظرت إلى الذى يليها .. فتملكتنى بعض الخشية .. ورأيتنى أقترب منه باحترام ، ولم أتمالك نفسى من القول :

— أهلا وسهلا .. سعادة الباشا :

لقد وجدته فلان باشا ، الرجل العظيم القدر ، صاحب الحول والطول ، المحسن الكبير الذى لم تخل الصحف مرة واحدة من تبرعاته التى كان يغدقها على مشروعات الخير .. الرجل الذى شيد الجامع المعروف باسمه ، والذى منح من أجله رتبة الباشوية .. هذا الرجل الطيب الكريم .. ماذا أتى به إلى هنا ؟!.

ولم يجب الرجل على تحيتى ، فقد كان فى حالة من الذعر مخيفة .. وكان فكاه

يصطكان وركبتاه ترتجفان ، ووجدته يتوسل إلى :

ـــ أنا فى عرضك ؟.

ـــ العفو .. يا سعادة الباشا .. ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

ـــ لا شيء .. لا شيء أبدا .. لقد أكلت أموال اليتامى الذين وليت أمرهم ، وتركتهم يتضورون جوعا ، هذا كل ما فعلت !

ـــ لا .. بسيطة .

ونظرت إلى الرجل .. ووجدت سابق احترامى له تبدد .. ورهبتى منه قد قلبت ازدراء واحتقارا .. ونظرت إلى بطنه المنتفخ فخيل إلى أنى أبصر فيه أكداسا من أموال اليتامى .. الذين أثرى على حسابهم .. فأتخم شبعا وتضوروا جوعا .. واكتسى الخز والديباج ، وباتوا حفاة عراة .. إنى أبصر فى أحشائه النفاق .. الذى جعله يبنى بيت الله .. لا لوجه الله ، بل لوجه الشهرة .. لقد جوزى على صنيعه بالرتبة ، ربما تكون الرتبة قد أفادته فى الدنيا .. دنيا الحمقى والبلهاء .. أما هنا .. فلا أظن الرتبة تجديه نفعا .. إن الذى يجديه نفعا ، هو هـذا السعير الملتهب .. الذى يستطيع أن يصهر أموال اليتامى المكدسة فى معدته فيجعله يتقايؤها ويذهب عنه ذلك ـــ الكرش ـــ المنتفخ ، فيصبح خفيفا لطيفا .. ويزيل كذلك سخائم الرياء الملتصق بأحشائه .. فيشفيه من ذلك المغص الذى يمزق أمعاءه .

وأمسكت بالرجل فدفعته إلى النار .. ونظرت إلى الذى بعده :

ـــ سبحان الله .. حتى أنت هنا .. لعنة الله عليهم .. لابد أنهم قد أحضروك إلى جهنم خطأ ... لقد كان عليهم أن يرعوا على الأقل حرمة لحيتك المسترسلة .. أنت رجل لاشك طيب ورع .. فطالما رأيتك تقيم الصلاة ، وتتنقل بين المساجد لتعظ الناس وترشدهم .. كيف أتيت إلى هنا ؟!

وهز الرجل رأسه ببطء وقال فى تؤدة :

ـــ كنت أتظاهر .. كنت أقيم الصلاة ، وارتكب الفحشاء والمنكر ، كنت

أعظ الناس بألا يكذبوا ، وكنت شيخ الكاذبين ... كنت أحضهم على الإحسان وفعل الخير ، وما أحسنت فى حياتى مرة ولا فعلت خيرا .. لقد كانت المسألة — أكل عيش — ... كانت مهنة وحرفة .. لقد كنت مجرد ممثل .

— لا بأس عليك .. سأسهل لك هنا مسألة — أكل العيش — ولكنه سيكون « عيش مقمر .. » ، وتستطيع كذلك أن تستمر فى التمثيل .. ولكن احذر من أن تصيب النيران لحيتك .. تفضل يا سيدى .. تفضل .

ثم دفعت به بأقصى قواى ، إلى جوف اللهب .. وبعد لحظة وصل إلى أنفى رائحة شياط لحيته .. وسمعت صوته يعظ من سبقه إلى داخل النار بالتقوى والورع .. إنه مستمر فى تمثيله .

وتلفت حولى فوجدت أنى أسير فى العمل ببطء وأن هذه الدردشة — التى أدردشها مع الزبائن — قد ضيعت وقتى .. فشمرت عن ساعدى ، وأقبلت على العمل فى صمت ، ولم أجد هناك معنى للسؤال بعد ذلك ، فما أظن هناك أحدا منهم إلا ويستحق جهنم ، بل شرا من جهنم إذا كان هناك شر منها .

وهكذا أقبلت على الآثمين ، أدفع بالواحد تلو الآخر حتى أتيت علهم جميعا ، ووقفت أستريح برهة فقد أحسست أنى على وشك أن يغشى على من فرط التعب .. وظننت أن لابد سنأخذ فترة راحة .. ولكنى وجدت الزبنى الذى بجوارى قد انتهى من جماعته ، وعاد ليدفع بالوقود إلى الفرن . فهمست أقول وقد تملكنى اليأس : « ألم يحن الوقت بعد للراحة ؟ لقد انتهينا من حرق الخنازير » .

وأجابنى الزبنى : « إننا لا ننتهى أبدا .. إنهم سيغيرون جلودهم ثم يعودون إلينا » .

وهنا فاض بى ، وأخذت أبحث عن طريقة لتنقذنى مما أنا فيه ، ولم أجد خيرا من أن أبث بين الزبانية روح التمرد والثورة ، وأخذت أصب فى أذن جارى كلمات التحريض وهو ينقلها إلى جاره ، وجاره ، وهكذا لم تمض فترة من الوقت حتى كانت قد سرت بين الزبانية موجة من التذمر والتمرد .

ووجدت الزبنى الذى بجوارى يهمس فى أذنى :

— إن الرفاق يسألوننى .. ما الحل .. ما الطريقة التى يأخذون بها حقوقهم ؟

وفكرت برهة ، وتذكرت ما قام به أهل الأرض .. ثم همست إليه :

— الطريقة بسيطة جدا .. الإضراب .

— إضراب !. ماذا تعنى ؟

— هذه خير طريقة اكتشفها أهل الأرض فى الحصول على مطالبهم ، يضربون عن العمل .. فيفزع أولو الأمر .. ويعطونهم فى لحظات ما أبوه عليهم فى سنوات .. إنها طريقة سحرية عجيبة .

— ولكن من يقوم بإشعال النيران وحرق الآدميين . إن جهنم ستتعطل إذا فعلنا ذلك .

— يا سيدى لتتعطل ، بناقص حرق يوم أو يومين .. على أية حال لن يحدث من إضرابكم ضرر ، وهل يكون إضرابكم شرا من إضراب التومرجية ، والطباخين ، الذين تركوا المرضى يتضورون جوعا ويموتون إهمالا .. أم شرا من غيرهم وغيرهم ؟

وسرعان ما سرت الفكرة بين الزبانية وأخذنا ننسج فى صمت خيوط المؤامرة ، واتفقنا على إشارة بيننا لبدء الإضراب .

بدأ إضراب الزبانية فى جهنم وألقوا بالمجاريف ، وكفوا عن إلقاء الوقود ، وهموا بالتجمع .. عندما سرت فى الجحيم ريح رطبة باردة ، وعندما اتضح أن أحد العلماء من زبائن جهنم قد ركب آلة تكييف هواء .

الجو الآن منعش ، والزبانية فى حالة إضراب عام .

والآدميون قد جلسوا يسلون أنفسهم بالسيجة ولعب الطاولة .

وفجأة أقبل شيخ الزبانية وهو يضج ويصيح ، ووراءه ، عزرائيل وصبيانه ، بعد أن أمرهم أن يعودوا بالآدميين إلى الأرض .. حتى تستقر الحالة فى الجحيم ،

ويعود الزبانية إلى العمل .

وهنا سمعت صياحا بين الآدميين أنهم لا يودون العودة إلى الأرض .. إن الجحيم خير من الأرض .

ووقف رجل يستعطف شيخ الزبانية قائلا :

— ارحمنى يا سيدى .. لا تعد بى إلى الأرض ، جحيمكم خير منها مائة مرة .. إنى صاعد من هيروشيما ، المكان الذى ألقوا فيه قنبلتهم الذرية . وإن البشر الحمقى على وشك أن يخوضوا غمار حرب تجعل الأرض كلها هيروشيما أخرى ، إن جحيمكم بالنسبة إلى ما كنت فيه جنة عالية .. إن شرور الأرض شر من سعيركم .

ولكن لم يكن هناك مفر من عودتنا ، فعدنا إلى الأرض .

أيها الناس .. ارحموا أنفسكم ، فما أظن هناك شرا من هذا الجحيم الذى نعيش فيه !.

فى الجنة

هذا هو الفردوس ، مكان المؤمنين والصالحين والأنبياء . تبارك الخلاق ! والله إنه لشيء يستحق أن يزهد الإنسان من أجله فى الدنيا .. وأن يرعوى ويكبح جماح نفسه الأمارة بالسوء .. هذا هو النعيم .. لعن الله الدنيا بمباذلها ومساوئها .

غفل عنى حارسى برهة يتحدث مع صاحب له وتلفت حولى فقرأت لافتة على باب فخم أنيق « وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » ، وحملقت بعينى فى اللافتة أعيد قراءتها مرارا وتكرارا ، وقلت لنفسى فى دهش وعجب :

ــ إذا فهذه هى الجنة .. ليس بينى وبينها ألا فركة كعب ، خطوة واحدة .

ونظرت إلى حارسى فإذا به ما زال منهمكا فى الحديث مع صاحبه ، ونظرت إلى الباب فوجدته غير محكم الغلق ، وتلفت يمنة ويسرة أبحث بعينى عن رشوان فلم أجد له أثرا . وساورنى خاطر عجيب ، هذه فرصة الحياة الأخرى . فرصة لا أظنها قد أتيحت لبشر سواى .

باب الجنة يكاد يستدعينى : « هيا أيها الأحمق ، لا تتردد » .

وأخذت أفكر بسرعة ، فقد أحسست أنى أمام لحظة حاسمة أستطيع أن أحول فيها مصيرى فى الدار الأخرى .

ماذا أخشى ؟ ماذا يحدث لو هربت من حارسى ووليت الفرار فى ربوع

الجنة ، واختفيت بين نخيلها وأعنابها ، وحورها وولدانها ؟!

سيكتشف الحارس فرارى ، وسيبحث عنى هنا وهناك ، ويرتعد خوفا من رؤسائه ، خشية أن يتهم بالإهمال فى الخدمة ويفكر برهة ، ثم يهبط إلى الأرض فيحضر أقرب إنسان يصادفه ، ويصعد به إلى السماء بدلا منى ، ويتناسى كل ما كان من أمرى .

أما رضوان ، فلا أظن أنه سيشعر بى ، أو يكشف أن أهل الجنة قد زادوا واحدا ، ولو عرف فسيغض الطرف ، إذ ليس من مصلحته فى شىء ، أن يثير ضجيجا حولى وحول نفسه .

ونظرت إلى حارسى للمرة الأخيرة ، وأخذت أتسلل بخطوات جانبية على أطراف أصابعى ، وأنا أراقبه ، وهو يتحدث مع صاحبه ، وبعد برهة قادتنى خطواتى إلى الباب نفسه .. فاستدرت فجأة ووليت وجهى إلى الداخل وأطلقت ساقى للريح .

وأخذت أعدو وأعدو .. مندفعا كالزوبعة ، وكأن بساقى مسا من الشيطان ، وهب على وجهى نسيم عليل بعث فى جسدى نشاطا غريبا وساعدنى على الانطلاق .

ولست أدرى كم من الزمن عدوت حتى أحسست أن جهدى قد نفد !. وأننى إن لم أقف فسأخر صريعا . فبدأت أتمهل . ثم انطرحت على الأرض خائر القوى مبهور الأنفاس .

ومضت فترة قبل أن أعود إلى نفسى ، وجلست متربعا فى مكانى أنعم بالبصر فيما حولى ، وأحدث نفسى .

إذن فهذا هو الفردوس .. مكان المؤمنين والصالحين والأتقياء .. تبارك الخلاق . والله إنه لشىء يستحق أن يزهد الإنسان من أجله فى الدنيا ، وأن يرعوى ويكبح جماح نفسه الأمارة بالسوء . هذا هو النعيم .. لعن الله الدنيا بمباذلها ومساوئها .

وكانت جلستى على شاطئ نهر لجينى فياض ، كأنه بلور سائل ، لا تشوب صفوه شائبة ، ولا يعكر من نقائه كدر . ورأيت الشاطئ يمتد أمامى فى خضرة ناضرة كأنها بساط سندسى تكاثفت على جنباته الأشجار المحملة بالثمار .

وأغرانى منظر النهر السيال بأن أغرق فيه جسدى .. فخلعت ثيابى واندفعت أعدو متوثبا . وقفزت إلى النهر وبى فرحة الأطفال .

أوه !! ما هذا..؟ أى أحمق غبى أنا ..؟ وما هذه اللزوجة التى أحسها .. كيف لم أفكر فى هذا ؟.

من يصدق أنى قد ألقيت بجسدى فى نهر من العسل ؟. ماذا أصابنى حتى نسيت أنى فى الجنة .. وأن أنهارها من عسل مصفى .. أما كان يجب على أن أحاول تذوق ما فى النهر قبل أن أندفع فيه بجسدى ؟.

وأخذت أتحرك بمشقة حتى وصلت إلى الشاطئ .

ولتتصوروا حال إنسان يقف عارى الجسد يقطر العسل من كيعانه وأصابعه وأنفه وذقنه ، كأنه قفص من البلح الأمهات .

وتلفت حولى أبحث عن قليل من الماء أزيل به الشهد من جسدى .. فلم أجد ، وخطر لى أن أحاول لعق العسل بلسانى .. كما تفعل القطط عندما تحاول تنظيف جسدها ، وفعلا بدأت أمس أصابعى ، وألحس يدى ، ولكنى شبعت قبل أن أصل إلى الرسغين .

ولم أجد أمامى طريقة تخفف عنى إلا التمرغ على البساط السندسى ، ومسح جسدى فى حشائش الأرض ، وبدأت أتمرغ تماما كما يتمرغ الحصان الاسترالى .

ونجحت هذه الطريقة بعض الشىء ، ولكننى ما زلت أحس باللزوجة فى كل أجزاء جسدى ، وحملت ملابسى ، وقلت أجول جولة عساى أجد ماء أغتسل فيه .

وأشرفت بعد برهة على نهر عريض براق ، و لم أحاول بالطبع أن أرتكب الحماقة التى ارتكبتها فى المرة السابقة ، خشية أن يكون هو الآخر من عسل ، بل تقدمت إلى النهر ، ومددت أصابعى أتحسسه .. فلم أجد فيه لزوجة فاطمأن خاطرى . وقفزت إليه .

و لم أجد صعوبة فى تحريك أعضائى .. ولكننى شممت رائحة عجيبة .. شديدة الشبه برائحة « الجونى ووكر » و « الديوارس » معتقة .. وأحسست بخيبة شديدة .. فقد كان يجب على أن أعرف أن فى الجنة أيضا أنهار من خمر لذة للشاربين ، وأسرعت بالخروج ، فقد كنت لا أكره شيئا فى حياتى سوى الخمر ورائحة الخمر .

واندفعت إلى الشاطئ ، ولكننى تعثرت وغطست .. وشرقت ، ودخلت فى جوفى كمية لا بأس بها من الخمر المعتقة . وأخيرا تمكنت من الخروج إلى الشاطئ وبى سخط شديد وقد احمر وجهى ، وأخذت أسعل سعالا مستمرا .

وجففت الخمر من جسدى بطرف جلبابى .

ومضت فترة أحسست فيها بشىء من الهدوء والثقل فى رأسى وتملكنى شعور بأننى قد أصبحت على حد قولهم « مبسوط شوية » ، وقمت من مكانى ورغبتى فى الغناء قوية وبدأت الغناء : « آه لو كنت معى ! » .

ولست أدرى كم من الزمن قد سرت على هذه الحال .. فقد كنت فى انشراح تام .

وفجأة .. وجدت أمامى منظرا .. سمرنى فى مكانى .. وأصاب رأسى بدوار ، وجعل فمى يغفر ، وعينى تحملقان .

لقد أبصرت أمامى نهرا يفيض باللبن .. و لم يكن هذا بالطبع هو ما أثار دهشى .. فقد كنت أتوقع أن أرى كل أنواع الأنهار ما دمت فى الجنة .. ولكن الذى أذهلنى .. هو ما رأيته بجوار النهر .

لقد رأيت الحور العين !!

ولا مراء فى أنى كنت أعرف أن فى الجنة حورا .. ولكن الذى لم أكن أعرفه .. هى تلك الفتنة التى أبصرتها فيهن .. ثم .. أن أراهن رأى العين .. عاريات مجردات لا تسترهن ورقة التوت أو التين التى كانت تستر أم البشر حواء .

ووقفت حائرا مشدوها ، لا أستطيع أن آتى بحركة ، خشية أن يحسسن وجودى فيفزعن ، ويولين هاربات ، شاردات ، وتسللت خفية فأختفيت وراء كوم من أعشاب الشاطئ ، وأخذت أرقبهن من مكمنى .

ودار بخلدى وقتذاك أنه لو عرضت هذه الحور العين على أهل الأرض ، ورأوها رأى العين كما أبصرتها أمامى ، وعلموا أن « العينة بينة » وأن للصالحين من هذا الصنف ما يشاءون . ترى هل يبقى فى الأرض بعد ذلك إنسان غير صالح ، وهل يجسر أحد على ارتكاب إثم أو جرم يحرمه تلك الحور ؟ لا أعتقد ، وأنا عن نفسى أؤكد أنه لو أجريت معى التجربة لقضيت عمرى ساجدا ، راكعا ، متعبدا ، متبتلا ، ولأصبحت فى حياتى ناسكا فى صومعة .

وأخذت أتأمل الحور الثلاث ، بأجسادهن الرائعة ، وبشرتهن النقية الصافية وصدورهن المتماسكة ، وهيأ لى السكر أن أسوق إليهن بعض ألفاظ الغزل مما تعودت استعماله مع نساء الأرض . وقلت لنفسى : إن النساء هن هن يحببن الثناء فى الأرض وفى السماء ، وبدأت أبحث فى ذهنى عن جملة ملائمة ، غزل سماوى من النوع الراق ، وهدانى العقل ، أو قل : قلة العقل ، إلى أن أنطلق صائحا :

ـــ تبارك الخلاق ! خلق فسوى .

ولم أكد أنطق بهذا حتى استسخفت نفسى ، ولم أشك فى أن صاحباتنا سيجبننى بنظرة ازدراء واحتقار ، ثم يتكرمن على بكلمة « يا سم »

أو « يا دم » ، ولكن رأيتهن ينظرن إلى باسمات ، ورأيت إحداهن تشير إلى محيية ، وتبعتها الثانية بصوت رقيق :

ـــ أهلا وسهلا .

وقال الثالثة :

ـــ تفضل .

يا نهار ابيض .. هكذا مرة واحدة .. سلامات وتحيات ، ودعوات طيبات .

وخرجت من مكمنى وقد تملكنى خجل ووجل ، رغم تلك الجرعة التى جرعتها من نهر « الجونى ووكر » واقتربت من الحور ، وقد أثملنى سحرهن أكثر مما أثملتنى الخمر .. وسألتنى إحداهن :

ـــ ألا تنوى الاستحمام ؟

ونظرت إلى النهر الأبيض وقلت فى دهش :

ـــ أستحم فى اللبن ؟

فأجابتنى فى تخابث ، وقد لاحظت ما علق بجسدى من عسل وخمر :

ـــ أليس هذا أفضل من غيره ؟

ـــ طبعا . طبعا . ولكن كنت أفضل لو كان عندكن ..

ـــ ماذا ؟

ـــ ماء .. ماء قراح .. ماء عادى .. فقد تعودنا أن نستعمله فى الأرض للاستحمام .

ـــ هيا .. هيا .. ولا تكن جاهلا .. إياك أن تذكر الماء بعد ذلك .. هيا اخلع ملابسك .

ـــ أخلع ملابسى ؟.. أستغفر الله .

ونظرت إلى الحور نظرتهن إلى أبله معتوه ... وتكأكأن على مقهقهات يحاولن نزع ملابسى .. وأخذت أحاول التملص منهن .. وقد أصابتنى نوبة من الضحك .

وفجأة سمعت صوتا جهوريا أعرف نبراته يهتف صائحا :

— هو .. أجل .. إنه هو بعينه .

وتلفت خلفى فإذا بحارسى قد وقف منى على قيد خطوات وهو يصيح :

— هو . الهارب المخادع . لقد ظن أنه يستطيع الفرار منى . والله لأرينك « نجوم الضهر » . ساعتين وأنا أبحث عنك حتى أعيانى البحث .. وأنت هنا مغرق فى اللهو والعبث ؟

وهنا وجدت الحور الثلاث قد أسرعن يسترن أنفسهن ، ونظرن إلى شذرا وقالت إحداهن :

— يا للفضيحة .. إذا فهو ليس من أهل الجنة ؟! يا للمخادع الشرير !!

وتملكنى غيظ وخجل .. ونظرت إلى حارسى الذى سبب لى هذا الحرمان وتلك السخرية وتمنيت لو استطعت أن أهجم عليه فأطبق على زمارة رقبته .. وصحت به :

— كف عن قلة الأدب .. واحفظ لسانك .. ما هذا الذى تقوله : هارب ومخادع .. أجننت ؟

— « ولك عين » تتكلم بعد كل ما فعلت ؟

— ماذا فعلت ؟

— ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

— أتيت للبحث عنك .

— عنى أنا ؟

— أجل لقد تلفت حولى فلم أجدك ، ورأيت أمامى بابا مفتوحا فظننتك قد دخلت منه ، فدخلت وراءك وظللت أبحث عنك حتى الآن .

— ولكنك تعرف أن الباب الذى دخلت منه هو باب الجنة .

— ومن قال لى إنى لن أدخل الجنة .. أنا رجل صالح ولم أفعل فى حياتى ما يستدعى دخولى النار .

وبدا على الحارس الأبلة أنه اقتنع بقولى .. وظهرت عليه علامات الندم على تهوره معى ، وأخذ يتمتم ببعض كلمات الاعتذار .. ثم ربت على كتفى قائلا :

ــ هيا بنا !..

ــ إلى أين ؟.

ــ ألم أقل لك إنى رجل صالح وإنى متأكد أن مصيرى الجنة .. فلم لا تتركنى وتذهب فى سبيلك ؟.

ــ لا تكن غبيا .. أنا لا أستطيع أن أذهب بالناس إلى الجنة أو النار .. أنا لست إلا حارسا أصعد بهم إلى السماء .. ولست أنت الذى تحكم على نفسك بالصلاح .. لابد لك من أن تؤدى الحساب عما فعلت .. ولابد أن توزن سيئاتك وحسناتك .. وسيكون مصيرك متعلقا بالكفة الراجحة .

ــ وأين هو هذا الميزان ؟. أحضره حالا .. فأنا لا أخشى الحساب .

ــ ليس الحساب هنا لابد لنا أن نخرج من هذا المكان .

وإزاء عناده واصراره لم أر بدا من الرحيل ، فأشرت إلى الحور بتحية وداع ، وغمزت لهن بعينى ، وأفهمتهن أن ينتظرننى ، فإننى عائد إليهن بعد قليل .

وسرت مع حارسى .. ووصلت إليه رائحة الخمر تنبعث من فمى . فنظر إلى وقال فى دهش :

ــ ما هذا ؟ .. أنت شارب .. هل تنوى أن تحضر الحساب هكذا .. ورائحة الخمر تفوح من فمك ؟.. هذا ليس فى مصلحتك .. و ..

ــ هذا خمر حلال .. من أنهار الجنة .

ــ حلال ، أو حرام ، هذا ليس من شأنى ، ولكننى أخبرك .. أنك أول من أراه يصعد إلى السماء وهو فى حالة سكر .

ــ أنا لست سكران .. أنا مبسوط فقط .

ووصلنا أخيرا إلى ساحة الحساب .. ووجدت حارس الميزان وقد جلس

متربعا على منصة .. ورأيته يفتل شواربه من حين لآخر . ولمحت على جانبيه ملكين قد حمل كل منهما جعبة ممتلئة منتفخة . وهمس حارسى فى أذنى مشيرًا إليهما :

ـــ هذا ملاك الخير .. وهذا ملاك الشر .

ونظرت إليهما وحييتهما ببشاشة قائلا :

ـــ أهلا .. أهلا .. آنستونا .

ولم يجبنى منهما أحد ، فنظرت إلى ملاك الخير ، وقلت له :

ـــ شد حيلك .. اجمد .. أنا فى عرضك .. إن الحور فى انتظارى .

ولم يعرنى الملاك أدنى التفات ، ونطق حارس الميزان موجها القول إلى ملاك الشر قائلا فى لهجة الأمر :

ـــ هات ما عندك .

وكرهت أن يفتتح الحساب ، ملاك الشر ، وحاولت أن أفهمهم أنى أرغب فى أن يبدأ بملاك الخير ، ولكنه نظر إلى شزرا وقال فى حنق :

ـــ اسكت أنت .

وبدأ ملاك الشر يخرج من جعبته محتوياتها ، وفحصت المحتويات بعينى ، فأدهشنى أن أجدها مجموعة من « مسامرات الجيب » .. وتملكنى العجب ، وصحت ساخرا :

ـــ أهذا هو الشر ؟

ولم يلتفت إلى أحد ، وبدأ ملاك الشر حديثه قائلا :

ـــ هذه هى الصور العارية التى كان ينشرها على صفحات المجلات ، والتى كان ينشر بها الرذيلة ويحض بها على الفجور ، وهذه القصص التى كان يحرض الناس فيها على الحب .

وبدأ يضع المجموعة الحاشدة فى الميزان فلم تتحرك الكفة ، ولم تهبط قيد أنملة ، وقال حارس الميزان :

ـــ « إن الله جميل يحب الجمال » .. هذا ليس بِشرّ ، ولا يعتبره شرا إلا صاحب النفس الشريرة ، التى يحرك غرائز الفجور فيها أى مظهر من مظاهر الجمال ، النفس التى لا تستطيع المقاومة والتى تخشى من كل شىء وتغمض عينها عن كل شىء . ماذا عندك غير هذا ؟

وبدا الدهش على ملاك الشر ، وأخذ يفتش فى جعبته ويدفع يده فى نهايتها محاولا البحث عن شىء آخر ، وأخيرا أخرج يده ببعض الفتات ، وقال فى غير اكتراث :

ـــ لم يبق معى غير أشياء ضئيلة .. لقد زجر المحاسَب ذات مرة سائلا محتاجا ورفض أن يعطيه قرشا ليشترى به قوتا لنفسه فى الوقت الذى دخل هو السينما ليرفه عن نفسه بعشرين قرشا .

ثم وضع « فتفوتة » فى كفة الميزان . فإذا بها تهبط حتى تصطك بالأرض .

وقال حارس الميزان :

ـــ هذا جرم خطير .. ماذا عندك غير ذلك ؟

ـــ لقد مر المحاسَب ذات مرة على طفل من أبناء السبيل لا يستر جسده سوى خرق بالية فى برد الزمهرير ، وكان هو يرتدى معطفا وجاكتة وصديريا من الصوف . فنظر إلى الطفل فى استهانة دون أن يحرك ساكنا :

ثم وضع « فتفوتة » أخرى فزادت الكفة هبوطا :

وظل يضع فتاته حتى أتى عليها .

وهنا كان الذعر قد تملكنى .. فنظرت إلى ملاك الخير وشككت كثيرا فى أنه يستطيع أن يثقل كفته فيوازن الميزان .

وتوجه حارس الميزان إلى ملاك الخير ، فقال :

ـــ هات ما عندك !.

وبدأ ملاك الخير يخرج من جعبته كتلا كبيرة وهو يقول :

ـــ هذه صلوات أربع سنين ، وصيام عشرة أعوام .

ثم ألقى بالكتل إلى كفة الميزان فلم تتحرك ، وكدت أصعق ، ونظرت إلى حارس الميزان ، فوجدته يهز رأسه أسفا ويقول :

ـــ لا فائدة ، لقد كانت صلاته ميكانيكية ، يركع ويسجد ، وهو شارد الذهن ، كأنه يقوم بحركات رياضية ، أما الصيام ، فلم يكن أكثر من تجميع أكلات اليوم فى أكلة واحدة يتناول فيها ما لذ وطاب من الكنافة ، وقمر الدين ، والمشمشية .

ـــ ماذا عندك غير هذا ؟.

وذهل ملاك الخير ، كما ذهل من قبل ملاك الشر ، وبدأ يبحث فى جعبته عن بقايا وفتات ، وأخيرا أخرج منه قرشا ، وقال :

ـــ هذا قرش أعطاه المحاسَب ذات مرة لخادم صغير كان يحمل طبقا من الفول فسقط منه ، وجلس يبكى ، ومر عليه المحاسَب وكان لم يزل طفلا صغيرا .. فأخرج مصروفه من جيبه وأعطاه للخادم ليشترى به فولا حتى لا يضربه سادته .

ثم وضع القرش فى الكفة . فإذا بها تهبط هبوطا عجيبا ، وتكاد تتعادل مع كفة الشر .

ثم مد يده بعد ذلك فى الجعبة ، وأخرج منها فنجانا صغيرا سكب منه بضع قطرات فى الكفة ، فإذا بها قد هبطت حتى تعادلت مع كفة الشر ، وقال الملاك :

ـــ هذه بعض الدموع التى سكبها المحاسَب .. فى مواساة نفس حزينة وقلب مكلوم .

وصمت ملاك الخير ، وسأله حارس الميزان :

ـــ هل عندك شىء آخر .

ـــ لا .

ثم التفت إلى ملاك الشر .

ـــ وأنت ؟

ـــ لا شيء .

ـــ الكفتان متوازيتان .. يعاد مرة ثانية .

وجرنى الحارس من يدى وعاد بى ، وهمست فى أذنه :

ـــ إلى أين ؟!.

ـــ إلى الأرض . فلابد أن ترجح إحدى الكفتين على الأخرى حتى نستطيع إدخالك الجنة أو النار .

وسرت بجواره ، ولكننى توقفت فجأة وسألته :

ـــ أتسمح لى بلحظة ؟.

ـــ لم ؟. .

ـــ أمر على الحور .. فإنى أخشى أن يقلقن من طول الانتظار .

ـــ لا تكن أحمق .. ألم تعرف من يدخل الجنة ، ومن يدخل النار ؟!..

ـــ أجل .. أجل ..

إذا فعد إلى الأرض واصنع من الخير ما ترجح كفته على كفة الشر ، وعندما تعود إلينا فى المرة القادمة سأذهب بك إليهن رأسا .. فستكون ضامنا الجنة .

للمؤلف

أطياف	(قصص قصيرة	١٩٤٧)
نائب عزرائيل	(رواية	١٩٤٧)
اثنتا عشرة امرأة	(قصص قصيرة	١٩٤٨)
خبايا الصدور	(« «	١٩٤٨)
يا أمة ضحكت	(« «	١٩٤٨)
اثنا عشر رجلا	(« «	١٩٤٩)
أرض النفاق	(رواية	١٩٤٩)
فى موكب الهوى	(قصص قصيرة	١٩٤٩)
من العالم المجهول	(« «	١٩٤٩)
هذه النفوس	(« «	١٩٥٠)
إنى راحلة	(رواية	١٩٥٠)
مبكى العشاق	(قصص قصيرة	١٩٥٠)
بين أبو الريش وجنينة ناميش	(« «	١٩٥١)
أغنيات	(« «	١٩٥١)
أم رتيبة	(مسرحية	١٩٥١)
هذا هو الحب	(قصص قصيرة	١٩٥١)
صور طبق الأصل	(« «	١٩٥١)
بين الأطلال	(رواية	١٩٥٢)
السقا مات	(« «	١٩٥٢)
سمار الليالى	(قصص قصيرة	١٩٥٢)
الشيخ زغرب	(« «	١٩٥٢)
نفحة من الإيمان	(« «	١٩٥٢)
وراء الستار	(مسرحية	١٩٥٢)
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة	١٩٥٣)
هذه الحياة	(« «	١٩٥٣)

البحث عن جسد	(رواية ٠٠٠٠٠ ١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية ٠٠٠٠ ١٩٥٣)
فديتك ياليلى	(رواية ٠٠٠٠٠ ١٩٥٣)
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
همسة عابرة	(» » ١٩٥٣)
رد قلبى	(رواية فى جزأين ١٩٥٤)
ليال ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)
طريق العودة	(رواية ٠٠٠٠٠ ١٩٥٦)
أيام تمر	(مقالات ٠٠٠٠ ١٩٥٧)
من حياتى	(» ٠٠٠٠٠٠ ١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(» ٠٠٠٠٠٠ ١٩٥٩)
نادية	(رواية فى جزأين ١٩٦٠)
جفت الدموع	(» » » ١٩٦١)
أيام مشرقة	(مقالات ٠٠٠٠ ١٩٦١)
أيام وذكريات	(» ٠٠٠٠٠٠ ١٩٦١)
أيام من عمرى	(» ٠٠٠٠٠٠ ١٩٦٢)
ليل له آخر	(رواية فى جزأين ١٩٦٤)
أقوى من الزمن	(مسرحية ٠٠٠٠ ١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزأين ١٩٦٩)
لست وحدك	(رواية ٠٠٠٠٠ ١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقالات ٠٠٠٠ ١٩٧٠)
أيام عبد الناصر	(» ٠٠٠٠٠ ١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(رواية ٠٠٠٠٠ ١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحلات ٠٠٠٠ ١٩٧١)
العمر لحظة	(قصة ٠٠٠٠٠٠ ١٩٧٣)

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه